

## الفصل الحادي والسبعون

### شعائر الدين

ولكل دين شعائر تكون له سمة وعلامة تميزه عن غيره من الأديان . ولما كنا قد ذكرنا ان الجاهليين كانوا شعوباً وقبائل ، لم تجمع بينهم وحدة ففكر ولم تضمهم دولة واحدة ، أو عقيدة مشتركة ، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن شعائر واحدة لجميع عرب الجاهلية .

وما سأذكره عن ديانات أهل الجاهلية ، مستمد إما من نصوص جاهلية ، وذلك فيما يخص العربية الغربية والعربية الجنوبية في الغالب، وإما من موارد اسلامية، وهو ما يتناول أهل الحجاز ، قبيل ظهور الاسلام ، وبعض أنحاء نجد . وهو مما جاء عنهم في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي وفي كتب التفسير والسير والأخبار مما له صلة بأيام الجاهلية المتصلة بالاسلام ، وبظهور الاسلام .

وفي مقدمة شعائر الدين عند أهل الجاهلية : الأصنام وبيوتها والتقرب اليها بالصلاة وبالسجود وبالطواف حولها ، وبالندور ، وبالجبوس وبالقسم بها ، وذلك لثمن على عبدها الانسان فتمنحه ما يرجوه في هذه الحياة من صحة وعافية ومال ونسل وذكرور : وتكاد تنحصر الكتابات الجاهلية التي عثر عليها حتى الآن بهذه الأمور ، اذ لا تكاد نجد فيها شيئاً له علاقة بالآلهة يخرج عن حدود ما ذكرت . ويكاد يقتصر ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ديانة أهل الجاهلية بهذه الأمور

Grohmann, S. 89, Jaussen - Savignac, Mission, II, 397, 401, 452.

أيضاً ، فلا تتجاوز ما ذكرته من تقرب الى صنم أو توسل اليه وطواف به ،  
لنيل شيء منه يتمناه ويرجوه في هذه الحياة الدنيا .

أما الصلاة الى الآلهة على نحو ما يفهم من الصلاة في الإسلام فلا نجد لها  
ذكرآ في النصوص الجاهلية ، ولا نكاد نجد لها صورة واضحة صحيحة في روايات  
أهل الأخبار ، اللهم إلا فيما يخص صلوات اليهود والنصارى والعرب فقد كان  
هؤلاء يصلون في كنائسهم في أوقات معينة ، وقف بعض أهل الجاهلية عليهما ،  
فأشاروا اليها في أشعارهم وفي حديثهم عن أهل الكتاب .

وقد ذكر ان عبدة ( الشمس ) كانوا قد ( اتخذوا لها صنماً بيده جوهر على  
لون النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى  
والضياح وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلون فيه لها ثلاث كرات في  
اليوم ، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون  
به . وهم اذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها ، واذا غربت واذا توسطت الفلك .  
ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة ، لتقع عبادتهم وسجودهم له . ولهذا  
نهى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعاً لمشابهة  
الكفار ظاهراً ، وسداً للريعة الشرك وعبادة الأصنام )<sup>١</sup> . وذكر ( يعقوبي )  
ان العرب كانت « اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها  
وصلتوا عنده ثم تلوا »<sup>٢</sup> . وفي هذين الخبرين دلالة على وجود الصلاة عند  
الجاهليين ، ولا سيما في خبر عبدة الشمس ، حيث كانوا يصلون ثلاث كرات  
لها في اليوم .

وذكر ان ( التسييح ) بمعنى الصلاة والذكر ، روي ان ( عمر ) جلد رجلين  
سبّحا بعد العصر ، أي صلّيا . وان قول الأعشى :

وسبّح على حين العشيّات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

يعني الصلاة بالصباح والمساء وعليه فسر قوله : فسبحان الله حين تمسون وحين  
تصبحون ، يأمرهم بالصلاة في هذين الوقتين<sup>٣</sup> .

١ بلوغ الارب ( ٢١٥/٢ وما بعدها ) .  
٢ اليعقوبي ( ٢٢٥/١ ) .  
٣ اللسان ( ٤٧٣/٢ ) ، ( سبّح ) .

وذكر انهم كانوا يصلّون على موتاهم ، وكانت صلاتهم ان يحمل الميت على سرير ، ثم يقوم وليّه ، فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه . ثم يقول : عليك رحمة الله . ثم يدفن<sup>١</sup> .

وقد أشير الى سجود الناس للشمس والقمر في القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا ، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون »<sup>٢</sup> . « يقول تعالى ذكره : فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر ، فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك ولا يتعظمون عنه »<sup>٣</sup> . كما أشير الى سجود أهل (سبأ) الى (الشمس) في الآية : « وجئتك من سبأ نبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون »<sup>٤</sup> . وفي هذه الآية وصف لتعبد أهل سبأ للشمس وسجودهم لها . وقد ذكر المفسرون أن ملكة سبأ « كانت لها كوة مستقبلة الشمس ، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها ، فتسجد لها »<sup>٥</sup> . فسجودهم للشمس ، هو عبادة لها وتعظيماً لشأنها .

### الصوم :

وأما (الصوم) ، فنحن لا نجد له ذكراً في الكتابات الجاهلية بالمعنى المفهوم منه عند أهل الكتاب أو المسلمين . وهو في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له . وقيل للصائم صائم لا مساكه عن المطعم والمشرب والمنكح ، وقيل للصائم صائم لا مساكه عن الكلام . « وقوله عزّ وجل : إني نذرت للرحمان صوماً . قيل :

- ١ المجير ( ٣٢٠ وما بعدها ) .
- ٢ سورة فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣٧ وما بعدها .
- ٣ تفسير الطبري ( ٧٧/٢٤ ) .
- ٤ النمل ، الرقم ٢٧ ، الآية ٢٤ .
- ٥ تفسير الطبري ( ٩٤/١٩ وما بعدها ) ، تفسير القرطبي ( ١٩٠/١٣ وما بعدها ) .

معناه صمتاً ، ويقويه قوله تعالى : فلن أكلّم اليوم إنسياً <sup>١</sup> . والصوم : الصبر كذلك .

وقد ذكر (الصوم) في السور المدنية ، أما في السور المكية ، فقد ذكر مرة واحدة ، في (سورة مريم) : « فقولي : لاني نذرت للرحمن صوماً . فلن أكلّم اليوم إنسياً » <sup>٢</sup> . وقد حددت السور المدنية أصول الصيام في الإسلام .

والصوم المعروف عند اليهود والنصارى معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب . فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود ، بسبب وجودهم بينهم . وكان عرب العراق وبلاد الشام على علم بصوم النصارى ، بسبب وجود قبائل عربية منتصرة بينهم . وكان أهل مكة ، ولاسيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب . وبصيام الرهبان ، المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة ، للتفكير في ملكوت السموات والأرض . ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم ، وسلك مسلكهم . فكان يصوم ، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والانزواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة .

ويذكر أهل الأخبار ان قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء . وفي هذا اليوم كانوا يحتفلون ، ويعيدون ، ويكسون الكعبة ، وعللوا ذلك بأن قريشاً أذنبت ذنباً في الجاهلية ، فعظم في صدورهم ، وأرادوا التكفير عن ذنبهم ، فقرروا صيام يوم عاشوراء ، فصاموه شكراً لله على رفعه الذنب عنهم <sup>٣</sup> . وذكر ان رسول الله كان يصوم عاشوراء في الجاهلية ، ولما قدم المدينة واظب عليه وأمر الناس بصيامه حتى نزل الأمر بصيام رمضان . وقد ذكر العلماء انه يحتمل ان قريشاً اقتدت بصيامه في الجاهلية ، بشرع سالف ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه <sup>٤</sup> . وذكر بعضهم : كان يوم عاشوراء ، يوماً تصومه قريش في الجاهلية ، اقتداءً بشرع سابق ، وكان النبي يصومه في الجاهلية ، فلما قدم المدينة صامه على عادته وأمر أصحابه بصيامه في أول السنة الثانية ، فلما نزل رمضان ، كان من

١ اللسان ( ٣٥٠ / ) ، ( صوم ) .  
٢ سورة مريم ، رقم ١٩ ، الآية ٢٦ .  
٣ بلوغ الارب ( ٢٨٨ / ٢ ) .  
٤ ارشاد الساري ( ٤٢١ / ٣ ) ، ( باب حكم صيام عاشوراء ) .

شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لا يصومه . وعللوا سبب صيام ( قريش ) هذا اليوم ، انه كان أصابهم قحط ثم رفع عنهم ، فصاموه شكراً<sup>١</sup> . وورد « ان قريشاً كانت تعظم هذا اليوم ، وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيمه » . وذكر ان رسول الله ، كان يتحرى صوم يوم عاشوراء على سائر الأيام ، وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صامه ، ومن شاء تركه . وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقبل له : « يا رسول الله انه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل ان شاء الله صمنا اليوم التاسع ، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله<sup>٢</sup> . وذكر أيضاً ان قريشاً كانوا اذا أصابهم قحط ثم رفع عنهم صاموا شكراً لله وحداً له على اجابة دعوتهم<sup>٣</sup> .

وقد أشار أهل الحديث الى صيام ( يوم عاشوراء ) ، فجعله بعضهم الصيام الذي كان في الإسلام قبل فرض صيام شهر رمضان ، وذكر بعضهم أنه كان مفروضاً الى السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخ بصوم رمضان<sup>٤</sup> .

وقد أشير الى الصيام في السور المكية من القرآن الكريم كما أشير اليه في السور المدنية ، ويدل نزول الوحي به في مكة وفي المدينة أنه كان من الشعائر الدينية القديمة ، وأن قريشاً كان لها علم به . ويظهر من بعض الآيات أن المراد من الصوم لم يكن الامتناع من الأكل والشرب حسَبُ ، بل كان يعني في أول عهد النبوة الامتناع عن الكلام كذلك<sup>٥</sup> .

ورواية أن قريشاً كانت تصوم في يوم ( عاشوراء ) ، لا تتفق مع الروايات الأخرى في كيفية فرض صيام شهر رمضان . ففي هذه الروايات أن النبي « حين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألهم : فأخبروه أنه اليوم الذي غرق الله فيه آل فرعون ، ونجى موسى ومن معه منهم . فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فرض صوم شهر رمضان ،

- 
- ١ ارشاد الساري ( ١٧٤/٦ ) ، « باب أيام الجاهلية » ،
  - ٢ زاد المعاد ( ١٦٤/١ ) وما بعدها .
  - ٣ ارشاد الساري ( ١٧٤/٦ ) .
  - ٤ راجع كتب الحديث : باب الصوم .
  - ٥ سورة مريم ، الآية ٢٦ . وهي سورة مكية ، رقمها ٥٨ حسب نزول السور بمكة .

لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه <sup>١</sup> . وورد أن يهود خيبر والمدينة كانوا يعظمون صيام عاشوراء ويتخذونه عيداً <sup>٢</sup> .

ويقصدون بصوم اليهود يوم عاشوراء ، ما يقال له ( يوم الكفارة ) ، وهو يوم صوم وانقطاع ، ويقع قبل عيد المظال بخمسة أيام ، أي في يوم ( ١٠ تشرى ) وهو يوم ( الكبور ) Kipur . ويكون الصوم فيه من غروب الشمس الى غروبها في اليوم التالي ، وله حرمة كحرمة السبت ، وفيه يدخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس لأداء الفروض الدينية المفروضة في ذلك اليوم <sup>٣</sup> .

ومما يلاحظ ان علماء التفسير والحديث ، قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في موضوع الصيام قبل نزول الأمر به وفرضه . فقال بعضهم كان المسلمون يصنعون كما تصنع من صيامهم خمسين يوماً ( حتى كان من أمر أبي قيس بن صرمة وعمر بن الخطاب ما كان ، فأحل لهم الأكل والشرب والجماع الى طلوع الفجر ) <sup>٤</sup> . وقال بعض آخر ، كان صيام الناس قبل فرض رمضان صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وذكر ان ذلك كان تطوعاً لا فرضاً ، ولم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الاسلام غير صوم شهر رمضان <sup>٥</sup> . ولم أتمكن من العثور على خبر قاطع يفيد بأن المسلمين كانوا يصومون بمكة قبل الهجرة الى المدينة .

ولا صلة لقصة ( أبي قيس بن صرمة الأنصاري ) ( أبو صرمة الأنصاري ) و ( عمر بن الخطاب ) بصيام عاشوراء ولا بعدد أيام الصوم . وكسل ما ورد فيها ان المسلمين كانوا في أول ما افترض عليهم في رمضان اذ أفطروا وكان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يرقدوا ، فإذا رقدوا حرم عليهم ذلك الى مثلها من القابلة ، فلم يزل المسلمون على ذلك ، حتى نام ( أبو قيس بن صرمة ) بعد افطاره وكان يعمل في حيطان المدينة بالأجر ، فلما أفاق أبى ان يأكل شيئاً وأصبح صائماً : وكان (عمر) قد وقع على جارية له ، فنزل الوحي

- ١ الطبري ( ٢٦٥/٢ ) ، « ذكر بقية ما كان في السنة الثانية من الهجرة » ، ارشاد الساري ( ٤٢١/٣ ) .
- ٢ ارشاد الساري ( ٤٢٣/٣ ) .
- ٣ قاموس الكتاب المقدس ( ٢٦٠/٢ ) .
- ٤ تفسير الطبري ( ٧٥/٢ ) وما بعدها .
- ٥ تفسير الطبري ( ٧٦/٣ ) وما بعدها .

بنسخ ذلك عنهم في آية : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائك هن لباس لكم وأنتم لباس لهن . علم الله انكم كنتم تختانون أنفسكم »<sup>١</sup> . فلا صلة لقصبتها بموضوع الصوم .

ويظهر أنه خبر صيام قريش يوم ( عاشوراء ) ، هو خبر متأخر ، ولا يوجد له سند يؤيده . ولا يعقل صيام قريش فيه ، وهم قوم مشركون . وصوم ( عاشوراء ) ، هو من صيام يهود . وهو صيام كفارة واستغفار عندهم ، فلم يستغفر قريش ويصومون هذا اليوم ؟ وماذا فعلوا من ذنب ، ليطلبوا من آلهتهم العفو والغفران ؟ وإذا كان هناك صوم عند الجاهليين ، فقد كان بالأحرى أن يصومه الأحناف ، ولم يرد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد صيامهم في (عاشوراء) ولا في غير عاشوراء . ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار ، يذكرون أن الرسول صام ( عاشوراء ) مقدمه المدينة على نحو ما ذكرت قبل قليل . وأنه بقي عليه حتى نزل الأمر بفرض رمضان . ويظهر أن الرواة أقحموا اسم قريش في صيام ( عاشوراء ) ، لإثبات أنه كان من السنن العربية القديمة ، التي ترجع الى ما قبل الإسلام . وأن قريشاً ، كانت تصوم قبل الإسلام<sup>٢</sup> .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن صوم أهل الجاهلية : صوم امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء . وهو صوم الاسلام ، وصوم امتناع عن الكلام وحبس للسان ، إما لأمد معين قصير ، مثل يوم أو اسبوع ، وإما لأمد طويل . وقد أشير في القرآن الكريم أن هذا الصوم في قوله تعالى : « فقولي لاني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلتم اليوم أنسياً »<sup>٣</sup> . وروي أن رجالاً من زهاد أهل الجاهلية كانوا يصومون هذا الصوم .

وقد اتخذ الصوم نذراً ، روي أن ( أبا بكر ) دخل على امرأة من (أحمس) يقال لها ( زينب ) ، فرآها لا تتكلم ، فقال : ما لها لا تكلم ؟ قالوا : حجبت مُصمّمة ، قال لها : تكلمي . فإن هذا لا يحل . هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت .

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، تفسير الطبري ( ٩٤/٢ وما بعدها ) .

٢ Sprenger; Leben, III, S. 54.

٣ سورة مريم ، الرقم ١٩ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري ( ٥٦/١٦ ) ، روح المعاني ( ٧٩/١٦ ) .

فقال له : من أنت : قال امرؤ من المهاجرين . قالت : أي المهاجرين ؟ قال لها : من قريش . قالت له : من أي قريش أنت ؟ قال : إنك لسؤول . أنا أبو بكر . قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية ؟ قال : بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم . قالت : وما الأئمة ؟ قال لها : كان لقومك رؤوس وأشرف يأمرونهم فيطيعونهم ؟ قالت : بلى . قال : فهم أولئك على الناس<sup>١</sup> .

فالتصميت ، وهو الصوم عن الكلام ، من فعل أهل الجاهلية . وهو معروف عندهم ، ولعله وقع لهم بتأثرهم بأهل الكتاب .

### التحنث :

ومن طرق عبادة أهل الجاهلية : التحنث ، أي التبعيد والتقرب الى الآلهة ، ومن ذلك حديث ( حكيم بن حزام ) : « رأيت أموراً كنت تحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة ، أي أتقرب الى الله تعالى بأفعال في الجاهلية »<sup>٢</sup> . وكان رسول الله « يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان مما تحنث به قريش في الجاهلية . والحنث : التبرر » . « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره - الكعبة قبل ان يدخل بيته ، فيطوف بها سبعمائة ، ثم يرجع الى بيته . وذكر ان ذلك الشهر هو شهر رمضان<sup>٣</sup> .

### الاختتان :

ومن شعائر الدين عند الجاهليين الاختتان . وهو من الشعائر الفاشية بينهم ،

- ١ ارشاد الساري ( ١٧٥/٦ وما بعدها ) ، ( انها مصممة ، انها نذرت أن لا تتكلم . فقال : تكلمي انما هذا من فعل الجاهلية ) ، الاصابة ( ٣١٥/٤ وما بعدها ) ، ( رضم ٥١٣ ، ٥١٥ ) ، اللسان ( ٥٥/٢ ) .
- ٢ تاج العروس ( ٦١٦/١ ) ، ( حنث ) .
- ٣ الطبري ( ٣٠٠/٢ ) .

حتى أنهم كانوا يعيرون ( الأغرل ) ، وهو الشخص الذي لم يَحْتَن . وكان منهم ولا سيما أهل مكة من يَحْتَن البنات أيضاً ، بقطع ( بظورهن ) . وتقوم بذلك ( الختانة ) ( الخاتنة ) . وقد كانوا يعيرون من تكون أمه ( ختانة ) نساء ، فإذا أرادوا ذم أحد قالوا له : يا ابن مقطعة البظور ، وإن لم تكن أم من يقال له : خاتنة<sup>١</sup> .

وأما الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى ، فمن السنن التي أقرت في الاسلام ، وقد أشير الى غسل الميت في شعر للأفوه الأودي<sup>٢</sup> . وأشير الى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشعار منسوبة الى الأعشى وإلى بعض الجاهليين<sup>٣</sup> . وورد أن قريشاً كانت تغسل موتاهم وتحنطهم ، ولكننا لا نستطيع تعميم هذه الأمور على كل العرب ، ولا الإدعاء بأنها كانت من شعائر الدين عندهم ، لما ذكرته مراراً من اختلاف العرب بأمور دينهم ، وعدم خضوعهم لدين واحد . بل ورد أن المشركين لم يكونوا يغتسلون من الجنابة ، وقد ذهب المفسرون الى أن لفظة (نجس) الواردة في الآية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وإن خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله »<sup>٤</sup> . فانما قصد بها أجناد ، « سمّاهم بذلك لأنهم ينجسون فلا يغتسلون . فقال : هم نجس ولا يقربوا المسجد الحرام ، لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد »<sup>٥</sup> . ولما نزل الأمر بمنع المشركين من دخول مكة ، « شق ذلك على أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : من يأتينا بطعامنا ومن يأتينا بالمتاع ؟ فنزلت وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » . و « كان المشركون يجيئون الى البيت ويجيئون معهم بالطعام ويتجرون فيه . فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون من أين لنا طعام ؟ فأنزل الله وإن خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله »<sup>٥</sup> .

والقرايين والنذور وزيارات المعابد والحج ، هي من أبرز الشعائر الدينية عند

- ١ تاج العروس ( ٥٢/٣ ) ، ( بظن ) ، نهاية الارب ( ١٧/١٠٠ ) .
- ٢ المحبر ( ٣١٩ وما بعدها ) .
- ٣ سورة التوبة ، الآية ٢٨ .
- ٤ تفسير الطبري ( ٧٤/١٠ ) .
- ٥ تفسير الطبري ( ٧٥/١٠ ) .

سواد الناس . وتكاد تكون مفهوم الدين عندهم ، وذلك لما فيها من تماس مباشر بأمر حياتهم ومصالحهم . فهم يفعلون ذلك لغايات استرضاء الآلهة والتوسل اليها بأن تعطيها غلة وافرة ومالاً ، فكانوا اذا تقربوا الى صنم أو دعوا ربهم أو أدوا مناسك نحجهم ( فلا يسألون ربهم ) إلا متساع الدنيا ( فن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا . هب لنا غنماً ، هب لنا إبلًا ) . ( وكانوا يعني في الجاهلية يقفون يعني بعد قضاء مناسكهم ، فيقولون : اللهم ارزقنا إبلًا ، اللهم ارزقنا غنماً ) ، وفي هؤلاء نزلت الآية : « فن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق »<sup>١</sup> .

والفقر هو الذي حمل هؤلاء على ان يتقربوا الى آلهتهم بالنذور والقرابين وبالحيح على فقرهم وجوعهم ، على أمل ان تعطف الآلهة عليهم ، فتمن عليهم بالمسال واليسر والبركة والصحة ، تماماً كما يفعل شراء أوراق ( النصيب ) أو أوراق سباق الخيل من الفقراء والمحتاجين على أمل الربح والكسب . وهذه النظرة المادية الساذجة، هي التي حملت عوامهم على تهديد آلهتهم وإخبارها انهم سيمتنعون عن تقديم أي نذر أو أداء أية زيارة لها ، إن لم تمنّ عليهم وتستجيب لأدعيتهم ، فتتخذ طلباتهم وما طلبوه منها . وهي التي تحملهم بعد ذلك على التراجع عن تهديداتهم هذه ، وعلى الاستغفار واطهار الندم لها ، لما بدر منهم من سوء أدب ، على أمل استرضائها من جديد ، بعد أن فشلت وسائل التهديد من تخويف تلك الآلهة .

### الحلال والحرام :

يقول ( ابن عساكر ) في رواية تنسب الى رجل من خثعم : « كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً . وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون اليها »<sup>٢</sup> . ومعنى هذا انهم كانوا يحللون ويحرمون . وأن أمر الحلال والحرام الى رجال الدين منهم ، وهم سدنة الأوثان . وقد تعرض ( اليعقوبي ) لموضوع ( أديان العرب ) وشعائرها ، فقال :

١ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري ( ١٧٤/٢ وما بعدها ) .  
٢ التاريخ الكبير ، لابن عساكر ( ٣١٧/١ ) .

« وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل المال ، والانتقال الى البلدان ، والانتجعات . فكانت قريش وعامة ولسد ( معد ) بن عدنان على بعض دين ابراهيم ، يحجون البيت ويقيمون المناسك ، ويقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم ، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ، ويعاقبون على الجرائم »<sup>١</sup> . فأدخل في الدين أموراً نعتها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك ، وجعلها من سنة ابراهيم ، أي دين العرب القديم قبل افساده بالتعبد للأصنام .

وذكر ( السكري ) ، أن العرب كانت « دون من سواها من الأمم . تصنع عشرة أشياء منها : في الرأس خمسة . وهي المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقص الشارب . وفي الجسد خمسة . هي : الختانة وحلق العانة ونتف الأبطين ، وتقليم الأظفار والاستنجاء . خصت بهذا العرب ، دون الأمم »<sup>٢</sup> . فهذه الأمور العشرة هي من شعائر العرب في نظر ( السكري ) . وهي شعائر ، لا يمكن أن نجاريه في رأيه ، فنقول إنها كانت في جميع العرب ، وإنها كانت فيهم خاصة ، دون غيرهم من الأمم وفي كلام ( السكري ) أمور كثيرة لا يمكن التسليم بصحتها بل نجده هو يناقض نفسه في مواضع أخرى من كتابه . من ذلك قوله : « وكانوا يؤمنون بالحساب »<sup>٣</sup> « ولا يأكلون الميتة »<sup>٤</sup> ، فعمم رأيه ، وجعله شاملاً كل العرب ، بينما هو رأي طائفة من الجاهليين ، وليس جميع أهل الجاهلية . وللقرآن الكريم دليل ذلك ، فقد حمل عليهم لنكرانهم البعث والحساب ، وحرم على المسلمين أكل لحم الميتة . « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »<sup>٥</sup> . وكانوا يأكلونها في الجاهلية .

وورد أن ممن حرم أكل الميتة على نفسه ( حارثة بن أوس ) الكلابي ، وهو جاهلي ، يقول : ♦

لا آكل الميتة ما عمرت نفسي وإن أبرح أملاقي  
والعقد لا أنقض منه القوى حتى يوارى القبر أطباتي<sup>٦</sup>

- |   |  |
|---|--|
| ١ | اليعقوبي ( ٢٢٤/١ ) ، ( أديان العرب ) .                                 |
| ٢ | المحبر ( ٣٢٩ ) .   |
| ٣ | المحبر ( ٣٢٢ ) .   |
| ٤ | المحبر ( ٣٢٩ ) .   |
| ٥ | المائدة ، الآية رقم ٣ ، تفسير الطبري ( ٤٤/٦ ) ، روح المعاني ( ٥١/٦ ) . |
| ٦ | المحبر ( ٣٢٩ ) .   |

## الفصل الثاني والسبعون

### الحج والعمرة

والحج الذهاب الى الأماكن المقدسة في أزمئة موقوتة ، للتقرب الى الآلهة، والى صاحب ذلك الموضع المقدس . وتقابل هذه الكلمة Pilgrimage في الانكليزية<sup>١</sup> . والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين .

وكلمة (حجّ) من الكلمات السامية الأصلية العتيقة ، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب المنسوبة الى بني سام<sup>٢</sup> . كما وردت في مواضع من أسفار التوراة<sup>٣</sup> . وهي تعني قصد مكان مقدس وزيارته .

وفي روع الشعوب السامية القديمة وغيرها أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها ، قيل لها في الأزمنة القديمة ( بيوت الآلهة ) . ولذلك يرى المتعبدون والمتقنون شدّ الرحال اليها ، للترك بها وللتقرب اليها ، وذلك في أوقات تحدد وتثبت ، وفي أيام تعين تكون أياماً حراماً لكونها أياماً دينية ينصرف فيها الانسان إلى آلهته ، ولذلك تعدّ أعياداً ، يعمد فيها الناس ، بعد اقامتهم الشعائر الدينية المفروضة

١ تفسير الطبري ( ٤٤/٢ ) ، ( البابي ) ، اللسان ( ٢٢٦/٢ ) ، الاقناع ( ٣٣٤/١ ) ،

الكشاف ، للزمخشري ( ٣٨٩/١ ) وما بعدها ) ،  
-Ency. Brita., Vol., 17, p. 925, Ency. Religl., Vol., 10, p. 10.

٢ تاج العروس ( ١٦/٢ ) وما بعدها ) ، اللسان ( ٤٨/٣ ) وما بعدها ) ،  
Ency. Religl., 10, p. 23.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 123.

ويعد أدايتهم القواعد المرسومة ، الى الفرح والسرور والرقص ، ليدخلوا السرور  
الى قلوب الأرباب . ففي الحج إذن مناسك وشعائر دينية وعبادة تؤدي ، واجتماع  
وسرور وحبور .

ويكون الحج بأدعية وبمخاطبة الى الآلهة وبتوسلات لتقبل حج ذلك الشخص  
الذي قصدها تقرباً اليها . وهذا هو الشائع والمعروف عن الحج ، غير أن من  
الجاهليين من كان يحج حجاً مصمماً ، أي دون كلام ، فلا يتكلم الحاج طيلة  
أيام حجه . وقد كان ذلك من عمل الجاهلية <sup>١</sup> .

وقد ميّز الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ ( شهر  
ذي الحجة ) وبـ ( شهر الحج ) . وذلك لوقوع الحج فيه . وهذه التسمية المعروفة  
حتى الآن في التقويم الهجري ، هي تسمية قديمة ، كانت معروفة في الجاهلية ،  
وردت في نصوص الجاهلية . فبين أسماء الأشهر الواردة في نصوص المسند اسم  
شهر يعرف بـ ( ذ حجتين ) أي ( ذي الحجة ) ، ويدل ذلك على أنه الشهر  
الذي يحج فيه . وقد وردت كلمة ( حج ) في نصوص المسند كذلك <sup>٢</sup> .

وقد ذكر ( أفيثانيوس ) Epiphanius ان من أسماء الأشهر عند العرب شهراً  
اسمه Aggathalbaeith ( حج البيت ) <sup>٣</sup> ، أراد به شهر ( ذي الحجة ) . والعرب  
الذين قصدهم هذا الكاتب هم عرب ( الكورة العربية ) ، ومعنى هذا ان العرب  
الشماليين كان لهم شهر يسمى بـ ( ذي الحجة ) كذلك <sup>٤</sup> .

ولفظه Aggathalbaeith ، هي لفظة عربية النجار حرفت على لسان (أفيثانيوس)  
وقومه ، لتناسب منطقهم ، فصارت على هذا النحو ، وهي من كلمتين عربيتين  
في الأصل ، هما ( حجة البيت ) ، أو ( حج البيت ) . ويكون نص (أفيثانيوس)  
هذا من النصوص المهمة بالنسبة لنا ، التي تساعدنا في الرجوع بتاريخ استعمال هذا  
المصطلح الى ايامه ، ولا بد وان يكون ذلك المصطلح قد استعمل قبل أيام ذلك  
الكاتب ولا شك .

ويقع شهر الحج ( ذي الحجة ) - على رواية ( افيثانيوس ) - في ( تشرين

١ ارشاد الساري ( ١٧٥/٦ ) .

٢ D. Nielsen, Mondreligion, S. 86, Glaser 1054, Wiener Mus., No. 7.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 124.

٤ Reste, S. 85, Ency. Religi., 10, p. 10.

الثاني) <sup>١</sup> ، وأشار ( بروكوبيوس ) الى ان العرب كانوا قد جعلوا شهرين من السنة حرماً لآهتهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً <sup>٢</sup> ، كما أشار ( فوتيوس ) الى الأشهر الحرم عند العرب <sup>٣</sup> . والشهران اللذان أشار اليهما ( بروكوبيوس ) ، هما شهرا ذو القعدة وذو الحجة في نظر ( ونكلر ) ، وهما يمثلان - في رأيه - ( جولاي ) و ( أغسطس ) أي تموز وآب <sup>٤</sup> .

إننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقول إن شهر ( ذ حجتن ) المذكور في المسند ، أو Aggathalbaeith الذي ذكره ( افيثانيوس ) ، هو شهر ( ذو الحجة ) الشهر المعروف الذي كان من شهور أهل مكة . فمن الجائز أن يكون حج العرب الشماليين أو حج العرب الجنوبيين في وقت آخر يختلف عن وقت حج أهل مكة ، فيكون شهرهم المذكور شهر آخر يقع في موسم آخر من السنة ، ولا ينطبق مع شهر ( ذي الحجة ) .

ويرى ( ونكلر ) أن ما ذكره ( فوتيوس ) من احتفال العرب مرتين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس : مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمائة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف وذلك لمائة شهرين ، إنما يراد بذلك شهر رمضان لاقتران الشمس فيه ببرج الثور . وأما الشهران الآخران فهما ذو القعدة وذو الحجة <sup>٥</sup> .

ويظهر من غربلية ما أورده أهل الأخبار من روايات عن موسم الحج في الجاهلية ، أن الحج الى مكة كان في موسم ثابت ، هو الربيع على رأي كثير من المستشرقين ، أو الخريف على رأي ( ولوزن ) <sup>٦</sup> . وذلك بسبب ما ذكر عن النسيء ومن رغبة قريش وغيرها من أن يكون في وقت واحد ، كما تحدثت عن ذلك في باب النسيء . وقد ذهب ( ولوزن ) الى أن ( الشهر الحرام ) المذكور في القرآن الكريم ، هو ( شهر الحج ) ، وهو الشهر الأول من السنة ،

Reste, S. 100, Epiphanius, Haer., 51, 24. ١  
Procopius, II, 16. ٢  
Reste, 101. ٣  
Winekler, ALF. II, Reihe, Ibd., S. 336. ٤  
Winckler, ALF., II, Reihe, Ibd., S. 336. ٥  
Shorter, p. 124. ٦

أي شهر محرم ، بينما يرى المفسرون أنه رجب ، أو ذو القعدة أو ذو الحجة<sup>١</sup> .  
والأصح أنه أي شهر من الأشهر الحرم .  
وقد ورد في القرآن الكريم : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »<sup>٢</sup> . وقد قال (الطبري) : « اختلف أهل التأويل في قوله : الحج أشهر معلومات . فقال بعضهم : يعني بالأشهر المعلومات : شوالاً وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة » ، « جعلهن الله سبحانه للحج ، وسائر الشهور للعمرة ، فلا يصالح ان يحرم أحد بالحج إلا في أشهر الحج . والعمرة يحرم بها في كل شهر »<sup>٣</sup> ، وذكر ان الله لم يسم أشهر الحج في كتابه ، لأنها كانت معلومة عندهم<sup>٤</sup> ، وان المراد بذلك انه لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج ، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج<sup>٥</sup> . وبناءً على ذلك ، فلا يكون المراد من الآية ان الحج يقع في كل وقت من أوقات هذه الأشهر . وانما هو في وقت معين ، ولكن الإحرام للحج ، أي العزم عليه يكون في أي وقت من هذه الأشهر المذكورة ، وليس في الأشهر الأخرى . وذكر (المسعودي) ان أشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة<sup>٦</sup> .  
ومعنى ما تقدم ان الجاهليين كانوا يتهيأون للحج من دخول شهر شوال ، فيصلحون أمورهم ، ويحضرون ما يحتاجون اليه من لوازم السفر ، فإذا أراد أحدهم تجارة وكسباً ذهب الى الأسواق ، حتى يهل شهر ذو الحجة ، وإن لم يرد تجارة ، ذهب في أي وقت يراه مناسباً له . فبدء موسم الحج اذن والتهيؤ له يكون من شهر شوال .

ويظهر من شعر نسب الى (عوف بن الأحوص) أنه سمي شهر (ذي الحجة)  
( شهر بني أمية ) . إذ يقول :

ولإني والذي حجت قريش محارمه وما جمعت حراء  
وشهر بني أمية والهدايا إذا حبست مضرجهما الدماء<sup>٧</sup>

Shorter, p. 409.

- ١
- ٢ البقرة ، الآية ١٩٧ .
- ٣ تفسير الطبري (١٠٥/٢) .
- ٤ القرطبي ، الجامع (٤٠٥/٢) .
- ٥ تفسير الطبرسي (الجزء الثاني) (ص ٢٩٢ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢٣٥/١) .
- ٦ مروج (١٨٩/٢) ، الكشاف (٢٥٤/١) .
- ٧ شرح ديوان لبيد (٢١) .

وقد ذهب (ولهوزن) وجاعة آخرون من المستشرقين الى تعدد بيوت الأرباب التي كان يحج إليها الجاهليون في شهر (ذي الحجة) والى عدم حصر الحج عند الجاهليين بموضع واحد<sup>١</sup>. ومعنى هذا أن حج أهل الجاهلية لم يكن الى (مكة) وحدها، بل كان الى محجات عديدة أخرى. بحيث حج كل قوم الى (البيت) الذي قدسوه وكانوا يتقربون اليه ووضعوا أصنامهم فيه. ويتفق هذا الرأي مع ما يراه أهل الأخبار من وجود بيوت للأصنام، وكان الناس يزورونها ويتقربون إليها ويدبحون عند أصنامها ويطوفون حولها ويلبسون تلبية الصنم الذي يطوفون حوله.

والحج الى مكة والى البيوت المقدسة الأخرى، مثل بيت اللات في الطائف وبيت العزى على مقربة من عرفات وبيت مناة وبيت ذي الخليفة وبيت نجران وبقية البيوت الجاهلية المعظمة، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بتلك الأيام وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفسهم بحسب اعتقادهم وتقترن هذه الاحتفالات بذبح الحيوانات، كل يذبح على قدر طاقته ومكانته، فياًكل منها في ذلك اليوم من لم يتمكن من الحصول على اللحم في أثناء السنة لفقره، فهي أيام يجد فيها الفقراء لذة ومتعة وعبادة.

ويذكر أهل الأخبار أن الحج الى مكة كان في الجاهلية كذلك، وأن الجاهليين كانوا يحجون الى البيت منذ يوم تأسيسه، وأنهم كانوا يقصدون مكة أفواجاً من كل مكان. وأن ملوكهم كانوا يتقربون الى (بيت الله) بالهدايا والندور، وأن منهم من حج الى مكة. وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوس جميع الجاهليين.

غير أننا نجد في روايات بعض أهل الأخبار ما ينافي تعظيم كل العرب للبيت وحجهم اليه واحترامهم للحرم وللأشهر الحرم. فقد ورد ان من العرب من (كان لا يرعى للحرم ولا للأشهر الحرام حرمة)، ومنهم (خثعم) و (طيء)<sup>٢</sup>، وأحياء من قضاة ويشكر والحارث بن كعب<sup>٣</sup>. وورد ان ذؤبان العرب وصعاليكها

Reste, S. 84. ١

٢ تاج العروس (٢٤١/٨)، (حرم) .

٣ الجاحظ . الحيوان (٢١٦/٧) وما بعدها ، النجيري ، أيمان العرب (١٢) ،

المحبر (٣١٩) .

وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، ولا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً . وقد كانوا خطراً يهدد البيت وأهله لذلك، ألف (هاشم) بين قريش وسادات القبائل ألفة ليحمي بهم البيت . قال ( الجاحظ ) في تفسيره للإيلاف : « وقد فسرهم قوم بغير ذلك . قالوا : إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤديونها إليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طيء وختعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب »<sup>١</sup> . ورؤوس القبائل الذين جعل هاشم عليهم ضرائب يؤديونها إليه ليحمي بها أهل مكة ، هم رؤساء مكة ولا شك ، ومن كانت له مصلحة تجارية مباشرة بمكة ، فكان يأخذ من هؤلاء ما يأخذه ثم يجمعه ويعطيه الى ( المؤلفة قلوبهم ) من سادات القبائل النازلين حول مكة وعلى مقربة منها ، كما ألف بين مكة وبين سادات القبائل الذين تمر قوافل مكة بأرضهم في طريقها الى الشام أو العراق أو اليمن ، بروابط ( الإيلاف ) ، أي العقود التي عقدها معهم ، باعطائهم جعلاً معيناً ، أو حقوقاً تبين وتكتب ، أو ربحاً يدفع مع رؤوس المال عن البضائع التي تدفع لقريش ، لتقوم قوافلها ببيعها في الأسواق . وبذلك أمنت مكة وسلمت تجارتها ، ودانت بعض القبائل بدين قريش في الأشهر الحرم ، لما فيها من فائدة ومنفعة مادية بينة ظاهرة ، فاحترمتها، وبهذا أمن الحج واستراح التجار من قريش ومن غيرهم في ذهابهم بحرية وبأمان في هذه الشهور الى الأسواق .

ولست لدينا وبا للأسف أخبار مدوّنة عن ناسك الحج وشعائره عند الجاهليين . لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة إلينا . ما خلا الحج الى ( بيت الله الحرام ) بمكة ، حيث حفظت الموارد الإسلامية لنا شيئاً من ذلك ، بسبب فرض الحج في الاسلام ، وقرار الاسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه ولولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن الحج الى مكة عند الجاهليين . ولهذا فسأقتصر في كلامي هنا على الحج الى مكة فقط . إلا إذا وجدت خبراً أو نصاً عن حج غير

١ رسائل الجاحظ (٧٠) ، Kister, p. 119, 143. ، طبقات الشعراء ، لابن سلام (٦١) ، الثعالبي ، المضاف والمنسوب (٨٩) ، النقائض (٦٧١/٢) ، ابن هشام (٦٠٣/١) ، الأزمنة والامكنة ، للمرزوقي (١٦٦/٢) ، الاغانى (٤٢/٢١) .

أهل مكة من الجاهليين الى مكة أو الى بيوت أخرى فسأتكلم عنه حينئذ .  
ويظهر من غرابة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ( حج البيت ) ، أن  
مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج ، بل كانت تختلف باختلاف القبائل .  
فقد انفردت ( قريش ) بأمر من أمور الحج ، واعتبرتها من مناسك حجها ،  
وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها ( قريش ) موجبة لها ، ولم تعمل بها  
ووقفت قريش في مواقف ، اعتبرتها مواقف خاصة بها . وأوجب على من يفد  
الى مكة للحج ، مناسك معينة سنتحدث عنها . فلما ظهر الاسلام وحسد مناسك  
الحج وثبتها . وأوجب على كل مسلم اتباعها .

ويبدأ الحج في الاسلام بلبس ( الاحرام ) حين بلوغه ( الميقات ) المخصص  
للجهة التي جاء منها . و ( ميقات ) الحج موضع احرامهم<sup>١</sup> . وقد عين الرسول  
أكثر ( المواقيت ) وثبتها ، فجعل ( ذا الحليفة ) ميقاتاً لأهل ( يثرب ) ،  
و ( الجحفة ) ميقاتاً لأهل الشام ، و ( يلملم ) ميقاتاً لأهل اليمن ، و ( قرن  
المنازل ) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز . وأما ( ذات عرق ) ،  
فميقات أهل العراق ، قيل ان الرسول ثبته ، وقيل إنه ثبت بعد فتح العراق .  
أما أهل مكة ، فكانوا يحرمون من بيوتهم<sup>٢</sup> . ويجوز أن تكون هذه المواقيت من  
مواقيت أهل الجاهلية كذلك ، وقد ثبتها الاسلام .

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم ( سوق عكاظ ) . فإذا انتهت  
ايام السوق ، وأراد منهم من أراد الحج ، ذهب الى ( بجنة ) ، فأقام بها الى  
هلال ذي الحجة ، ثم ارتحل عنها الى ( ذي المجاز ) ، ومنه الى ( عرفة ) ،  
فإذا كان يوم التروية ، تزودوا بالماء وارتفعوا الى عرفة . هذا بالنسبة الى التجار ،  
الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة . أما بالنسبة الى غيرهم ، فقد كانوا  
يقصدون الحج في أي وقت شاءوا ، ثم يذهبون الى ( عرفة ) للوقوف موقف  
عرفة ، يقصدها ( الحلة ) ، أما ( الحمس ) فيقفون بـ ( نمرة ) ، ثم يلتقون  
جميعاً بمزدلفة للإفاضة<sup>٣</sup> .

١ تاج العروس ( ٥٩٤/١ ) ، ( وقت )  
٢ شرح النووي على صحيح مسلم ( ١٩٠/٥ وما بعدها ) ، ( حاشية على ارشاد  
الساوي ) ، ارشاد الساري ( ٩٧/٣ وما بعدها )  
٣ الأزرقي ، أخبار مكة ( ١٢١/١ وما بعدها )

ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال . فكانوا يهلّون عند أصنامهم ، ويلبّون إليها ، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة ، فكان الأنصار مثلاً يهلّون لمناة في معبده ، أي أنهم كانوا يغادرون (يُثرب) إلى معبد الصنم، فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة، فإذا أهلتوا لبّوا ، ثم يسير من يسير منهم إلى مكة ، لحج البيت<sup>١</sup> .

والطواف بالبيوت وبالأصنام ، ركن من أركان الحج ، ومنسك من مناسكه . وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام ، فإذا دخل أحدكم الحرم ، وإذا سافر أو عاد من سفر ، فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت . وقد فعل غيرهم فعل قريش ببيوت أصنامهم ، إذ كانوا يطوفون حولها، كالذي كان يفعله أهل يثرب من طوافهم بـ ( مناة )<sup>٢</sup> .

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجفات ، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة ، ويقال لها الرجمة<sup>٣</sup> . وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك . وذكر ( نيلوس ) Nilus أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للآلهة<sup>٤</sup> . وكانوا يطوفون حول القبور أيضاً : قبور السادات والأشراف من الناس .

وطافوا حول ( الأنصاب ) ، ويسمون طوافهم بها ( الدوار ) . فكانوا يطوفون حول حجر ينصبونه طوافهم بالبيت ، وسمّوا تلك الأحجار الأنصاب<sup>٥</sup> . وللطواف كلمة أخرى هي ( الدوار ) من ( دار ) حول موضع من المواضع ، وطاف حوله الشيء ، وإذا عاد إلى الموضع الذي ابتداء منه . ونجد هذا المعنى في شعر الشعراء الجاهليين : امرئ القيس ، وعنترة بن شدّاد العبّسي<sup>٦</sup> . وقد ذكر علماء اللغة أن ( الدوار ) صنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار . ومنه قول امرئ القيس :

فَعَنَ لَنَا سِيرِبٌ كَأَن نَبْعَاجِهِ عَذَارَى دَوَارٍ ، فِي مَلَأٍ مَذِيلٍ<sup>٧</sup>

- ١ صحيح مسلم ( ٦٨/٤ وما بعدها ) .
- ٢ شرح صحيح مسلم ، للنووي ( ٢١/٨ وما بعدها ) .
- ٣ تاج العروس ( ٤٢٢/٣ وما بعدها ) ، « عمر » اللسان ( ٢٨٤/٦ ) .
- ٤ Reste, S. 108.
- ٥ الاصنام ( ٤٢ ، ٣٣ ) .
- ٦ اللسان ( ٢٩٦/٤ وما بعدها ) .
- ٧ اللسان ( ٢٩٧/٤ وما بعدها ) .

Shorter Ency. of Islam, p. 585.

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة. وقيل حجارة كانوا يطوفون حولها تشبهاً بالكعبة<sup>١</sup>.

وتلعب عبادة الحجر دوراً بارزاً في (الدوار). فقد كان قوم من أهل الجاهلية يقيمون الأحجار، ثم يطوفون حولها، يتخذون الدوار عبادة لهم. وقد تكون الأحجار أصناماً، وقد تكون حجارة تنتقى فيطاف حولها. و«عن أبي رجاء العطاردي، قال: لما بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، فسمعنا به لحقنا بمسيلة الكذاب، فلحقنا بالنار، وكنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه، ألقينا ذلك وأخذناه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ثم جثنا بغنم فحلبناها عليه ثم طقنا به. وكنا إذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأسته، فلا ندع سهماً فيه حديدة، ولا حديدة في رمح إلا نزعناها وألقيناها»<sup>٢</sup>.

ويلاحظ أن الجاهليين كانوا يقيمون وزناً للحليب في أمور العبادة، فقد كانوا يسكبونه على الأصنام، كما رأينا في باب الأصنام، وفي القصة المتقدمة. ويلاحظ أن الرواية قد خصصت حليب الغنم، ولم تشر إلى حليب الإبل، أو حليب أية ماشية أخرى، مما قد يدل على وجود رابطة بين هذا الحليب وبين (الدوار) وأن له علاقة بالأساطير، وذلك في حالة صدق الخبر بالطبع.

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب إلى الآلهة. يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة، وليس له وقت معلوم. ولا يختص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه صنم، أو كعبة أو ضريح، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضاً: كما يطوفون حول الذبائح المقدمة إلى الآلهة. فالطواف، إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين.

وكانوا يطوفون بالبيت في نعالهم، لا يطأون أرض المسجد تعظيماً له<sup>٣</sup>. إلا أن يكون الحاج فقيراً حافياً، فقد كان منهم من لا يملك نعالاً ولا خفياً ولا

١ تاج العروس (٢١٦/٣)، (دار).  
٢ زاد المعاد (٣٢/٣)، (فصل في قدوم وفد بني حنيفة)، ارشاد الساري (٤٣٥/٦)، (باب وفد بني حنيفة).  
٣ اليعقوبي (٢٢٦/١)، (أديان العرب).

سائر ما يلبس بالرجل لفقره . وذكر أن رسول الله قال : « من لم يجد نعلين ، فليلبس خفين »<sup>١</sup> . وقد ذكر ( السكري ) ، أن ( الحمس ) كانوا « لا يطوفون بالبيت إلا في حذائهم وثيابهم ، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيماً لبقعته »<sup>٢</sup> . وذكر أن ( الحلة ) كانوا على العكس منهم . « فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم »<sup>٣</sup> .

وكانوا يدخلون جوف الكعبة بنعالهم ، لا يتأثمون من ذلك . وذكر أن ( الوليد ابن المغيرة ) كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة ، تعظيماً لها ، فخلع الناس نعالهم<sup>٤</sup> .

وعدة الطواف حول الكعبة عند الجاهليين سبعة أشواط ، ولا أستبعد ان يكون هذا العدد ثابتاً بالنسبة الى الطواف حول البيوت الأخرى أو حول الرجفات والأنصاب والقبور أيضاً . فقد كان الطواف سبعة أشواط مقررأ عند غير العرب أيضاً ، وقد ذكر في ( التوراة ) ، اذ كان العبرانيون يمارسونه<sup>٥</sup> . والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة . ولهذا أرى ان غير قریش من العرب كانوا يطوفون هذا الطواف أيضاً حول محجّاتهم في ذاك الوقت .

وقد ورد أن من الجاهليين من كان يطوف ويده مربوطة بيده انسان آخر ، بجبل أو بسير ، أو بزمام أو منديل ، أو خيط أو أي شيء آخر ، يفعلونه نذراً ، أو حتى لا يفترقا . وقد نهى عن ذلك في الإسلام . فقد روي أن الرسول رأى أحدهما وقد فعل ذلك ، فقطع بيده ذلك الرباط<sup>٦</sup> .

- 
- ١ صحيح مسلم ( ٢/٤ وما بعدها ) ، ( كتاب الحج ) ، ارشاد الساري ( ٣/٣١٣ وما بعدها ) ، ( باب لبس الخفين للمحرم اذا لم يجد النعلين ) .
  - ٢ المحبر ( ١٨٠ ) .
  - ٣ المحبر ( ١٨٠ وما بعدها ) .
  - ٤ ابن رسته ، الاعلاق ( ١٩١ ) .
  - ٥ Shorter Ency. of Islam, p. 585.
  - ٦ صحيح البخاري ( ١٧٩/٢ ) ، ارشاد الساري ( ٣/١٧٣ وما بعدها ) ، ( باب الكلام في الطواف ) .

## الحمس والطلس والحلة :

والأخباريون يذكرون ان الطائفتين بالبيت كانوا على صنفين : صنف يطوف عرياناً ، وصنف يطوف في ثيابه . ويعرف من يطوف بالبيت عرياناً ب (الحلة). أما الذين يطوف بثيابهم ، فيعرفون ب (الحمس)<sup>١</sup> . وأضاف بعض أهل الأخبار الى هذين الصنفين ، صنفاً ثالثاً قالوا له : ( الطلس )<sup>٢</sup> .

وقبائل الحلة من العرب : تميم بن مرّ كلّها غير يربوع ، ومازن ، وضبة ، وحيس ، وظاعة ، والغوث بن مر ، وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفاً وعدوان ، وعامر بن صعصعة ، وربيعة بن نزار كلّها. وقضاعة كلّها ما خلا علفاً وجناباً . والأنصار وخثعم ، وبجيلة ، وبكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهذيل بن مدركة ، وأسد وطية ، وبارق . وقد ذكر هذه الأسماء ( محمد بن حبيب )<sup>٣</sup> . وذكرها ( اليعقوبي ) على هذا النحو : تميم وضبة ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلّها ما خلا عدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلّها ، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزدي<sup>٤</sup> .

وهم يذكرون ان (الحلة) هم ما عدا الحمس وانهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحس، وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها<sup>٥</sup> . ويذكرون أنهم كانوا يقولون: « لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب » ، « ولا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها » ، « ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها » ، وذكر أنهم « كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فيلقونها عنهم ، ويسمون ذلك الثوب اللقي »<sup>٦</sup> . وفي رواية ان من يطوف

- ١ تفسير الطبري ( ١٧٠/٢ ) ، البخاري ، ( كتاب الحج ، الباب ٩١ ) ، ( كتاب التفسير ، الباب ٣٥ ) ، البلدان ( ٦٢٠/٤ وما بعدها ) ، الأزرقى ( ١١٣/١ ) ، اليعقوبي ( ٢٢٦/١ ) ، النجف ١٩٦٤ م ، المحبر ( ١٧٨ ) ، ابن هشام ( ٢١٢/١ ) ، الكشاف ( ٢٥٦/١ ) ، شرح حماسة أبي تمام ، للتبريزي ( ٧/١ ) ، شرح المفضليات ، للأنباري ( ٢٥٩ ) ، ابن رشيق ، العمدة ( ١٨٨/٢ ) ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ( ١٨ ) .
- ٢ المحبر ( ١٧٨ وما بعدها ) .
- ٣ المحبر ( ١٧٩ ) .
- ٤ اليعقوبي ( ٢٢٦/١ ) ، ( النجف ١٩٦٤ م ) .
- ٥ الروض الانف ( ١٣٣/١ ) .
- ٦ الأزرقى ( ١١٧/١ ) ، اللسان ( ١٢٢/٢٠ ) ، الكشاف ( ٦٠/٢ ) .

من ( الحلة ) بثيابه يضرب وتنتزع منه ثيابه<sup>١</sup> . فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة محتم عليهم ، لا يجوز مخالفته ، وإلا تعرض المخالف للعقاب . وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً إذا كنّ من الحلة ، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة<sup>٢</sup> . وقيل تضع احداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه<sup>٣</sup> . وقيل كانت تقف على باب المسجد ، فتقول : من يعير ثوباً؟ من يعير ثوباً؟ من يعيرني تطوافاً؟ فإن أعارها أحد ثوباً أو كراه لها طافت به ، وإلا طافت عريانة كما يطوف الرجال على حشد زعم الروايات . لا يستر عورتها لباس أو قماش ، بل كانت تضع إحدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو . وهم يروون في ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جميلة ، قيل هي : ضباعة بنت عامر بن صعصعة ، طافت بالبيت عريانة وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله<sup>٤</sup>

وشاءت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس ، فذكرت ان بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها تستر بها<sup>٥</sup> ، وذكرت روايات أخرى انهن كن يطفن ليلاً ، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال ، لأن طواف الرجال في النهار<sup>٦</sup> .

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت : « يبدأ بإساف فيستلمه ، ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعا ، استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس ، فيأخذها فيلبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك

- ١ الكشاف ( ٦٠/٢ ) ، الأزرقى ( ١١٢/١ ) وما بعدها .
- ٢ صحيح مسلم ( ١٦٢/١٨ ) .
- ٣ سيرة ابن هشام ( ١٣٣/١ ) « حاشية على الروض » .
- ٤ الأزرقى ( ١١٥/١ ، ١١٧ ) ، اللسان ( ١٢٩/١١ ) ، « طوف » الروض ( ١٣٣/١ ) ، صحيح مسلم ( ١٦٢/١٨ ) ، تفسير الطبري ( ١١٨/٨ ) ، تفسير القرطبي ، الجامع ( ١٨٩/٧ ) .
- ٥ الأزرقى ( ١١٧/١ ) .
- ٦ الأزرقى ( ١١٧/١ ) ، الطبرسي ( ٤١٤/٣ ) .

عرياناً»<sup>١</sup> . هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الاسلام على رواية أهل الأخبار .  
 وجاء في بعض الروايات : « كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الخمس ،  
 والخمس قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عراة، إلا ان تعطيم الخمس  
 ثياباً ، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء » ، « فن لم يكن له من العرب  
 صديق بمكة يعيره ثوباً ولا يساراً يستأجر به ، كان بين أحد أمرين : إما ان  
 يطوف بالبيت عرياناً ، وإما ان يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى  
 ثوبه عنه ، فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللقي »<sup>٢</sup> . وجاء أيضاً ان  
 ( الخمس ) كانوا « يقولون نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب ان  
 يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل اذا دخل أرضنا إلا من طعامنا »<sup>٣</sup> .

وورد أنهم « كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون  
 فيها ويصفقون »<sup>٤</sup> .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان طواف الطائف عرياناً انما يكون للمرة الأولى ،  
 فإذا عاد فطاف بعد ذلك ، لبس ملابسه ، وطاف بملابسه كالخمس لا يلقبها  
 خارج حدود الحرم .

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العري ، هو رغبة الطائف حول  
 البيت ان يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران . واعتقاده ان  
 طوافه بملابسه طواف غير صحيح ، لأن ملابسه شاركته في آثامه ، فهي ملوثة  
 نجسة ، ولذلك هاب من لبسها ، فإذا آتم طوافه تركها في موضعها، ولبس ملابس  
 أخرى جديدة<sup>٥</sup> .

ويذكر الأخباريون ان تلك الملابس التي يلقبها المحرم تبقى في مكانها، لا يمسه  
 أحد ، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح . ويقال  
 لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف ( اللقي ) . وقد أشير إليها في شعر

- 
- ١ الأزرقى ( ١١٤/١ ) .
  - ٢ تفسير القرطبي ( ١٨٩/٧ ) .
  - ٣ المصدر نفسه .
  - ٤ تفسير النيسابوري ( ١٥٧/٩ ) ، « حاشية على تفسير الطبري » ، تفسير الطبري  
 ( ١٥٧/٩ وما بعدها ) .
  - ٥ الأزرقى ( ١١٧/١ ) ، اللسان ( ١٢٢/٢٠ ) ، الكشاف ( ٦٠/٢ ) .

ل ( ورقة بن نوفل )<sup>١</sup> . ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران ، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها، فتركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبت بها الى ان تتمزق وتهرى<sup>٢</sup> .

ولكننا نجد الأخباريين يعودون فيروون روايات تناقض ما ذكروه عن (اللقى). إذ يقولون : كان الحلة اذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة ، خرجوا الى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد ، فلبسوها ، فإذا أرادوا الطواف مرة أخرى طافوا بملابسهم<sup>٣</sup> . فهم يقولون في هذه الرواية طواف العري ، ولكنهم ينكرون ترك ( اللقى ) على الأرض لتدوس عليها الأقدام ولتلعب بها الرياح وتعبت بها الأهوية والأتربة ، ويجعلون أصحابها يعودون إليها فيلبسونها تارة أخرى .

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر ان أحداً من الحلة اذا لم يجد ثياب أحسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها ، غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقي يطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسه أحد ولا ينتفع بها منتفع حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار<sup>٤</sup> .

وقد ذكر ( محمد بن حبيب ) ان ( الحلة ) كانوا اذا دخلوا مكة « تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة ان يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم . فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة . وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه . فن لم يجد ثوباً طاف عرياناً . وانما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم الى البيت لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشترروا شيئاً ولا يبيعهوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم . وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حرمي عياض بن حمار المجاشعي : كان اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله »<sup>٥</sup> .

١ كفى حزنا كرسي عليه ، كأنه لقي بين أيدي الطائفين حريم الازرقى ( ١١٢/١ ، ١١٤ ) ، اللسان ( ١٢٢/٢٠ ) ، النهاية في غريب الحديث ( ٢٩/٤ ) ، تفسير القرطبي ، الجامع ( ١٨٩/٧ ) .  
٢ Robertson Smith, p. 751.  
٣ الازرقى ( ١١٤/١ ) .  
٤ الازرقى ( ١١٤/١ ) .  
٥ المحبر ( ص ١٨٠ وما بعدها ) .

فالذي يطوف بالبيت عرباناً ، هو ضعيف ( الحلة ) ، ممن لا قبل له على استكراء ثياب له من أحسي ، ومن لا صاحب له من الحمس ، يعطيه ثياباً ليلبسها . أما المتمكن من ( الحلة ) ، ومن له صديق من الحمس ، فلا يطوف عرباناً ، وإنما يطوف بثياب أحسي .

ويرى ( روبرتسن سمث ) ان الذي أوحى الى الجاهليين وجوب طرح ملابس الحلة اذا أحرم فيها، اعتقادهم بتقدس تلك الملابس في أثناء الإحرام مما يجعلها في حكم الـ (تابو) Tabu عند الأقسام البدائية ، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى، وهم أنفسهم قوم غير مقدسين<sup>١</sup> .

وقد منع الاسلام طواف ( العربي ) في أي وقت كان ، وحتم على الجميع قریش وغيرهم لبس (الإحرام)<sup>٢</sup> . وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى : « واذا فعلوا فاحشة ، قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون »<sup>٣</sup> . ان هذه الآية نزلت في حق المتعمرين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة ، « فإذا قيل لهم : لم تفعلوا ذلك ؟ قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ، « فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون ، وقتلدي بهديهم ونستن بسنتهم . والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه »<sup>٤</sup> . فنحن اذن أمام سنة جاهلية قديمة ، ترجع طواف العربي الى أمر سابق وشريعة سابقة .

وأما ( الحمس ) ، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم ، ثم يحتفظون بها فلا يلقونها ، فلهم من هذه الناحية ميزة امتازوا بها على الحلة . ولهم على الحلة ميزة أخرى ، هي أنهم كانوا يقفون الموقف في طرف الحرم من (غرة) : يقفون به عشية عرفة ، ويظلمون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة<sup>٥</sup> . ولا يقفون موقف غيرهم بعرفة ، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل . وحجتهم أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه مثل سائر

R. Smith, p. 751.

١  
٢ الازرقى ، أخبار مكة ( ١١١/١ ) .  
٣ الاعراف ، الرقم ٢٧ الآية ٢٨ .  
٤ تفسير الطبري ( ١١٤/٨ ) ، تفسير القرطبي ، الجامع ( ١٨٧/٧ ) .  
٥ الازرقى ( ١١٦/٨ ) وما بعدها ( ١٥٨/٢ ) وما بعدها ، النهاية ( ٢٣٣/١ ) ، شرح النووي ، ( ١٨٠/٨ ) وما بعدها ، Ency., II, p. 335.

الناس . ويقولون : « نحن أهل الحرمة وولاية البيت وقطآن مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف »<sup>١</sup>.

وتفسير كلمة ( الحمس ) في رأي علماء اللغة التشدد في الدين ، سُمّوا حمساً لأنهم كانوا يتشددون في دينهم ، فكانوا اذا زوّجوا امرأة منهم لغريب عنهم ، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه ان كل من ولدت له ، فهو أحسبي على دينهم . وكانوا اذا أحرموا لا يأقطنون الاقط ، ولا يأكلون السمن ولا يسأؤونه ولا يمحضون اللبن ، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرمًا ، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه ، وانما يستظلون بالأدم ، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم . وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم . وكانوا اذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام ، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته فمَنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه . وكانوا يقولون : لا تعظموا شيئاً من الحل ، ولا تتجاوزوا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم ، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم ، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة . فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا . وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم ، لا نخرج من الحرم، ونحن الحمس . وكانوا اذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم ، تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ، ثم ينزلون في حجرتهم ، ويحرمون ان يمروا تحت عتبة الباب<sup>٢</sup> . فهم يحرمون اذن أشياء لم تكن العرب تحرمها<sup>٣</sup> .

١ ابن هشام ( ١٣٢/١ ) « هامش على الروض » .

٢ الازرقى ( ١١٦/١ وما بعدها ) ، النهاية ( ٢٣٣/١ ، ٢٩٣ ) ، الاشتقاق ( ١٥٣ ) ،

ابن هشام ( ٢١١/١ ) ، الكامل ، لابن الاثير ( ٣٩١/١ ) ، الطبرسي ( ٤١١/٢ ) .

Caetani, Annali, I, S. 121, Ency., II, p. 335, Snouck Hurgounje, Het Mekkaanische Feest, p. 21, 77, 111, 130.

٣ المعاني ( ٩٩٨/٢ ) .

والحمس : قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس على رواية<sup>١</sup> .  
تضاف اليهم خزاعة والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة  
وأزد شنوءة وجذم زبيد وبنو ذكوان من بني سليم وعمرو اللات وثقيف وغطفان  
والغوث وعدوان وعلاف وقضاعة على رواية للأزرقي<sup>٢</sup> . وهم : (قريش) وكنانة  
وجديلة قيس ، وفهم ، وعدوان ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة على رواية  
أخرى<sup>٣</sup> . وقد ذكر ( ابن سعد ) ، ان الحمس هم : قريش وكنانة وخزاعة  
ومن ولدته قريش من سائر العرب . أو حليف قريش . وذكر بعض الرواة أنهم  
قريش وعامر بن صعصعة ، والحارث بن كعب<sup>٤</sup> . وذكرهم بعض آخر على هذا  
النحو : قريش ، وكنانة ، وخزاعة ، وثقيف ، وخنعم ، وعامر بن صعصعة ،  
ونصر بن معاوية . وأضاف (القرطبي) جشمأ اليهم<sup>٥</sup> . وورد ان « الحمس لقب  
قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة وجديلة قيس . وهم : فهم وعدوان ابنا  
عمرو بن قيس عيلان ، وبنو عامر بن صعصعة ، ومن تابعهم في الجاهلية .  
هؤلاء الحمس . وانما سموا لتحمسهم في دينهم أي تشددهم فيه ، وكذا في  
الشجاعة فلا يطاقون ، أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة »<sup>٦</sup> .

وأورد ( ابن حبيب ) أسماء الحمس من العرب ، فقال : « قبائل الحمس  
من العرب : قريش كلها . وخزاعة لتزولها مكة ، ومجاورتها قريشاً . وكل من  
ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب .

فمن ولدت قريش : كلاب ، وكعب ، وعامر ، وكلب بنوربيعة بن عامر  
ابن صعصعة . وأمهم مجد بنت تيم بن غالب بن فهر . واياها عنى لبيد بن ربيعة بقوله :

سقى قومي بني مجد وأسقى نيراً والقبائل من هلال

- ١ النهاية في غريب الحديث ( ٢٩٣/١ ) ، تاج العروس ( ١٣٢/٤ وما بعدها ) ،  
(حمس) ، اللسان ( ٢٥٧/٧ وما بعدها ) ، (حمس) ، ارشاد الساري (٢٠٠/٣) ،  
البلخي ، البدء والتاريخ ( ٣٢/٤ وما بعدها ) .
- ٢ البلدان ، ( مكة ) ، Kister, p. 138.
- ٣ الطبقات ( ٧٢/١ ) ، ( صادر ) .
- ٤ ابن هشام ( ٢١٢/١ ) ، ابن قتيبة ، المعارف ( ٢٦٩ ) ، المعاني ( ٩٨٩ ) ، المرزوفي ،  
شرح الحماسة ( ٣١ ) ، Kister, p. 132.
- ٥ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ( ٣٤٥/٢ ) ، أبو حيان ، البحر المحيط ( ٦٣/٢ ) ،  
Kister, p. 132.
- ٦ تاج العروس ( ١٣٢/٤ ) ، (حمس) .

والحارث بن عبد مناة بسن كنانة . ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة ،  
بنزولهم حول مكة . وعامر بن عبد مناة بن كنانة . ومالك ، وملكان ، ابنا  
كنانة ، وثقيف ، وعدوان ، ويربوع بن حنظلة . ومازن بن مالك بن عمرو بن  
تميم . وأمها جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر . ويقال : ان بني عامر كلهم  
حمس لتحمس اخوتهم من بني ربيعة بن عامر . وعلاف ، وهو ربان بن حلوان  
ابن عمران بن الحاف بن قضاة . وجناب بن هبل بن عبدالله من كلب . وأمه  
أممنة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأمها مجد بنت تيم الأدرم بن غالب  
ابن فهر <sup>١</sup> .

ويتبين مما تقدم ان (الحمس) ، لم يكونوا قريشاً وحدهم وسكان الحرم ،  
وانهم لم يكونوا جماعة قامت وظهرت على رابطة الدم والنسب ، كما هو الحال  
بالنسبة الى القبيلة . بل هم قريش وكل من نزل الحرم وسكن مكة ، وطوائف  
من العرب شاركت قريشاً في مناسك حجها ، وسارت على نهجها في الحج ،  
وشاظرها الرأي في دينها . وقد ذكر ( الجاحظ ) ان ( عامر بن صعصعة ) ،  
و ( خزاعة ) ، و ( ثقيفاً ) ، والحارث بن كعب ، كانوا ديّانين ، أي على  
رأي ودين <sup>٢</sup> . وكانوا على دين قريش . وقال غيره : « وصارت بنو عامر من  
الحمس وليسوا من ساكني الحرم لأن أمهم قرشية . وهي مجد بنت تيم بن مرة .  
وخزاعة انما سميت خزاعة ، لأنهم كانوا من سكان الحرم فخرعوا عنه ، أي  
خرجوا . ويقال انهم من قريش انتقلوا بينهم الى اليمن . وهم من الحمس » <sup>٣</sup> .

وقد ميّز بعض العلماء بين ( الحمس ) وهم نزلاء الحرم ، وبين المتحمسين  
الذين دخلوا في الحمس ، لأن أمهاتهم من قريش ، بأن أطلقوا عليهم لفظة  
( الأحامس ) . فقالوا : « والأحاس من العرب الذين أمهاتهم من قريش » <sup>٤</sup> .  
وجاء في بعض الأخبار ان ( غطفان ) ، لما اتخذت لها بيتاً أرادت به مضاهاة  
الكعبة ، وجعلت له حرماً كحرم مكة . أغار ( زهير بن جناب الكلبي ) عليه

١ المحبر (١٧٨ وما بعدها) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٥٤٠) ، ابن عبد البر ، انباه  
(٨٧) ، المفضليات ، شرح الانباري (٢٥٩) .  
٢ Kister, p. 136.  
٣ تاج العروس (١٣٢/٤) ، (حمس) .  
٤ تاج العروس (١٣٣/٤) ، (حمس) .

وهدمه<sup>١</sup> . وكان زهير من الخمس .

وقد وصف ( ابن سعد ) ( التميمي ) بقوله : « والتميمي أشياء أحدثوها في دينهم تحمسوا فيها ، أي شددوا على أنفسهم فيها ، فكانوا لا يخرجون من الحرم إذا حجّوا ، فقصروا عن بلوغ الحق ، والذي شرع الله ، تبارك وتعالى ، لإبراهيم وهو موقف عرفة ، وهو من الحل ، وكانوا لا يسألون السمن ولا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحرم من الأدم ، وشرعوا لمن قدم من الحاج ان يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا الى عرفة ، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة أو في ثوبي أحمسي<sup>٢</sup> ، وان طاف في ثوبيه لم يحلّ له ان يلبسها<sup>٣</sup> . »

وللجاحظ ملاحظات قيمة عن قريش لها صلة بالتميم ، وقد تفسر لنا معنى التميمي وسبب شموله أناساً هم من غير قريش .

ذكر ان الاسلام لما ظهر ، لم تكن هنالك أية امرأة قرشية ، كانت مسبية عند غير قريش . ولم تكن هنالك أية امرأة مسبية في أيدي القبائل وأمها من قريش . ويذكر أيضاً ان قريشاً لم تكن تزوج بناتها من أبناء أشرف القبائل حتى تشترط عليهم ان من تلد منهم ، فيكون من يلدن من الخمس . أما هم ، فكانوا اذا تزوجوا من بنات قبائل أخرى ، فإنهم لم يشترطوا على أنفسهم أي شرط ، وكان من هذه القبائل عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة والحارث بن كعب ، ( وكانوا ديبانين ) . وكانوا على دين قريش في أمورهم . وكانت قريش كريمة ، ولم ترض بالغايات والغزو ولا بالظلم ولم تقبل بالوآد ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء . وكان من فضائلهم ان من الله عليهم بالإيلاف . فأغناهم وجعلهم (لقاحاً) ، فلم يخضعوا للملك ، ولم يستعبدتهم سلطان أجنبي<sup>٤</sup> . ولم يدفعوا أي شيء عنهم للملك من الملوك . بل كانت الملوك تأتي الى مكة وتعظم البيت وتحترم سكانه . وهم قريش الخمس<sup>٥</sup> .

١ الاغانى (١٢/١٢١) ، (٦٢/٢١) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (٧٢/١) ، (صادر) .

٣ أخذت هذه الملاحظات من (كستر) (Kister) ، لعدم وجود مخطوطة الجاحظ التي نقل منها عندي . وهي : مختارات فصول الجاحظ ، الموجودة في المتحف البريطاني برقم ٣١٨٣ .

٤ ابن الفقيه ، كتاب البلدان (١٨) .

ويظهر من ملاحظات الجاحظ المذكورة ، ان من أهم مبادئ الخمس ، نبد الغارات ، أي الغزو ، حتى جعلته قريش ركناً من أركان دينها . كما تمسكت بركن آخر ، هو عدم الدخول بمن يقع في أيديهم من النساء السبايا في حالة ما اذا أغارت قبيلة عليهم ، واعتدت عليهم ، فانتصرت قريش عليها ، وأخذت منها سبايا . أما الخمس الآخرون ، مثل عامر بن صعصعة وثقيف والحارث بن كعب ، وأمثالهم ممن تحمسوا ، فلم يتمسكوا بهذه الأصول . وذكر ( ابن الفقيه ) ان القبائل المذكورة لم تكن في الأصل حمساً ، على دين قريش ، وإنما تحمست وصارت من الخمس بتأثير قريش عليها<sup>١</sup> . وقريش تمسكوا وحدهم بالخمس ، ( وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء )<sup>٢</sup> . وقد عرفت مكة بـ ( دار الخمس ) ، كما جاء ذلك في شعر ينسب الى ( الكاهن اللهي )<sup>٣</sup> . وعرفت قريش بـ ( أهل الله )<sup>٤</sup> .

ونجد بين ( الخمس ) والحرم صلة متينة ، تشير الى الأصل الديني للحمس والى ارتباطهم بالكعبة . فذهب ( الزمخشري ) الى ان ( حمس ) من ( حرم )<sup>٥</sup> : ومن دلائل هذه الصلة أيضاً ما ورد في كتب أهل الأخبار من ان الكعبة كانت قد عرفت بـ ( الحمساء ) . سميت بذلك ( لأن حجرها أبيض الى السواد )<sup>٦</sup> . ومن ان ( الخمس ) هم نزلاء الحرم<sup>٧</sup> . فبين الخمس والحرم ، صلة متينة اذن . حتى قيل ان المنسوب الى الحرم من الناس ( حرمي )<sup>٨</sup> . و ( ان عياض بن حمار المجاشعي ، كان حرمي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان اذا حج طاف في ثيابه . وكان أشرف العرب الذين يتحمسون على دينهم ، أي يتشددون اذا حج أحدهم لم يأكل إلا طعام رجل من الحرم : ولم يطف إلا في ثيابه .

١ Kister, p. 137.

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٨) ، (أهل الله) . Kister, p. 137.

٣ الروض الانف (١١٨/١) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٤٩١) ، Wellhausen, Reste, S. 134, Kister, 138.

٤ Kister, p. 139.

٥ الزمخشري ، الفائق ، (حمس) ، Kister, p. 138.

٦ تاج العروس (١٣٢/٤) ، (حمس) .

٧ تاج العروس (١٣٢/٤) ، (حمس) .

٨ بالكسر .

فكان لكل رجل من أشرفهم رجل من قريش . فيكون كل واحد منها حريمي صاحبه «<sup>١</sup> . ويفسر لنا هذا المعنى أيضاً قولهم : « رجل حرام : داخل في الحرم » ، و « الحرم بالكسر الرجل المحرم . يقال : أنت حل وانت حرم »<sup>٢</sup> . وقد أنجب الزواج المشروط بين قريش وبين من يتزوج منها حساً جديداً ، انتقل الخمس اليهم عن طريق ( شرط عقد الزواج ) من جهة الأمهات . أما نسل هؤلاء الخمس الجدد ، الذين هم في الواقع أنصاف أحاس ، فقد صار حساً مثل قريش ، لأنهم ولدوا من والد حسب من الخمس ومن والدة أممية . وبذلك لم يعد الخمس أهل مكة وحدهم ، بل شمل أهل مكة ومن تزوج مكنيات فأنجبن ولدأ ، عدواً حساً بشرط العقد .

وتذكر بعض الروايات ان عقيدة (الخمس) لم تكن قديمة ، بل ظهرت قبيل الاسلام . « قال ابن اسحاق : كانت قريش لا أدري قبل الفيل أو بعده ، ابتدعت أمر الخمس رأياً . فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقولون انها من المشاعر والحج ، إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم ، ونحن الخمس . والخمس أهل الحرم . قالوا : ولا ينبغي للخمس ان يتأفتوا الأقط ولا يسئلوا السمن ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حراماً ، ثم قالوا : لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عمّاراً ، ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الخمس »<sup>٣</sup> . ولم تذكر هذه الرواية سبب ظهورها ، ولا من أوجدها من رجال قريش .

ويتبين من غريبة ما ذكره أهل الأخبار عن الخمس : ان الخمس هم أهل مكة الأحرار في الأصل ، ثم من دان بدينهم . وجدوا أنفسهم في ضنك شديد، في واد غير ذي زرع ، لا شيء عندهم غير ( البيت ) ، فتحمسوا في دينهم وتشددوا وتعاونوا فيما بينهم على العمل معاً ، وعلى الدعوة الى عبادة رب البيت واقراء الضيف والامتناع عن غزو غيرهم ، وعن التحرش بأحد ، إلا اذا تحرش بهم ، وعلى إغاثة الملهوف ومساعدة من يأت البيت حاجاً أو معتمراً أو قاصداً

- ١ تاج العروس (٢٤٣/٨) ، (حرم) .
- ٢ تاج العروس (٢٤٣/٨) ، (حرم) .
- ٣ ارشاد الساري (٢٠٠/٣) .

تجارة ، وتقديم الرفادة له . ونصرة الغريب . وحافظوا على الحرمات : حرمة البيت وحرمة الحج وحرمة الأشهر الحرام ، ووضعوا لأنفسهم قواعد صارمة في آداب السلوك في موسم الحج وفي غيره ، تشعر أنهم كانوا ينظرون الى أنفسهم كأنهم ( جنس ) ، فضله الله على بقية أجناس العرب ، لهم مناسكهم ، ولبقية العرب مناسكهم ، ولهم قباب خاصة يضربونها لأنفسهم في سوق عكاظ وفي المواضع الأخرى تميزهم عن سائر من يفد الى هذه المواضع، وترفّعوا عن مصاهرة سائر الناس إلا اذا وجدوا أنهم أكفاء لهم ، والكفاءة : القوة والمال . وأقاموا مجتمعهم الخاص هذا على قواعد دينية تعاونية اقتصادية ( صاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء )<sup>١</sup> . شعارهم أنهم ( أهل الله )<sup>٢</sup> ، دينهم « التحمس والتشدد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسي واستحلال الأموال ، فلما زهدوا في الغنصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة : فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم ، والنجاشي بالحيشة ، والمقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »<sup>٣</sup>. وكان ان تفرّدوا بالإيلاف، وللإيلاف ارتباط بالحمس ، وتوجهوا الى التجارة والاتجار ، وجمعوا بين الدين والمال ، وأفسحوا المجال لمن به نشاط وهمة ان يجمع مالا وأن يكون غنياً على ان يساهم بنصيبه في تحمّل أعباء مجتمعهم ، للدفاع عن ( بيت الله ) ولكسب المتحالفين معهم وتوزيع العدل فيما بينهم ، توزيعاً يخفف من حدة التفاوت فيما بين الغني والفقير ، حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع، يحمل الفقراء على انتزاع المال من الأغنياء كرهاً وقسراً . وجعلوا ذلك واجباً من واجباتهم ، فحثوا على رفع الظلم ، واتخذوا السقايبة والرفادة ، وعقدوا ( حلف الفضول ) للدفاع عن المحتاج ، وجعلوا ( الإيلاف ) الذي سأتكلم عنه في الجزء الخاص بالحياة الاقتصادية ، سبباً من أسباب اشاعة الرحمة ومساعدة الفقراء وتخفيف وطأة الفقر في هذه القرية : ( أم القرى ) ، وفي ذلك يقول (مطروود بن كعب الخزاعي) في رثائه عبد المطلب :

- 
- ١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨) ، (أهل الله) ، (ص١١) ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) .
  - ٢ ثمار (ص ١٠) .
  - ٣ نمار (ص ١١ وما بعدها) ، سيرة ابن دحلان (١/١٤٠) ، (حاشية على السيرة الحلبية) .

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف  
هبلتك أملك لو نزلت عليهم ضمنوك من جوع ومن لإقراف  
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف  
والمطعمون اذا الرياح تناوحت ورجال مكة مستنون عجاف  
والمفضلون اذا المحول ترادفت والقائلون هلتم الأضياف  
والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي  
كانت قريش بيضة فتفلقت فالمح خالصة لعبد مناف<sup>١</sup>

قام رجال من رجال مكة بالانفاق على المحتاجين، فعدوا ذلك ديناً ومرورة وشهامة. فكان ( نعيم بن عبدالله ) العدوي ، ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم<sup>٢</sup>. وكان ( حكيم بن حزام ) ينفق من أرباحه على المحتاجين من آله وذويه<sup>٣</sup>. وكان صديق النبي قبل المبعث<sup>٤</sup>، وتذكر كتب السير والتراجم أسماء رجال آخرين عرفوا بتصدقهم على الفقراء والمحتاجين ، اعتبروها منقبة وقربة لهم في الجاهلية ، وقد أقرهم الرسول عليها .

فالحمس ( أهل الله ) ، وأمته ، تجمعهم عبادة الله والأصنام ، والمناسك والشعائر التي وضعوها لهم ، والتجارة التي جعلوها مثل شعائر دينهم ، ينفقون من أرباحهم منها في سبيل (الله) . أي بيت الله وأهله المستضعفون ، حتى جعلوا الصدقة وإطعام المحتاج من أمور الدين. فجتمعهم مجتمع جمع بين الدين والتجارة ، وبين الدين والمال . حثهم على التعاون بخلط رؤوس أموالهم والاتجار معاً بقوافل ، وفيه ربح كبير مضمون ، وحثهم على إنصاف من ليس له شيء حتى يصير

١ أخذت هذه الايات من أمالي المرتضى (٢/٢٦٨) ، وتختلف بعض الاختلاف عن أمالي القالي (١/٢٤١ وما بعدها) ، التي فيها :

منهم علي والنبي محمد القائلان هلم للأضياف  
وعن سيرة ابن هشام (١/١١٧) ، (حاشية على الروض الانف) ، وعن معجم الشعراء (٣٧٥) ، وشرح ابن أبي الحديد (٣/٤٥٣) ، والعيني (٤/١٤٠) ، والبكري ، سمط (٥٤٧) وما بعدها) ، وعن تفسير الطبرسي (ح ٣٠ ص ٥٤٥) ، (طبعة طهران) ، تفسير سورة لايلاف قريش ، وعن ابن العربي ، محاضرات الابرار (٢/١١٩) ، والبلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، والدياربكري ، تاريخ الخميس (١/١٥٦) .

٢ الاصابة (٣/٥٢٧) ، (رقم ٨٧٧٨) .  
٣ نسب قريش (١/٣٦٧) ، (رقم ٦٤٤) ، Kister, p. 125.

٤ الاصابة (١/٣٤٨ وما بعدها) ، (رقم ١٨٠٠) .

مكتفياً غير محتاج ، لا يوجه عينه نحو غيره حسداً وحقداً . شعار هذا المجتمع الله والأصنام والحج والتجارة ، مجتمع لم يكن يخلو بالطبع من أحامس بخلاء ، شذوا عن الطريق ، واغتصبوا أموال الفقراء ، كما هو الحال في كل مجتمع بشري .

وقد اقتضت (قريش) ، وهم من الحمس ، على استعمال القباب المصنوعة من الأدم لا يضربها غيرها بـ (منى) <sup>١</sup> . لأنهم ( كانوا لا ينسجون مزال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم ) <sup>٢</sup> . وقد استعمل الرسول في حجة هذا النوع من القباب <sup>٣</sup> . ولا بد أن يكون لاقتصار قريش على استعمال هذا النوع من القباب دون غيرها في هذا الموضع ، سبب ما ، الأرجح انه عامل ديني واجتماعي <sup>٤</sup> . ويلاحظ انه كان للقباب الحمر ذكر خطير ، وجاه عظيم في نظر الجاهليين ، فكان أصحابها يفتخرون على غيرهم بأنهم ( أهل القباب الحمر ) <sup>٥</sup> ، وقد كان الملوك والسادة يضربون لأنفسهم القباب الحمر . فهي من امارات الجاه والمكانة والنفوذ .

ويظهر من بعض الأسماء أو الجمل التي وردت فيها كلمة (أحمس) و (حمس) ان هذه الكلمة هي نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين في الأصل ، ثم تغير معناها بعد ذلك فصارت على النحو الذي ذكره علماء اللغة نقلاً عن الروايات التي ترجع ذلك المعنى الى الجاهلية المتصلة بالاسلام . ففي الأسماء الواردة لنا : ( أحمس الله ) ، و ( بنو أحمس ) ، و ( أبو أحمس ) ، و ( الأحامس ) <sup>٦</sup> ؛ ما يفيد ان الأصل بعيد جداً عن المعنى الذي فهمه وذهب اليه أهل الأخبار ، وان للكلمة معنى دينياً خاصاً قديماً ، هو التشدد في الدين والتمسك به ، وعبادة الصنم ، والمحافظة على سنة الآباء والأجداد مع تصلب وتقشف .

- ١ ( كانت قباب قريش من الأدم ، لا يضربها غيرهم بمعنى ) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني - آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .
- ٢ ابن سعد ، الطبقات (٤١/١) .
- ٣ ابن سعد ، الطبقات (٨٨/٢) ، أسد الغابة (٢٥١/١) .
- ٤ المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني - آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .
- ٥ أهل القباب الحمر والنعم المؤبل والمدامه ديوان عبيد الابرس (٢٩) ، ( طبعة لايل ) .
- ٦ الاغانى (٤٦/٢) ، الاشتقاق (١٥٣) ، تاج العروس (٤/١٣٢) وما بعدها ، (حمس) .

والأحاس من العرب الذين أمهاتهم من قريش<sup>١</sup> ، صاروا من الخمس بسبب أمهاتهم .

هذا وقد نزل الوحي بتنظيم الحج وفق مبادئ الاسلام ، فأباح للحجاج ما كانت الخمس حرمة على نفسها من طعام الحج إلا طعام أحسي ، على نحو ما ذكرت قبل قليل . وما ذكر من ان قوماً كانوا قد حرّموا على أنفسهم ما يخرج من الشاة لبنها وسمنها ولحمها ، اذا حجوا أو اعتمروا<sup>٢</sup> . كما نزل بوجوب ستر العورة ولبس الإحرام في الحج ، وذلك بالنسبة الى المحلّين ، وأغلبهم من الأعراب ومن الفقراء ، حيث كانوا يطوفون عراة ، وفي ضمنهم النساء<sup>٣</sup> . فنزل الوحي ب : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »<sup>٤</sup> . ونهوا عن ذلك<sup>٥</sup> . وذكر عن أبي هريرة انه قال : « بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر ، لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »<sup>٦</sup> .

كما نزل الوحي بجواز دخول الحجاج بيوتهم وخيامهم وما يأوون اليه من بيوتها ، من أبوابها ، لا كما كان يفعل بعضهم في الجاهلية وفي أول الاسلام ، من انه اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه ، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلباً فيصعد فيه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من احرامه ويرون ذلك ذمماً ، إلا ان يكون من الخمس . وهم : قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة ، وبنو النضر بن معاوية . نزل الوحي بذلك في الآية : «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون»<sup>٧</sup> .

١ تاج العروس (٤/١٣٣) ، (حمس) .

٢ تفسير الطبري (٨/١٢١) .

٣ تفسير الطبري (٨/١١٨) .

٤ الاعراف ، الآية ٣١ .

٥ تفسير الطبري (٨/١١٨) وما بعدها ، أسباب النزول (١٦٨) وما بعدها) .

٦ صحيح مسلم (٤/١٠٧) ، (باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان

وبيان الحج الأكبر) .

٧ البقرة ، الآية ١٨٩ .

وقد ذهب بعض أهل الأخبار والسير الى ان الآية المذكورة ، نزلت في أمر الحمس ، « لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها ، فان احتاج أحدهم الى حاجة في داره تسنم البيت من ظهره ، ولم يدخل من الباب »<sup>١</sup> . وذهب المفسرون الى انها نزلت في الأنصار، فقد كانوا اذا حجّوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل فدخل من قبل بابه ، فكأنه غير بذلك ، فنزلت هذه الآية . وورد: « كانت قریش تدعى الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام ، فبينما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في بستان ، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا : يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وانه خرج معك من الباب ! فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : فإنّ ديني دينك ! فأنزل الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها »<sup>٢</sup> . وقد أغفلت بعض الروايات اسم من كان لا يدخل البيوت من أبوابها ، بأن قالت : « كان أهل الجاهلية يأتون البيوت من ظهورها ويرونه براً » ، أو « كانوا في الجاهلية اذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها ، ولم يأتوا من أبوابها » ، أو « إن ناساً كانوا اذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها أو بيتاً » ، أو « كان ناس من أهل الحجاز ، اذا أحرموا لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ودخلوها من ظهورها »<sup>٣</sup> ، وذكر ان من كان يفعل ذلك ، فانما يفعله، لأنهم كانوا يتخرجون من ان يكون بينهم وبين السماء حائل<sup>٤</sup> .

وقد جعل ( اليعقوبي ) العرب في الجاهلية على دينين : دين الحمس ودين الحلة . وذلك بالنسبة للمشرّكين . وذكر ان منهم من دخل في دين اليهودية وفي النصرانية ، ومنهم من تزندق وقال بالثنوية ، وبهذه الفرق حصر ( اليعقوبي ) أديان أهل الجاهلية . إذ قال : « فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليهما . ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود ، وفارقوا هذا الدين . ودخل آخرون

- 
- ١ الروض الانف (١/١٣٤ وما بعدها) .
  - ٢ أسباب النزول (ص ٣٥ وما بعدها) .
  - ٣ تفسير الطبري (٢/١٠٨ وما بعدها) .
  - ٤ المصدر نفسه .

في النصرانية ، وتزندق منهم قوم ، فقالوا بالثنوية <sup>١</sup> .

والتعميم الذي يطلقه (اليقوبي) وبقية المؤرخين والأخباريين في قوهم « وكانت العرب في أديانهم » ، لا يمكن التسليم به ، إلا بالنسبة لأهل مكة ولمن كان يقصدهم من العرب . أما بالنسبة لجميع العرب ، فهذا ما لا يمكن التسليم به .

وأما (الطلس) ، فقد وصفهم ( محمد بن حبيب ) بقوله أنهم : « بين الحلة والحمس : يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة ، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس . وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ، ولا يستعبرون ثياباً ، ويدخلون البيوت من أبوابها ، وكانوا لا يثدودون بنايتهم ، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون » <sup>٢</sup> . وهم سائر أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك وعجيب ، وإياد بن نزار <sup>٣</sup> .

وذكر ان من الحجاج من كان يحج بغير زاد ، وان منهم من كان اذا أحرم رمى بما معه من الزاد ، واستأنف غيره من الأزودة ، وان « قبائل من العرب يحرمون الزاد اذا خرجوا حججاً وعماراً » ، فنزل الوحي : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » <sup>٤</sup> ، فأمر من لم يكن يتزود منهم بالتزود لسفره ، ومن كان منهم ذا زاد ان يتحفظ بزاده فلا يرمي به <sup>٥</sup> . وقد عرف هؤلاء بـ (المتوكله) ، لتوكلهم على ( رب البيت ) في اطعام أنفسهم ، واعتمادهم في ذلك على السؤال .

وقد ذكر علماء التفسير ان الآية : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » نزلت « في طائفة من العرب كانت تجيء الى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا ، فكانوا يبقون عالة على الناس ، فنهوا عن ذلك ، وأمروا بالزاد . وكان للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيره راحلة عليها زاد ، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مزينة ، فلما أرادوا ان ينصرفوا قال : يا عمر زود

١ اليقوبي (٢٢٦/١) .

٢ المحبر (ص١٨١) .

٣ المحبر (ص١٧٩) ، الروض (١/١٣٣) .

٤ البقرة ، الآية ١٩٧ .

٥ تفسير الطبري (٢/١٦٢) ، (ان قوما كانوا يرمون بأزوادهم ويتسمون بالمتوكله ، فقبل لهم تزودوا من الطعام ، ولا تلقوا كلكم على الناس) ، تفسير الطبرسي (٢٩٤/١) .

القوم ..... كما روى البخاري عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوها الناس <sup>١</sup> .

ويظهر مما تقدم ان ( المتوكلة ) لم يكونوا جميعاً من الفقراء المحتاجين ، بل كان منهم قوم أغنياء فضل الله عليهم ، بدليل أنهم كانوا اذا حجّوا رموا زادهم ، أو أعطوه للمحتاج اليه ، يفعلون ذلك ديانة وتقرباً الى الله ، كما فعل ( المتوكلة ) من بعدهم في الاسلام . فهم اذن طائفة من الطوائف الجاهلية المتدينة ، ترى ان التقشف في الحج ، يزيد في ثوابه ، ويقرب أصحابه الى رب البيت .

ويريد أهل الأخبار بالثياب (الإحرام) على ما يظهر . وهو قديم وقد عرف عند غير العرب أيضاً . وهو محاكاة للملابس رجال الدين الذين يخدمون المعابد ، ويتقربون الى الآلهة . وهو يتكون من قطعتين من : إزار ومن وشاح . ويكون أبيض اللون . واللون الأبيض من الألوان التي تعبر عن معان دينية . فقد كان رجال الدين والكهنة يلبسون الثياب البيض . كما انه شعار الحزن عند بعض الشعوب ، وفي جملتهم عرب الحجاز <sup>٢</sup> . ويظهر ان أهل مكة وهم قريش ، كانوا يلبسون الإحرام ، أو يكرهونه لغيرهم من العرب أو يعبرونه لهم إن كانوا من حلفائهم ، فيحرمون كإحرام قريش . أما من لم يتمكن من الحصول على الإحرام ، فقد كان يضطر بحكم الضرورة إلى الطواف عرياناً على نحو ما يقصه علينا أهل الأخبار .

أما بالنسبة الى أهل العربية الجنوبية من معينين وسبئيين وقتبانين وحضرميين ، فإننا لا نستطيع ان نتحدث عن سنة الطواف حول المعابد عندهم ، لعدم ورود شيء عن ذلك في النصوص الواصلة إلينا . ولكني لا أستبعد احتمال طوافهم حول بيوت أصنامهم على نحو ما كان يفعله أهل الحجاز ، لأن الطواف حول بيوت الأصنام أو حول الصنم من السنن الشائعة بين العرب وعند جماعات من بني لأم والنبط .

١ تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٤١١/٢) ، تفسير ابن كثير (٢٣٩/١) .  
٢ Shorter Ency. of Islam, p. 160.

## التلبية :

وذكر ( محمد بن حبيب ) ان طواف أهل الجاهلية بالمبيت اسبوعاً ، وذكر أنهم كانوا يمسحون الحجر الأسود ، ويسعون بين الصفا والمروة . وكانوا يلبسون . وذكر ان نسك قريش كان لإساف ، وان تليبتهم : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »<sup>١</sup> . وان تلبية من نسك للعزى : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، ما أحبنا اليك » . وان تلبية من نسك لللات : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى بيتنا بنية ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحى البرية » . وكانت تلبية من نسك لجهار : « لبيك ، اللهم لبيك . لبيك ، اجعل ذنوبنا جبار ، واهدنا لأوضح المنار ، ومتعنا وملنا بجهار » . وكانت تلبية من نسك لشمس : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، ما نهارنا نجره ، ادلاجه وجره وقره ، لا نلقى شيئاً ولا نضره ، حجاً لرب مستقيم بره » ، وكانت تلبية من نسك لمحرق : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك حجاً حقاً ، تعبداً ورقاً » ، وكانت تلبية من نسك لود : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، معذرة اليك » . وكانت تلبية من نسك ذا الخليفة : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، بما هو أحب اليك » . وكانت تلبية من نسك لمنطبق : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك » . وتلبية عك ، أنهم كانوا اذا بلغوا مكة ، يعثون غلامين أسودين أمامهم ، يسيران على جمل ، مملوكين ، قد جردا ، فهما عريانان ، فلا يزيدان على ان يقولوا : « نحن غرابا عك » . واذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفها من عك : « عك اليك عانية ، عبادك اليانية ، كما نوح الثانية ، على الشداد الناجية »<sup>١</sup> .

وكانت تلبية من نسك مناة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لولا ان بكرأ دونك يبرك الناس ويهجرونك ، ما زال حج عشج يأتونك ، إنا على عدوائهم من دونك » . وتلبية من نسك لسعيدة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لبيك ، لم نأتك للمياحة ، ولا طلباً للراحة ، ولكن جئناك للنصاحة » . وكانت تلبية من نسك ليعوق : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، بغض الينا الشر ، وحب الينا الخير ، ولا تبطرننا فنأشر ، ولا تفدحننا بعثار » . وكانت تلبية من نسك ليعفوث :

١ المحبر (٣١٣) .

« لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، أحبنا بما لديك : فنحن عبادك ، قد صرنا اليك » . وكانت تلبية من نسك لنسر : « اللهم لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، اننا عبيد ، وكلنا ميسرة عتيد ، وأنت ربنا الحميد ، اردد الينا مُلْكنا والصيد . وكانت تلبية من نسك ذا اللبا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، رب فاصرفنا عنا مضر ، وسلِّمنا لنا هذا السفر ، إن عما فيهم لمزدجر ، واكفنا اللهم أرباب هجر » . وكانت تلبية من نسك لمرحب : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، اننا لديك . لبيك ، حبينا اليك » . وكانت تلبية من نسك لذريح : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، كلنا كنود ، وكلنا لنعمة جحود ، فاكفنا كل حية رصود » . وكانت تلبية من نسك ذا الكفين : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، إن جرهما عبادك ، الناس تُطرف وهم تلادك ، ونحن أولى منهم بولائك » . وتلبية من نسك هبل : « لبيك اللهم لبيك ، اننا لقاح ، حرمنا على أسنة الرماح ، يحسدنا الناس على النجاح »<sup>١</sup> .

وقد تعرّض (اليقوي) لموضوع التلبية ، فقال : « فكانت العرب ، اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنده ، ثم تلبوا حتى يقدموا مكة . فكانت تليباتهم مختلفة . وكانت تلبية قريش : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، تملكه وما ملك . وكانت تلبية كنانة : لبيك اللهم لبيك ، اليوم يوم التعريف ، يوم الدعاء والوقوف . وكانت تلبية بني أسد : لبيك اللهم لبيك ، يا رب أقبلت بنو أسد ، أهل التواني والوفاء والجلد اليك . وكانت تلبية بني تميم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك عن تميم ، قد تراها قد أدخلت أثوابها وأثواب من وراءها ، وأخلصت لربها دعاءها . وكانت تلبية قيس عيلان : لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمان ، أنتك قيس عيلان ، راجلها والركبان . وكانت تلبية ثقيف : لبيك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك ، وأخلفوا المال وقد رجوك . وكانت تلبية هذيل : لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل ، في إبل وخيل . وكانت تلبية ربيعة : لبيك ربنا لبيك ، لبيك إن قصدنا اليك . وبعضهم يقول : لبيك عن ربيعة ، سامعة لربها مطيعة . وكانت حمير وهمدان يقولون : لبيك عن حمير وهمدان والحليقين من حاشد والهان . وكانت تلبية الأزدي : لبيك رب الأرباب ،

١ المحبر (٣١١ - ٣١٥) .

تعلم فصل الخطاب ، الملك كل مثاب . وكانت تلبية مذحج : لبيك رب الشعري ، ورب اللات والعزى . وكانت تلبية كندة وحضرموت : لبيك لا شريك لك ، تملكه ، أو تهلكه ، أنت حكيم فاتركه . وكانت تلبية غسان : لبيك رب غسان ، راجلها والفرسان . وكانت تلبية بجيلة : لبيك عن بجيلة في بارق ومجيلة ، وكانت تلبية قضاة : لبيك عن قضاة ، لربها دفاعة ، سمعاً له وطاعة . وكانت تلبية جذام : لبيك عن جذام ، ذوي النهي والأحلام ، وكانت تلبية عك والأشعريين :

نحج للرحمان بيتاً عجبا مستتراً مضيباً محجبا<sup>١</sup>

و ( التلبية ) اجابة المنادي ، أي اجابة الملبي ربه . وقولهم : لبيك اللهم لبيك ، معناه اجابتي لك يا رب ، واخلاصي لك<sup>٢</sup> . وقد كان الجاهليون يلبون لأصنامهم تلبيات مختلفة . وقد ذكر ( أبو العلاء المعري ) ، ان تلبيات العرب جاءت على ثلاثة أنواع : مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور . فالمسجوع كقولهم :

لبيك ربنا لبيك والخير كله بيدك

والمنهوك على نوعين : أحدهما من الرجز ، والآخر من المنسرح ، فالذي من الرجز كقولهم :

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك  
إلا شريك هو لك تملكه وما ملك  
أبو بنات بفدك

وكقولهم :

لبيك يا معطي الأمر لبيك عن بني النمر  
جئناك في العام الزمر نأمل غيثاً ينهمر  
يطرقُ بالسيل الحمر

١ اليعقوبي (١/٢٢٥ وما بعدها) .  
٢ اللسان (١/٧٣٢) ، (لبيب) .

والذي من المنسرح جنسان : أحدهما في آخره ساكنان كقولهم :

ليبك رب همدان من شاحط ومن دان  
جئنناك نبغي الإحسان بكل حرف مدعان  
نظوي اليك الفيضان نأمل فضل الغفران

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم :

ليبك عن بجيله الفخمة الرجيلة  
ونعمت القبيلة جاءتك بالوسيلة  
تؤمل الفضيلة

وربما جاءوا على قوافٍ مختلفة ، من ذلك تلبية بكر بن وائل :

ليبك حقاً حقاً تعبدأ ورقا  
جئنناك للنصاحه لم نأت للرقاحه

وروي في تلبية ( تميم ) قولها :

ليبك لولا أن بكرأ دونكا يشكرك الناس ويكفرونكا  
ما زال منا عثج يأتونكا

وروا أن من تليات همدان :

ليبك مع كل قبيل لبيك همدان أبناء الملوك تدعوك  
قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاءً في جميع الأملاك

ومن تلياتهم قولهم :

ليبك عن سعد وعن بنيتها وعن نساء خلفها تعنيها  
سارت الى الرحمة تجتنيها

وختم ( أبو العلاء المعري ) رأيه عن التلبية بقوله : « والموزون من التلبية ،  
يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب ، ولم تأت التلبية بالقصيد . ولعلمهم  
قد لبوا به ولم تنقله الرواة »<sup>١</sup> .

١ رسالة الغفران (ص ٥٣٥ - ٥٣٧) . (بنت الشاطيء) .

والتلبية هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام ، غير أنه غير صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد . فصارت على هذا النحو : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك »<sup>١</sup> . كما جعلها جزءاً من حج مكة ، بعد أن كانت تم خارج مكة ، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها ، ونصلي عنده ثم تلبي ، قبل أن تقدم مكة<sup>٢</sup> . وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة . فأبطل ذلك الإسلام ، وألغى ما كان من ذلك من حج أهل الجاهلية . وقد رأينا صيغ التليات ، وكيف كانت تليات القبائل خاصة بها ، تلبي كل قبيلة لصنمها ، وتوجه نداءها إليه .

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع ، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهليين أن في رفع الصوت لإفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبي داعيه ، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته . وقد أشار بعض الكتاب ( الكلاسيكيين ) الى الصمخب والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلبية .

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت الحرام ، كانت مقدسة وداخلية في شعائر الحج ، منها عرفة ومنى والمزدلفة والصفاء والمروة ، ومواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقدسيتها أو لوجود صنم بها ، ثم حرمها الإسلام ، فنسيت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين .

وتقف الحرس في حجها على أنصاب الحرم من نمرة على نحو ما ذكرت أما الحلة والطلس ، أي غير الحرس من بقية العرب فيقفون على الموقف من عرفة ، عشية يوم (عرفة) . فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحرس من أنصاب الحرم حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً . وكانوا يدفعون من عرفة إذا طفت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم . فيبيتون بمزدلفة حتى إذا كانت في الغلس وقفت الحلة والحرس على (قزح) ، فلا يزالون عليه حتى إذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في

١ البخاري ، كتاب الحج ، الحديث ٣١ وما بعده ، عمدة القارئ (١٧٢/٩) وما بعدها ، بلوغ الأرب (٢٨٨/٢) ، ارشاد الساري (١٩٧/٣) ، (باب التلبية والتكبير اذا غدا من منى الى عرفة) .

٢ اليعقوبي (٢٢٥/١) ، (أديان العرب) .

وجوههم دفعوا من مزدلفة ، وكانوا يقولون : أشرق ثبير كما نغيرا<sup>١</sup> .  
 ومن مناسك الحج الطواف بالصفاء والمروة ، وعليها صنمان : اساف وناثلة .  
 وكان الجاهليون يسمونها<sup>٢</sup> . وكان طوافهم بهما قدر طوافهم بالبيت ، أي سبعة  
 أشواط . تقوم بذلك قريش ، أما غيرهم فلا يطوفون بهما ، وذلك على أغلب  
 الروايات . ويظهر ان الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة  
 أهل مكة . ففي حج أهل مكة طوافان : طواف بالبيت ، وطواف بالصفاء  
 والمروة .

وبين الصفا والمروة يكون ( السعي ) في الاسلام ، ولذلك يقال للمسافة بين  
 المكانين ( المسعى ) . وكان إساف بالصفاء ، وأما ناثلة فكان بالمروة<sup>٣</sup> . ولا بد  
 ان يكون لاقتران الاسمين دائماً سبب ، و ( المسعى ) هو الرابط المقدس بين  
 هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين .

وكان أهل مكة يتبركون بلمس الحجر الأسود ، ثم يسعون بين الصفا والمروة .  
 ويطوفون بإساف أولاً ويلمسونه ، كل شوط من الطواف ثم ينتهون بناثلة .  
 ويلبّون لها : وكانت تلبيتهم لها : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا  
 شريك هو لك ، تملكه وما ملك »<sup>٤</sup> . وذكر أن ( الأنصار ) ، لما قدموا مع  
 النبي في الحج ، كرهوا الطواف بين الصفا والمروة لأنها كانا من مشاعر قريش  
 في الجاهلية ، وأرادوا تركه في الاسلام . وذكر أن قوماً من المسلمين قالوا :  
 يا رسول الله لا تطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شرك كنتا نصنعه في الجاهلية .  
 فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بين الصفا والمروة مسحوا الوثنيين ، فلما جاء الاسلام  
 وكسرت الاصنام ، كره المسلمون الطواف بينها لأجل الصنمين ، فأنزل الله :  
 « إن الصفا والمروة من شعائر الله »<sup>٥</sup> . ويتبين من غرابة الأخبار أن الذين كانوا  
 يطوفون بالصنمين المذكورين ويسعون بينها ، هم من عبّاد الصنمين وهم قريش

- 
- ١ الازرقى (٢/٢٢٦) ، مسند ابن حنبل (١/٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢) ، الام للشافعي (٢/١٨٠) .
  - ٢ البلدان (٥/٣٦٥) ، (٨/٣٨) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .
  - ٣ Reste, S. 77.
  - ٤ المحبر (٣١١) ، الازرقى (١/١١٢) .
  - ٥ البقرة ، الآية ١٥٨ ، أسباب النزول (٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٢/٤٣) ، (طبعة البابي ١٩٥٤م) .

خاصة ، وليس كل من كان يحج الى مكة من العرب ، ولذلك كرهوا الطواف في الإسلام بالصفاء والمروة . وقد استبدل الإسلام بالطواف السعي ، لهدم الصنمين اللذين كان الناس يطوفون حولهما واكتفى بالسعي بين الموضعين .

وذكر بعض العلماء أن العرب عامة كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينها فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »<sup>١</sup> ، أي لا تستحلون ترك ذلك<sup>٢</sup> . وذكر أن الأنصار كانوا يهلّون لمناة في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام قالوا : يا نبي الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة ، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما ، فأنزل الله الآية المذكورة . وكان أهل (تهامة) ممن لا يطوفون أيضاً بين الصفا والمروة ، فلما جاء الإسلام ونزل الأمر بالطواف بالبيت ، ولم يتزل بالطواف بين الصفا والمروة ، قيل للنبي : إنا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وإن الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من جناح أن لا نطوف بهما . فنزل الوحي : « ان الصفا والمروة من شعائر الله » ، فصار الطواف بين الصفا والمروة لجميع الحجاج ، لا كما كان في عهد الجاهلية . من اقتصره على قريش وبعض العرب المتأثرين بهم . فكانوا يطوفون بهما ويمسحون بالوثنين إساف ونائلة ، فلما جاء الإسلام تخرج بعض الناس وفيهم قوم من قريش من الطواف بينها لأنهما من شعائر الجاهلية ، فنزل الأمر به<sup>٣</sup> .

وذكر أهل الأخبار ان السعي بين الصفا والمروة ، شعار قديم من عهد هاجر أم اسماعيل . وأما رمل الطواف ، فهو الذي أمر به النبي ، أصحابه في عمرة القضاء ليُري المشركين قوتهم ، حيث قالوا : وهنتهم حمى يثرب<sup>٤</sup> .

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تاج العروس (٣/٣٠٤) ، (شعر) ، روح المعاني (٢/٤١) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢/١١٤) ، الازرقى (٧٤) ، تفسير ابن كثير (١/١٩٨) ، صحيح البخاري (١/٤١٤) ، الموطأ (١/٣٧٣) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .

٣ تفسير الطبري (٢/٢٧ وما بعدها) ، الطبرسي (٢/٤٥) ، ابن كثير (١/١٨٨) ، (٢٠٠) ، البخاري (١/٤١٤) ، (باب ٧٩) ، الموطأ (١/٦٥٣) ، (١/٣٧١) ، (باب ٤٠) .

٤ اللسان (١١/٢٩٥ وما بعدها) ، (رمل) .

وورد في خبر عن ( عائشة ) أنها قالت : « إن الأنصار كانوا يهلّون في الجاهلية لصنمين على شطّ البحر ، يقال لهما : إساف ونائلة ، ثم يجيئون ، فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يخلقون ، فلما جاء الإسلام ، كرهوا أن يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : إن الصفا والمروة من شعائر الله إلى آخرها . قالت : فطافوا » . وهو خبر يناقض أخباراً أخرى يتصل سندها

بـ ( عائشة ) ، تجمع على أنها قالت : إن الأنصار أو الأنصار وغسان كانوا قبل أن يسلموا يصلّون لمناة ، فلا يحلّ لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، وكان ذلك سنة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة<sup>١</sup> ، ولم أجسد في خبر آخر شيئاً يفيد أن إسافاً ونائلة كانا على ساحل البحر .

و ( السعي ) في الإسلام سبعة أشواط ، تبدأ بالصفا ، وتختتم بالمروة . وعندما يصل الحاج حد (السعي) يسعى ويهرول ، فإذا جاز الحد مشى . وكان الجاهليون يبدأون بـ ( الصفا ) وينتهون بـ ( المروة ) كذلك<sup>٢</sup> . ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ ( عرفة ) ، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجة ويسمى ( يوم عرفة ) . ومن ( عرفة ) تكون ( الإجازة ) للإفاضة إلى ( المزدلفة ) ، ومن ( المزدلفة ) إلى ( منى ) . وقد كان الجاهليون من غير قریش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس ، وأما في المزدلفة فعند شروقها . وكان الذي يتولى الإجازة رجلاً من تميم يقال له ( صوفة ) ، ثم انتقلت إلى ( صفوان ) من تميم كذلك<sup>٣</sup> . ولم يكن ( الحمس ) محضرون عرفة ، وإنما يقفون بالمزدلفة ، وكان سائر الناس يقف بعرفة . ولما رأى أحد الصحابة رسول الله واقفاً بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى لأنه من الحمس ، وما كان يظن أنه يخالف قومه في ذلك ، فيساوي نفسه بسائر الناس<sup>٤</sup> . فأنزل الله : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »<sup>٥</sup> ،

- ١ صحيح مسلم (٦٨/٤) ، (باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به) .
- ٢ راجع باب الحج في كتب الحديث والفقهاء .
- ٣ ابن هشام (٧٧ ، ٨٢) ، اللسان (١٩١/٧) ، تاج العروس (١٩٣/٦) ، الروض الأنف (٨٦/١) ، الصحاح (١٠٩٩/٣) ، البلدان (١٠٤/٤) .
- ٤ ارشاد الساري (٢٠٠/٣) ، تفسير الطبرسي (٢٩٦/٢) ، تفسير ابن كثير (٢٤٢/١) وما بعدها ، أسباب النزول (٤٢) .
- ٥ البقرة ، الآية ١٩٩ .

فشمل ذلك الخمس وغيرهم . فأخذوا يقفون كلهم موقف عرفة ، ووضع عن قريش ما فعلوه من تمييز أنفسهم عن الناس<sup>١</sup> .

وورد في روايات أخرى ، أن قريشاً وكل حليف لهم وبني أخت لهم ، لا يفيضون من عرفات ، إنما يفيضون من المغمس ، وورد أن قريشاً وكل ابن أخت وحليف لهم ، لا يفيضون مع الناس من عرفات ، يقفون في الحرم ولا يخرجون منه . يقولون : إنما نحن أهل حرم الله ، فلا نخرج من حرمه ، وأنهم قالوا « نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمه وولاة البيت ، وقاطنوا مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل مترلنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل ، كما تعظمون الحرم . فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها »<sup>٢</sup> .

وذكر أن قريشاً ومن دان بدينها تفيض من ( جمع ) من المشعر الحرام<sup>٣</sup> .  
و ( جمع ) المزدلفة<sup>٤</sup> .

و ( عرفة ) أو ( عرفات ) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة<sup>٥</sup> . لا بد وان يكون من المواضع التي كان يقدها أهل الجاهلية ، وان يكون له ارتباط بصنم من الأصنام ، وإلا لما صار جزءاً من أجزاء مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين . ويقف الحجاج موقف عرفة من الظهر الى وقت الغروب . وقد يكون لموقف الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس . فإذا غربت الشمس اتجه الحجاج الى ( المزدلفة ) .

١ تفسير الطبري (٢/١٦٦ وما بعدها) .

٢ تفسير الطبري (٢/١٧٠) .

٣ أسباب النزول (٤٢) .

٤ قال أبو ذؤيب :

فبات بجمع ثم تم الى منسى

فأصبح رادا يبتغي المزج بالسحل

نأج العروس (٥/٣٠٥) ، ( جمع ) .

٥ ( عرفات ، موقف الحجاج ذلك اليوم على اثني عشر ميلاً من مكة ) ، تاج العروس (٦/١٩٣) ، تفسير الطبري (٤/١١٤ وما بعدها) ، أخبار مكة (١/١١٥ وما بعدها) .

## الإفاضة :

ومن (عرفة) تكون الإفاضة الى (المزدلفة) . و (المزدلفة) ، موضع يكاد يكون على منتصف الطريق بين (عرفة) و (منى) . وفيه يمضي الحجاج ليلتهم ، ليلة العاشر من (ذي الحجة) . ومنه تكون الإفاضة عند الشروق الى (منى) . وقد نعت بـ (المشعر الحرام) في القرآن الكريم<sup>١</sup> . ويذكر أهل الأخبار ان (قصي بن كلاب) ، كان قد أوقد ناراً على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة ، وان العرب سارت على سنته هذه ، وبقيت توقدها حتى في الاسلام<sup>٢</sup> . ولا بد وان يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك ، التي كان لها صلة بالأصنام . وقد ذكر علماء اللغة اسم جبل بالمزدلفة دعوه (قزحاً) ، قالوا انه (هو القرن الذي يقف عنده الإمام)<sup>٣</sup> ، وذكروا ان (قزح) اسم شيطان<sup>٤</sup> . ونحن نعرف اسم صنم يقال له (قزاح) ، قد تكون له صلة بهذا الموضع .

ويفيض الحجاج في الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذي الحجة من (المزدلفة) الى (منى) ، لرمي الجمرات ولنحر الأضحية . و(منى) موضع لا يبعد كثيراً عن مكة . ولعلها اللغة آراء في سبب التسمية ، من جملتها انها عرفت بذلك لما يمني بها من الدماء<sup>٥</sup> . وذكر بعض أهل الأخبار ان (عمرو بن لحي) نصب بمنى سبعة أصنام ، نصب على (القرين) القرن الذي بين مسجد منى والجمرة الأولى صنماً ، ونصب على الجمرة الأولى صنماً ، وعلى الجمرة الوسطى صنماً ، وعلى شفير الوادي صنماً<sup>٦</sup> . ولا بد أن يكون لهذا الموضع صلة بالأصنام ، نظراً لما له من علاقة متينة بمناسك الحج . وقد يكون لرمي الجمرات ولنحر الذبائح صلة بتلك الأصنام .

- ١ سورة البقرة ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبري (١٦٤/٢) ، روح المعاني (٧٤/٢) ، تفسير ابن كثير (٢٤٢/١) .
- ٢ نهاية الارب (١٠٩/١) ، ذكر نيران العرب) ، صبح الاعشى (٤٠٩/١) ، الازرفي (٣٦ ، ١٣٠ ، ٤١١ ، ٤١٥) ، (وستنفلد) ، ابن هشام (٧٧) ، ابن سعد (٧٢/١) ، (صادر) ، اللسان (١٣٨/٩) ، البلدان (٥١٩/٤) ، تاج العروس (١٣١/٦) .
- ٣ تاج العروس (٢٠٧/٢) ، (قزح) .
- ٤ تاج العروس (٢٠٧/٢) ، (قزح) .
- ٥ تاج العروس (٣٤٨/١٠) ، (منى) .
- ٦ الازرفي (١٤٢/٢) .

وقد ذكر العلماء « أن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق نير »<sup>١</sup>. وأن النبي خالفهم ، فأفاض حين أسفر قبل طلوع الشمس »<sup>٢</sup>. وفي فعل المشركين ذلك ، ووقفهم انتظاراً للإفاضة عند طلوع الشمس ، دلالة على عبادة الشمس عندهم ، ولهذا غير الرسول هذا الوقت .

و ( رمي الجمرات ) بمعنى من مناسك الحج وشعائره . وهو من شعائر الحج كذلك المعروفة في المحججات الأخرى من جزيرة العرب . كما كان معروفاً عند غير العرب أيضاً . وقد أشير إليه في التوراة<sup>٣</sup> . وهو معروف عند ( بنو إرم )<sup>٤</sup>. وكلمة ( رجم ) من الكلمات السامية القديمة . وقد وردت في حديث ( عبدالله ابن مغفل ) : لا ترجموا قبوري ، أي لا تجعلوا عليه الرجم ، وهي الحجارة ، على طريقة أهل الجاهلية ، ولا تجعلوه مستمراً مرتفعاً<sup>٥</sup> . وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم . فكان أحدهم إذا مرت بقبر ، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجماً عليه .

( والجمرات ) ، أي مواضع ( رمي الجمرات ) عديدة عند الجاهليين ، يطاف حولها ، ويحج إليها منها مواضع أصنام ، وأماكن مقدسة ، ومنها قبور أجداد . وقد ورد قسم بها في بيت ينسب إلى شاعر جاهلي<sup>٦</sup> . وترمي الجمرات على مكان عرف بـ ( جمرة العقبة ) وبـ ( الجمار ) وبـ ( موضع الجمار ) وهو بـ ( منى ) ، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى . وهي جمرات ثلاث : الجمرة

١ ارشاد الساري ( ٢١٠/٣ ) .

٢ المصدر نفسه .

٣ التكوين ، الاصحاح الحادي والثلاثون ، ( وقال لابان ليعقوب : هوذا هذه الرجمة ، وهو ذا النصب الذي وضعت بيني وبينك ) ، الآية ٥١ .

٤ Shorter Ency., p. 464, Reste, S. 112.

٥ النهاية ( ٧٤/٢ ) ( اللسان ( ١١٧/١٥ ) وما بعدها ) ، تاج العروس ( ٣٠٤/٨ ) وما بعدها ) ، ( رجم ) .

٦ المشرق : السنة : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز - أيلول ١٩٤١ م ، ( ٢٤٦ ) ، Reste, S. 111.

٧ فأقسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لسدى الجمرات مغر ابن هشام ( ٥٣٤ ) ، المشرق ، الجزء المذكور . قال حذيفة بن أنس الهذلي : لأدركهم شعث النوامي كأنهم سواشق حججاج توافي الجمرات اللسان ( ٢١٧/٥ ) .

الأولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة<sup>١</sup> .

ويرجع أهل الأخبار مبدأ رمي الجمرات الى ( عمرو بن لحي ) . يذكرون انه جاء بسبعة أصنام فنصبها بـ ( منى ) ، عند مواضع الحجرات ، وعلى شفير الوادي ، ومواضع أخرى ، وقسم عليها حصص الجمار ، احدى وعشرين حصاة ، يرمي كل منها بثلاث جمرات ، ويقال للوثن حين يرمى : أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمى قبله<sup>٢</sup> .

وكانت إفاضة الجاهليين على هذا النحو : كان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة تناوبت هذا العمل أباً عن جد . وقد اشتهر منهم رجل عرف بـ ( عميلة ابن خالد العدواني ) ، واشتهر بين الناس بـ ( أبي سيارة ) . كان يجيز الناس من المزدلفة الى منى أربعين سنة . يركب حماراً أسود ، وينظر الى أعالي جبل ( ثبير ) ، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى : أشرق ثبير، كما نغير ! ثم يجيز لهم بالإفاضة وفيه يقول الشاعر :

خلّوا الطريق عن أبي سيّاره وعن مواليه بني فزاره  
حتى يجيز سالماً حماره مستقبل القبلة يدعو جاره  
فقد أجار الله من أجاره<sup>٣</sup>

و ضرب به المثل ، فقليل : أصبح من غير أبي سيّارة<sup>٤</sup> .

وذكر ( الجاحظ ) أن اسم ( أبي سيّارة ) ( عميلة بن أعزل ) ، دفع بأهل الموسم أربعين عاماً ، ولم يكن غيره غيراً وإنما كان أتمازاً ، ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش وعمر أطول من غير ( أبي سيّارة )<sup>٥</sup> .

١ تاج العروس ( ١٠٧/٣ ) ، ( حجر ) ، ( ٣٤٨/١٠ ) ، ( منى ) .

٢ الازرقى ، أخبار ( ص ٤٠٢ ) ، ( لايبزك ) .

٣ اللسان ( ١٩١/٧ ) ، الروض الانف ( ٨٦/١ ) ، الميداني ( ٤٢١/١ وما بعدها ) ، البلدان ( ٦/٣ ) ، ( ثبير ) ، البكري ( ٣٣٥/١ ) ، ( طبعة السقا ) ، ( وأبو سيّارة : عميلة بن أعزل ) ، الحيوان ( ٢١٥/٧ ) ، ( عبد السلام محمد هارون ) ، ارشاد الساري ( ٢١٠/٣ ) .

٤ تاج العروس ( ٢٨٧/٣ ) ، ( سير ) ، نهاية الارب ( ٣٦/١٦ وما بعدها ) .

٥ الحيوان ( ١٣٩/١ ) .

وورد أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجاج، وهي الإفاضة ، هم (صوفة) . وهم حيّ من مضر من نسل ( الغوث بن مرّ بن اد بن طابحة بن الياس بن مضر ) ، وقد سمّوا ( صوفة ) و ( آل صوفة ) ، لأن ( الغوث ) أبوهم جعلت أمه في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها . وكانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج ، أي يفيضون بهم ، فيكونون أول من يدفع . وكان أحدهم يقوم فيقول : أجزبي صوفة ، فإذا أجازت ، قال : أجزبي خندف ، فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة . وكانت الاجازة بالحج اليهم في الجاهلية . وكانت العرب إذا حجّت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى تدفع بها صوفة ، وكذلك لا ينفرون من ( منى ) حتى تنفر ( صوفة ) ، فإذا أبطأت بهم ، قالوا : أجزبي صوفة . وورد أن ( صوفة ) قوم من ( بني سعد بن زيد مناة ) من تميم<sup>١</sup> .

وفيهم من رواية أن كلمة ( صوفة ) لم تكن اسم علم ، وإنما هي لفظة أطلقت على من كان يتولى البيت أو قام بشيء من خدمته ، أو بشيء من أمر المناسك<sup>٢</sup> . فهم من رجال الدين ، تخصصوا بالإجازة بالناس في مواسم الحج . ولعلمهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيئة عمامة أو عصابة ، أو عطر ، لتكون علامة على أنهم من أهل بيت دين وشرف . فعرفوا بـ ( صوفة ) وبـ ( آل صوفة ) وبـ ( صوفان ) . وفي ذلك قال ( مرة بن خليف الفهمي ) ، وهو شاعر جاهلي قديم :

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى ولاح قنار فوقه سفع الدم<sup>٣</sup>

و ( يظهر ) من الروايات الواردة عن ( ثبير ) ، أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين، أو أن على قمته صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون إليه لزيارته وللتبرك به<sup>٤</sup> . ومن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح ، وهي الأضحية في الاسلام و ( العتائر )

- ١ تاج العروس ( ١٦٩/٦ ) ، ( صوف ) ، معجم الشعراء ( ٣٨٢ ) ، ابن هشام ( ٧٧/١ ، ٨٢ ) .
- ٢ الروض الانف ( ٨٥/١ ) .
- ٣ معجم الشعراء ( ٣٨٢ ) .
- ٤ المشرق ، السنة التاسعة والثلاثون ( ١٩٤١ م ) ، ( ص ٢٥٩ ) .

في الجاهلية . ولذلك عرف هذا العيد : عيد الحج ب ( عيد الأضحى ) . وعرف اليوم الذي تضحي به الأضححية ب ( يوم النحر ) وب ( الأضحى ) وب ( يوم الأضحى ) . وكانوا ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام ، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد . وقد ترك لكواسر الجوا وضواري الر فلا ( يصد عنها انسان ولا سبع )<sup>١</sup> . وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر ، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة .

وكان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة ، أو بنعلين ، يعلقان على رقبتهم الهدي ، اشعاراً للناس بأن الحيوان هو هدي ، فلا يجوز الاعتداء عليه ، كما كانوا يشعرونه . والإشعار الإعلام . وهو ان يشق جلد البدنة أو يطعن في اسنمها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه ، وقيل في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف انها هدي . والشعيرة البدنة المهداة<sup>٢</sup> .

وكان بعض أهل الجاهلية ، يسلمون جلود الهدي ، ليأخذوها معهم . ويتفق هذا مع لفظة ( تشريق ) التي تعني تقديد اللحم . ومنه سميت ايام التشريق ، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها ، أي تشرّر في الشمس<sup>٣</sup> . وقيل سمي التشريق تشريقاً ، لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس<sup>٤</sup> . ويظهر ان الجاهليين كانوا ينحرون قبيل شروق الشمس وعند شروقها ، بدليل ما ورد في الحديث من النهي عن ذلك . ومن حديث : من ذبح قبل التشريق فليعد . أي قبل أن يصلي صلاة العيد ، وهو من شروق الشمس واشراقها ، لأن ذلك من وقتها<sup>٥</sup> .

ولا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم ، وإلا بطل حجهم . ويلاحظ أن غير العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر في مثل هذه المناسبات الدينية أيضاً ، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس

- 
- ١ ابن هشام (١٠٠) ، المشرق : السنة السابعة والثلثون ، كانون الثاني - اذار ١٩٣٩ م ، (٩٢) .
  - ٢ نقتلهم جيلاً فجيلاً تراهم شعائر قربان بها يتقرب تاج العروس (٣/٣٠٣ وما بعدها) ، (شعر) .
  - ٣ تاج العروس (٦/٣٩٣) ، (شرق) .
  - ٤ المصدر نفسه .
  - ٥ تاج العروس (٦/٣٩٣) ، (شرق) .

الدينية عندهم ، ولا سيما اللحية لما لها من علاقة بالدين . ولهذا نجد رجال الدين والزهاد والأتقياء الورعين محافظون عليها ويعتبرونها مظهراً من مظاهر التدين<sup>١</sup> . وقد كانت القبائل لا تخلق شعورها في مواسم حجتها إلا عند أصنامها ، فكان الأوس إذا حجوا وقفوا مع الناس المواقف كلها ولا يخلقون رؤوسهم ، فإذا نفرأ أتوا صنمهم مناة فخلقوا رؤوسهم عنده ، وأقاموا لا يرون لحجتهم تماماً إلا بذلك<sup>٢</sup> . وكانت قضاة ولحم وجذام تحج للأقصر وتخلق عنده<sup>٣</sup> .

وكان من عادة بعض القبائل ، مثل بعض قبائل اليمن ، القاء قررة من دقيق مع الشعر<sup>٤</sup> . وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق ، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق، ويجعلون ذلك الدقيق صدقة ، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه ، فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق . وفي ذلك يقول معاوية بن أبي معاوية الجرمي :

ألم ترَ جرماً أنجبت وأبوكم مع الشعر في قص الملبد شارع  
إذا قررة جاءت تقول أصب بها سوى القمل لاني من هوازن ضارع<sup>٥</sup>

وكان من يقصد العزى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون ، وكان من يقصد مناة يهدي لها كما كان غيرهم يهدي للكعبة ويطوفون بها ثم ينحرون عندها ، وكان عبدة ذي الخليفة في أسفل مكة يذبحون عنده كذلك<sup>٦</sup> . وكذلك كانت بقية القبائل تطوف في أعيادها حول أصنامها ، وتهدى إليها ، ثم تنحر عندها عند اكتمالها هذه الشعائر دلالة على اكتمالها شعائر الحج الى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه .

وتميز الحيوانات التي يهيتها أصحابها أو مشروها للذبح في الحج بعلامات ، بأن توضع عليها قلائد تجعلها معروفة ، أو ان يحدث لها جرح ليسيل منه الدم ليكون ذلك علامة أنها هدي . ويقال لذلك إشعار ، ومنه إشعار البدن ، وهو ان يشق

Smith, p. 323.

- ١
- ٢ الاصنام (ص ١٤) ، البلدان (١٦٩/٨) ، الأزرقى (٧٣/١) .
- ٣ الاصنام (ص ٤٨) ، البلدان (٣١٤/١) ، Reste, S. 62.
- ٤ الاصنام (ص ٤٨) ، البلدان (٣١٤/١) وما بعدها ، Reste, S. 62. ff.
- ٥ تاج العروس (٤٨٦/٣) ، (قرر) .
- ٦ بلوغ الأرب (٣٤٤/١) وما بعدها .

أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدي<sup>١</sup> . وقد كان من أهل مكة من يتخذ من لحاء شجر الحرم قلادة يضعها في عنق البدن ، لتكون دلالة على أنها هدي ، فلا يعترضها أحداً<sup>٢</sup> .

ويجوز للحجاج مغادرة ( منى ) في اليوم العاشر من ذي الحجة ، أي في اليوم الأول من العيد ، ففي هذا اليوم يكمل الحجاج حجهم ، ولكن منهم من يمكث في هذا الموضع حتى اليوم الثالث عشر ، وذلك ابتهاجاً بأيام العيد ، ومشاركة لآخوانه فيه . ويقال لذلك ( التشريق ) . وإيام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر<sup>٣</sup> .

وكان أهل الجاهلية إذا قضوا مناسكهم وفرغوا من الحج ، وذبحوا نساكهم ، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم ، فيقول بعضهم لبعض : كان أبي يطعم الطعام ، ويقول بعضهم : كان أبي يضرب بالسيف ، ويقول بعضهم : كان أبي جزّ نواصي بني فلان . يقولون ذلك عند ( الجمرة ) ، أو عند البيت ، فيخطب خطيبهم ويحدث محدثهم . أو أنهم كانوا إذا قضوا مناسكهم وأقاموا بمنى قعدوا حلقاً ، فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالهم به ، يقوم الرجل ، فيقول : اللهم ان أبي كان عظيم الجفنة عظيم القبّة كثير المال ، وما شاكل ذلك ، فنزل الوحي : « فإذا قضيت مناسككم ، فاذكروا الله كذاكركم آباءكم أو أشد ذكراً »<sup>٤</sup> .

وكانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج ، تقلد قلادة من لحاء السمّر ، دلالة على ذهابهم الى الحج ، فيأمن حتى يأتي أهله . وذكر انه كان يقلد نفسه وناقته ، فإذا أراد العودة عادوا مقلدين بلحاء السمّر . وروي أنهم إذا أرادوا الحج مقبلين الى مكة يتقلدون من لحاء السمّر ، وإذا خرجوا منها الى منازلهم منصرفين منها ، تقلدوا قلادة شعر فلا يعرض لهم أحد بسوء . بقي ذلك شأنهم حتى نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة وبوجوب قتلهم حيث وجدوا<sup>٥</sup> .

- ١ النهاية ( ٤٤٢/٢ ) .
- ٢ اللسان ( ٣٦٩/٤ ) ، ( ٨١/٦ وما بعدها ) ، الموطأ ( ٢٤٩/١ ) ، مسند ابن حنبل ( ٢١٦/١ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٢٤٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ) ، ( ٣٥/٦ ، ٨٢ ، ٨٧ ) .
- ٣ تاج العروس ( ٣٩٣/٦ ) . ( شرق ) .
- ٤ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري ( ١٧٢/٢ وما بعدها ) ، تفسير الطبرسي ( ٢٩٦/٢ وما بعدها ) .
- ٥ تفسير الطبري ( ٣٧/٦ وما بعدها ) ، اللسان ( ٣٦٧/٣ ) ، ( قلد ) .

## التجارة في الحج :

قال علماء التفسير : كان متجر الناس في الجاهلية : عكاظ وذو المجاز ، فكانوا إذا أحرموا لم يتبايعوا حتى يقضوا حجهم . ويقولون أيام الحج أيام ذكر . وقالوا : « كان هذا الحي من العرب لا يعرجون على كسير ولا ضالة ليلة النفر . وكانوا يسمونها ليلة الصدر ، ولا يطلبون فيها تجارة ولا بيعاً » . وقالوا : « كان بعض الحاج يسمون الداج . فكانوا ينزلون في الشق الأيسر من منى . وكان الحاج ينزلون عند مسجد منى ، فكانوا لا يتجرون حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم . هي التجارة . قال : اتجروا في الموسم »<sup>١</sup> . والصدر الإفاضة . ومنه طواف الصدر . وهو طواف الإفاضة<sup>٢</sup> .

والداج : الأجراء والمكارون والأعوان ونحوهم الذين مع الحاج<sup>٣</sup> . وذكر ان قوماً جاءوا الى ( عبدالله بن عمر ) ، فقالوا : « انا قوم نكسرى ، فيزعمون انه ليس لنا حج . قال : ألستم تحرمون كما يحرمون ، وتطوفون كما يطوفون ، وترمون كما يرمون ؟ » قالوا بلى . قال فأتم حاج<sup>٤</sup> . ومن يكرى لخدمة الحاج ، فهو من الداج .

## العمرة :

و ( العمرة ) هي بمثابة ( الحج الأصغر ) في الاسلام ، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر ( رجب ) . وللعمرة في الاسلام شعائر ومناسك ، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة . ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك . وهي في الاسلام فردية اختيارية ، وهي تختلف بذلك عن الحج الذي هو فرض عين على كل مسلم مستطيع ، وجماعي ، أي ان المشتركين فيه يؤدونه جماعة<sup>٥</sup> . أما بالنسبة الى الجاهليين ، فيظهر من ذكر العمرة في القرآن

- ١ تفسير الطبري ( ١٦٤/٢ وما بعدها ) .
- ٢ تاج العروس ( ٣٢٨/٣ ) ، ( صدر ) .
- ٣ تاج العروس ( ٣٩/٢ ) ، ( دج ) .
- ٤ تفسير الطبري ( ١٦٤/٢ وما بعدها ) .
- ٥ Shorter Ency. of Islam, p. 604. ff.

الكريم انهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج ، ولوقوعها في شهر رجب ، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه ، لعلنا لا نخطيء اذا قلنا انهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمرة ، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولها ، أما في الاسلام ، فالعمرة دون الحج . وإذ كانت في شهر رجب في الجاهلية . كانت حجاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة . حرص الجاهليون على ألا يوافق موعدها موعد مواسم الحج ، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج<sup>١</sup> .

وورد ان أهل الجاهلية كانوا يرون ان العمرة من أشهر الحج : شوال وذي القعدة وتسع من الحجة وليلة النحر ، أو عشر أو ذي الحجة من الفجور في الأرض ، أي من الذنوب<sup>٢</sup> ، ولكن بعضاً آخر كان يعتمر في كل شهر ، ولا سيما في رجب ، حيث كانوا يخلقون رؤوسهم ويجيشون الى محجاتهم للعمرة . وورد ان أهل الجاهلية « كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر . ويقولون : اذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر »<sup>٣</sup> .

وذكر ان الأشهر الحرم ثلاثة سرداً وواحدأ فرداً ، وهو رجب . أما الثلاثة ، فليأمن من الحجاج واردين الى مكة وصادرين عنها ، شهراً قبل شهر الحج ، وشهراً بعده ، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ، ثم يرجع . وأما رجب ، فللعمارة يأمنون فيه مقبلين وراجمين نصف الشهر للإقبال ونصفه للاياب ، إذ لا تكون العمرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحج . وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً<sup>٤</sup> .

ويلبس المعتمر ( الاحرام ) أيضاً . وقد كان الجاهليون يكتفون في عمرتهم بالطواف بالبيت ، أما ( السعي ) بين الصفا والمروة ، فأغلب الظن ان العرب لم يكونوا يقومون به . بدليل ما ورد في القرآن الكريم من قوله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما .

١ المشرق ، الجزء ٣٩ ( ١٩٤١ ) ، ( ص ٢٥٠ ) ، ، Reste, S. 84 .  
٢ ارشاد الساري ( ١٧٤/٦ ) .  
٣ الروض الانف ( ٣٥١/١ ) .  
٤ الروض الانف ( ٦٠/٢ ) .

ومن تطوَّع خيراً فان الله شاكر عليم<sup>١</sup> . ففي هذا النص دلالة على ان الجاهليين من غير قريش لم يكونوا يدخلون السعي بينها في شعائر الحج أو العمرة، وان الله أمر بادخاله فيها . أما موقف الجاهليين بالنسبة لطواف العمرة، فهو نفس موقفهم بالنسبة للطواف بالبيت في أثناء الحج ، والفرق بين الحج والعمرة ، ان الحج هو الاحرام ثم الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة وقضاء مناسك عرفة والمزدلفة والوقوف بالمواضع التي أمر بالوقوف بها ، بينما العمرة الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة<sup>٢</sup> ، فلا يكون موقف عرفة من العمرة . وكان الجاهليون يخلقون رؤوسهم للعمرة ، ويكون حلق الرأس علامة لها . فاذا وجدوا رجلاً وقد حلق رأسه علموا انه من (العمار) ، فلا يمسونه بسوء ، إلا اذا مس أحداً بسوء احتراماً للعمرة ولشعائر الدين<sup>٣</sup> .

والفرق بين العمرة والحج في الاسلام ، ان العمرة تكون للانسان في السنة كلها ، والحج في وقت واحد في السنة . وتتم العمرة ان يُطاف بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، والحج لا يكون إلا مع الوقوف بعرفة يوم عرفة واجراء بقية المناسك<sup>٤</sup> .

وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين. كان في روعهم ان هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة، ويوصلهم اليها ، فتقربوا اليها ونصبوها في مواضع ظاهرة ، ومسحوا أجسامهم بها تبركاً . وكلمة (تَمَسَّحَ) من الكلمات التي لها معاني عند الجاهليين ، وكذلك كلمة ( استلم ) و ( استلام ) عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجر الأسود . وطريقتهم ان يمر الانسان يده على الحجر المقدس أو ان يمسسه بها إن صعب استلامه كله . وقد يعرض عن ذلك بعضا يمدها الانسان الى الحجر حتى

- ١ البقرة ، الآية ١٥٨ .
- ٢ تفسير الطبري (٢/١٢٠ وما بعدها) .
- ٣ « وقد كان حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا ، وقالوا : عمار فلا بأس علينا منهم » ، تفسير الطبري (٢/٢٠٢) .
- ٤ اللسان (٦/٢٨٢) ، تاج العروس (٣/٤٢٢ وما بعدها) ، اللسان (٤/٦٠٤) ، (صادر) ، البلدان (٤/١٥٤) ، الاقناع (١/٣٣٤ ، ٣٩٧ وما بعدها) .

تلمسه ، وإذا تعذر الوصول إليه بسبب ما ، فيجوز أن يفعل ذلك ركباً على  
جمل<sup>١</sup> .

ومن هذا القبيل أيضاً طرق مطارق أبواب البيوت المقدسة طرقات خفيفة ،  
وامرار بعض الأشياء مثل الملابس على الأصنام والصخور والمواضع المقدسة لاكتساب  
البركة، والتمسح بجدران البيت أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة . وتلطيف  
الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها ، أو بتلطيفها  
وتلوينها كلها أو جزء منها بدم الضحية ، توكيداً بإقامة دم الضحية في نفس من  
ضحيت الضحية من أجله<sup>٢</sup> .

وقيل إن من شعائر الجاهليين في الحج أن الرجل منهم كان إذا أحرم ، تقلد  
قلادة من شعر ، فلا يتعرض له أحد . فإذا حجّ وقضى حجّه ، تقلد قلادة  
من ( إذخِر ) ، والإذخِر نبات زكي الرائحة ، وأن الرجل منهم يقلد بغيره  
أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم ، فلا يخاف من أحد ، ولا يتعرض له  
أحد بسوء<sup>٣</sup> . وتذكرنا هذه العادة بما يلبسه بعض الحجاج عند إتمامهم حجّهم  
وعودتهم إلى بلادهم من لباس ( كوفية ) خاصة بأهل مكة ومن عقّال حجازي  
وذلك بالنسبة للرجال ، وخمار أبيض بالنسبة للنساء ، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى  
من احتفالهم بالعودة من الحج .

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها في حج (عرفة)  
وعمره ( رجب ) حسب ، بل كانوا يقصدونها في أوقات مختلفة وفي المناسبات ،  
للطواف حول الأصنام ، واستلام الحجر الأسود ، والتقرب إلى الآلهة المحلية .  
وقد ساعد ذكاء سادة قريش السذي تجلّي في جمعهم أكثر ما أمكنهم جمعه من  
أصنام القبائل في ( البيت الحرام ) ، على اجتذاب القبائل إليها ، وبذلك نشطوا  
في استغلال مواسم الحج والعمرة بالاستفادة من القادمين بالتجار معهم ، وبيع ما

١ وفي الحديث أن الرسول طاف وسعى بين الصفا والمروة ، وهو على ظهر جمل ،  
البخاري ( ٦٦/١ ، ٢١١ ) ، السنن ( ٣٧/٢ ، ٣٩ ) ، مسلم ( ٤٨٦/١ ، ٤٨٨ ) ،  
الإغانّي ( ١٦٦/١٣ ) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني - آذار  
١٩٣٩ م ( ص ٨٧ وما بعدها ) .

٢ Reste, s. 109.

٣ بلوغ الارب ( ٢٨٩/٢ ) .

يحتاجون اليه من طعام وزاد ، فحصلوا على مال ، حسدهم عليه الآخرون .  
فكان الفضل في ذلك للبيت . والى ذلك أشير في القرآن ، في سورة ( قريش ) :  
« فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »<sup>١</sup> .

هذا ما عرفناه عن شعائر الحج الى مكة وعن مناسكه في الجاهلية المتصلة  
بالاسلام . أما عن الحج الى البيوت الأخرى وعن شعائره ومناسكه ، فلا نكاد  
نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ولكننا نستطيع ان نقول ان من أهم أركان الحج  
عند جميع الجاهليين ، وجوب مراعاة النظافة ، نظافة الجسم ونظافة الثياب .  
ولذلك ، كانوا اذا حجّوا لبسوا ملابس خاصة بالحج هي ( الاحرام ) أو ملابس  
جديدة ، أو ملابس مستعملة نظيفة مغسولة ، وذلك لحرمه هذه المواضع وقدسياتها ،  
فلا يجوز دخولها بملابس وسخة دنسة ، واذا كانوا يلبسون أحسن ما عندهم عند  
ذهابهم الى مقابلة عظيم أو سيد قبيلة أو رجل محترم ، احتراماً له واجلالاً لشأنه ،  
أفلا يجب اذن لبس خير ما عند الانسان من ثياب لدخول بيوت الآلهة ، ولا سيما  
في مواسم الحج ؟ . وكان منهم من يوجب على نفسه الغسل وتنظيف جسده حين  
دخوله المعبد أو اعتزامه الحج .

وتقبيل الأصنام والأحجار واستلامها في أثناء الطواف ، والتمسح لها ، من الشعائر  
الدينية اللازمة في الحج وفي غير مواسم الحج عند الزيارات . كان في روعهم ان  
هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة ، ويوصلهم اليها ، فتجعلها ترضى عنهم وتشفيهم  
مما هم فيه من سقم وأمراض ، فتقربوا اليها ومسحوا أجسامهم بها تبركاً وتقرباً .  
و ( التمسح ) بالصنم أو الحجر المقدس ، التبرك به لفضله وعبادته ، كأنه يتقرب  
الى الآلهة بالدنو منه ولمسه<sup>٢</sup> . وقد كان رجال الدين يمسحون بأيديهم أجسام  
المرضى وثيابهم ، لازالة السوء عنهم . وقد ذكر أهل الأخبار ان الجاهليين كانوا  
يتمسحون بأصنامهم ، ويمسحون ظهورهم بها ، لاعتقادهم انها تشفيهم من كل  
ألم وسوء .

واستلام الصنم أو الحجر المقدس ، هو نوع من أنواع التقدير والتعظيم والتقرب .  
ويراد بذلك تقبيل الحجر ولمسه وتناوله باليد ومسحه بالكف . واذا صعب الوصول

١ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ ، رقم الآية ٣ وما بعدها ، تفسير الطبري ( ١٩٧/٣٠ ) ،

روح المعاني ( ٢٤١/٣٠ ) .

٢ تاج العروس ( ٢٢٦/٢ ) ، ( مسح ) .

اليه لشدة الازدحام ، فقد يمدّ أحدهم قصبية أو عوداً أو عصاً اليه لمسه، فيكون لمس هذه الأشياء له ، كأنه لمس حقيقي ، يجلب لصاحبه ما تمناه وطلبه ورجاه من ذلك الصنم أو الحجر<sup>١</sup> .

وقد أشار بعض (الكلاسيكيين) الى وجود غابة من النخيل في ركن من البحر الأحمر ، كان يؤمّها النبط للتبرك بها ، إذ كانت في نظرهم أرضاً مقدسة، عليها معبد من الحجر عليه كتابة ، وصفوها بأنها كتابة لا يستطيع اليوناني قراءتها ، وبه كهتان وكاهنات يقضون عمرهم في خدمة ذلك المعبد. قالوا : وفي كل خمس سنين يحج الناس اليه ، ويتجمعون عنده ، ويحضر معهم من في جوار المعبد من ناس ، فيذبحون ، ويتقربون الى آلهتهم . فإذا عادوا أخذوا معهم ماءً من ذلك المكان ، للتبرك به ، لاعتقادهم أنه يمنحهم الصحة والعافية . وذكر بعض آخر أن الحج الى هذا البيت كان مرتين في السنة : الحج الأول في مطلع السنة ، ويستغرق شهراً واحداً . أما الحج الثاني فيكون في نهاية الصيف، ويستغرق شهرين. وتكون هذه الأشهر الثلاثة أشهراً حرماً لا يحل فيها قتال ، يعمتها سلم أوجبتسه الآلهة على الانسان والحيوان<sup>٢</sup> .

ونرى في هذه الشعائر مشابهة كبيرة لشعائر الحج في مكة . ولولا تعيين هؤلاء الكتبة المكان ، ونصهم على أنه على البحر الأحمر ، وانه غابة نخيل ، لانصرف الذهن الى مكة ، إذ نجد أن شعائر الحج فيها تشبه هذه الشعائر ، واستقاؤهم من ماء ( زمزم ) للتبرك به ، يشبه استقاء هؤلاء من بئر معبدهم هذا ، وقد أهل أولئك الكتبة أسماء الأشهر الحرم الثلاثة ، فأضاعوا علينا فرصة ثمينة كانت تساعدنا كثيراً في الوقوف على تثبيت الأشهر عند الجاهليين .

ويلاحظ أن النبط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشهر الحرم سوقاً ، تذكرنا بسوق عكاظ التي كان يعقدها أهل الحجاز . ولا شك أن موسم الحج في المعبد المذكور ، الذي يتحول الى سوق للبيع والشراء ، يشبه موسم الحج في مكة حيث ينقلب أيضاً الى سوق .

١ اللسان ( ٢٩٧/١٢ ) ، ( سلم ) .

٢ Die Araber in der Alten Welt, I, S. 32. f.

## الأعياد :

والأعياد من جملة مظاهر الأديان وشعائرها. والحج في حد ذاته عيد من أعياد الجاهليين . وقد كانت للجاهليين أعياد لها صلة بأديانهم ، غير اننا لا نستطيع ان نتحدث بالطبع عن وجود أعياد عامة يعيد فيها جميع الجاهليين عبدة الأصنام ، لأن الأعياد العامة تستدعي وجود ديانة واحدة وعبادة إله أو آلهة مشتركة يعبدها جميع القوم ، واذ كانت العرب لا تعبد إلهاً واحداً أو آلهة مشتركة يقدها أهل الوبر وأهل المدر منهم جميعاً ، فلا يمكن ان نتصور وجود أعياد عامة لجميع العرب ، في عهود ما قبل الاسلام .

ولفظة العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد على رأي علماء اللغة<sup>١</sup> . وهو بالمعنى المعروف الذي يخص الاحتفالات الدينية من الألفاظ المعربة المأخوذة عن لغة بني إرم على رأي المستشرقين . فـ (عيدا) في الإرامية هي (العيد) في العربية<sup>٢</sup> .

١ تاج العروس ( ٤٣٨/٢ ) ، اللسان ( ٣١٣/٤ ) ، بلوغ الارب ( ٣٤٤/١ ) .  
٢ Ency., II, p. 444.

## الفصل الثالث والسبعون

### بيوت العبادة

والمعبد هو الموضع المخصص للعبادة . وقد وردت في النصوص الجاهلية وفي عربية القرآن الكريم ألفاظ تؤدي هذا المعنى ، فقد كان الجاهليون قد اتخذوا معابد ثابتة ومعابد متنقلة مثل بيوت الوبر ، تعبدوا بها الى معبوداتهم قبل الاسلام وقبل الميلاد .

فقد كانت القبائل في حركة دائمة ، بحثاً عن الغزو والكلأ والماء . وكانت ألهتها في حركة دائمة أيضاً ، ترحل مع المتعبدين لها ، وتستقر عند استقرارهم بمكان ما . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في قبتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة ، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه . وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبد، واتخاذ معبد ثابت . لخروج ذلك على سنن الآباء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نسيء للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان الى مكان . ثم ان أهل الوبر قوم رحل ، ولا يمكن لمن هذا حاله اتخاذ معبد ثابت له ، لما كان عليه من وجوب نقل أصنامه معه حيث يذهب .

ولبيوت الأصنام سدنة ، يحفظون الأصنام بها ويرعونها ، وينقلونها معهم حيث ترحل القبيلة ، فإذا نزلت نزلوا بها ، لقيموا لها الواجبات الدينية المفروضة في الخيمة المقدسة . حيث فرضت طبيعة البداوة على أصحابها هذا النوع من أنواع البيوت المقدسة ، وهذه الطقوس الدينية التي تلائم حياة الأعراب .

وبيوت العبادة عند الجاهليين ثلاثة أنواع : بيوت عبادة خاصة بالمشركون عبادة الأصنام ، وهم الكثرة الغالبة ، وبيوت عبادة خاصة باليهود ، وبيوت عبادة خاصة بالنصارى . أما بيوت عبادة المجوس ، فقد عرفت في العربية الشرقية وفي العربية الجنوبية ، ولكن عبادة هم من المجوس ، أي العجم ، فالمجوسية لم تنتشر بين العرب ، ولم تدخل بينهم إلا بين عدد قليل من الناس .

وما ذكرته عن بيوت العبادة ، خاص بالمعابد العامة ، وهناك مواضع عبادة خاصة ، جعلت في البيوت ، وضع أصحابها أصنامهم في ركن من أركانها ، وتقربوا إليها . روي ان العباس ، كان قد أقام الصنمين أسافاً وثلاثة في ركن داره ، وكانا حجرتين عظيمين<sup>١</sup> . واحتفظ غيره بأصنام في بيوتهم للتبرك بها ، ولحماية البيت ، وكانوا إذا سافروا حملوا أصنامهم الصغيرة معهم للاحتماء بها ، وأخذ بعض شباب المدينة ما وجدته من أصنام في البيوت ، تعبد لها آبائهم فحطمها ، ومنهم من رماها في مواضع العذرة والقاذورات .

وقد استطعنا اليوم بفضل جهود السياح والمنتقنين والباحثين من الحصول على بعض المعلومات عن معابد جاهلية كانت عامرة يوماً ما . وذلك بعثور المذكورين على ألواح مكتوبة وجدت في خرائب تلك المعابد . ولكن ما عثر عليه ، لا صلة له بالدين في الغالب ، فليس فيه أدعية أو صلوات أو كتابات تفصح عن عقائد القوم وعن أمور دينهم . ولهذا فإن علمنا بديانات الجاهليين لا يزال ضحلاً ، لم يتقدم تقدماً مرضياً ، وأملنا الوحيد في زيادته هو في المستقبل ، فلعله يخرج من صناديق سره المكتومة ما يفصح عن عقائد القوم .

وقد اتخذ بعض العرب ، وهم المتمكنون ، بيوتاً وكعبات لعبادة أصنامهم ، وضعوا أصنامهم في أجوافها ، ومنهم من اتخذ صنماً ، فلم يكن عليه بناء ، لعدم استطاعته ذلك . ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء بيت ، نصب حجراً أمام

١ الأزرقي (١١٢/١) ، (١٨٨/٢) .

الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسّن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسمّوها  
الأنصاب<sup>١</sup> .

وذكر أن ( وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي ) ، كان قد اتخذ له صرحاً  
بالجزورة ، سوق كانت بمكة، يرتقيه بسلام يتعبد فيه ، فعرف بصاحب الصرح<sup>٢</sup> .  
والبيت ، مأوى الانسان ومسكنه في الأصل ، ثم تجوز الناس فأطلقوا اللفظة  
على المعبد ، باعتبار أنه بيت الآلهة أو الإله ، لاعتقادهم أن الآلهة تجل به<sup>٣</sup> .  
وقد كانوا يضعون الصنم أو الأصنام فيه . ويقال للبيت عندئذ ( بيت الله ) أو  
( بيت ريام ) وهو بيت يذكر ( ابن الكلبي ) أنه كان لحمير بصنعاء ، وأن  
الناس كانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبايح<sup>٤</sup> ، أو ( بيت الربة ) وما شاكل  
ذلك ، بحسب اختصاص البيت بالصنم .

كذلك أطلقت كلمة ( بيت ) بمعنى معبد في نصوص المسند،فورد : ( وقدسو  
بيت مرب ) ، أي ( وقدسوا بيت مأرب ) أو ( وبيت مأرب المقدس )<sup>٥</sup> .  
فلفظة بيت هي اللفظة التي استعملت لمواضع العبادة ، أي المعبد ، أطلقت قبل  
اسم الإله أو الموضع لتدل على التخصيص . وهي ترد في لغات سامية أخرى في  
هذا المعنى نفسه .

وأما ( الكعبة ) فالبيت المربع ، وكل بيت مربع كعبة عند العرب . وقد  
خصصت في الإسلام بالبيت الحرام بمكة . والكعبة الغرفة أيضاً . وقد كان لربيعه  
بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات ، وقيل : ذو الكعبات ، وقد ذكره الأسود  
ابن يعفر في شعره ، فقال :

والبيتِ ذي الكعبات من سنداد<sup>٦</sup>

والمسجد كل موضع يتعبد فيه<sup>٧</sup> . وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى أيضاً .

- 
- ١ الاصنام (٢١) « روزا » .
  - ٢ تاج العروس ( ١٣٩/٢ ) ، ( صرح ) .
  - ٣ المفردات (٦٤) .
  - ٤ الاصنام (٧) « روزا » .
  - ٥ CIH 541, Le Muséon, 1934, LXVII, p. 103.
  - ٦ اللسان ( ٧١٨/١ ) ، المفردات (٤٤٦) .
  - ٧ اللسان (٢٠٤/٣) وما بعدها ، تاج العروس (٣٧١/٢) ، ( مسجد ) .

وقد وردت اللفظة في نصوص بني إرم وفي النصوص النبطية والصفوية . ورد على هذه الصورة ( مسجدا ) في نصوص بني إرم ، وورد على هذه الصورة في النصوص الصفوية أيضاً ، وقد عنت به معبداً<sup>١</sup> .

وقد عبر عن المعبد بلفظة ( مكربن ) ، أي ( المكرب ) أو ( المكراب ) في بعض نصوص المسند ؛ إذ ورد ( مكربن يعق ) ، بمعنى ( معبد يعوق )<sup>٢</sup> . ومن هذا الأصل أخذت كلمة ( مكراب ) في الحبشية ، ومعناها ( معبد )<sup>٣</sup> . ولهذا ذهب ( كلاسر ) وغيره إلى أن ( مكربة ) Moceraba ، المدينة المذكورة في ( جغرافيا ) ( بطلميوس ) هي ( مكة ) ، لأنها ( مقربة ) إلى الأصنام ، فهي بمعنى ( البيت ) و ( الكعبة ) في لهجتنا<sup>٤</sup> .

وتقابل كلمة ( المعبد ) كلمة Templum اللاتينية التي تعني موضعاً مربعاً ، فهي بمعنى ( الكعبة ) ، و ( كعبة ) في اللغة العربية . ويلاحظ توافق تام بين معنى الكلمتين في هاتين اللغتين<sup>٥</sup> . ولا بد أن يكون لاختاذ هذا الشكل للمعبد سبب ، إذ لا يعقل أن يكون قد جاء ذلك عفواً ، ولا سيما أننا نلاحظ أن الكلمتين اللاتينية والعربية ، قد جاءتا من شكل البناء ونوعه وطرازه .

وذكر علماء اللغة أن في جملة الألفاظ التي تطلق على بيوت الأصنام والعبادة والتصاوير ، لفظة ( البد ) . وهي تؤدي معنى ( صنم ) كذلك . وذكروا أنها من الألفاظ المعربة عن الفارسية . عربت من ( بت )<sup>٦</sup> ، وأنها تعني البيت إذا كان فيه أصنام وتصاوير<sup>٧</sup> .

وذكروا أن في جملة الألفاظ التي أطلقت على بيوت الأصنام لفظة ( الطواغوت ) والجمع ( الطواغيت ) . ورد أن العرب « كانت قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، وتهدي إليها ، كما

- ١ العرب في سورية قبل الإسلام ( ١١٩ ) .
- Shorter Ency. of Islam, p. 330, Cooke, North Semitic Inscriptions, p. 238.
- ٢ Le Muséon, 1954, LXVII, p. 100.
- ٣ Ency., II, p. 586.
- ٤ Glaser, Skinzze, II, S. 235.
- ٥ Ency. Religi., Vol., 12, p. 236.
- ٦ تاج العروس ( ٢ / ٢٩٥ ) ، ( بدد ) .
- ٧ شمس العلوم ( ح - ١ ، ق ١ ، ص ١١٩ ) ، غرائب اللغة ( ٢١٨ ) .

تهدي الى الكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر ، عندها ، وهي تعرف  
 فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت ابراهيم الخليل ومسجده<sup>١</sup> .  
 وورد أن ( الطاغوت ) الصنم ، وكل معبود من دون الله ، ولما تقدم سُمي  
 الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتاً<sup>٢</sup> . واللفظة  
 تعني في لغة ( بني لرم ) : رئيس عقيدة ضلال ، وشيطان وصنم<sup>٣</sup> .

و ( الهيكل ) من الألفاظ الدالة على موضع العبادة ، استعملت لبيوت الأصنام  
 مجازاً ، ولعابد النصارى<sup>٤</sup> . والظاهر أن استعمالها كان عند العرب الشماليين في  
 الغالب ، مثل عرب العراق وعرب بلاد الشام ، ولا سيما عند النصارى منهم .  
 أخذوها من الآراميين ، إذ هي بمعنى بيت الصنم ، أي معبد الوثنيين عندهم<sup>٥</sup> .  
 وقد وردت في لغة ( المسند ) كذلك ، وردت بمعنى ( قصر )<sup>٦</sup> ، ومعبد في  
 أيام دخول النصرية الى اليمن .

وقد أطلق ( الديدانيون ) على بيت ( بعل سمن ) ، لفظة : ( احرم )  
 بمعنى ( الحرم ) تعظيماً وتمجيذاً له . فهو ذلك الإله<sup>٧</sup> . وترد لفظة ( محرم )  
 — التي لا زالت حية معروفة يطلقها أهل اليمن على محرم ( بلقيس ) — في لغة  
 المسند ، بمعنى المعبد ، والمسجد الحرام . وقد وردت في عدد من النصوص<sup>٨</sup> .  
 وبيوت العبادة أنواع . بيوت عبادة كبيرة ، يحج إليها في أوقات معينة ،  
 ومواسم محددة ، من مواضع قريبة أو بعيدة ، هي محجات يحج إليها في وقت  
 معين ثابت ، يتقرب بها المتعبدون الى رب المحجة أو أربابها بأداء واجب الخضوع  
 والطاعة . وتكون محجة واحدة في الغالب ، اختارها الإله أو الآلهة من بين سائر  
 أماكن الأرض لتكون موضعاً مقدساً وحرماً آمناً ، فهي أقدس بقعة وأعز مكان  
 في نظر المتعبدين لها على وجه هذه الدنيا . فلا تدانيها المعابد الأخرى ولا تبلغ  
 منزلتها في الحرمة والمكانة .

- ١ ابن هشام ( ١/٨٦ وما بعدها ) ، هامش على الروض الانف ( ١/٦٤ ) .
- ٢ المفردات ، للاصفهاني ( ٣٠٧ ) ، الاصنام ( ٦ ) ، تاج العروس ( ١٠/٢٢٥ ) ، ( طغا ) .
- ٣ غرائب اللغة ( ١٩٤ ) . • Hughes, Dictionary of Islam, p. 625.
- ٤ تاج العروس ( ٨/١٧٠ ) ، ( هيكل ) .
- ٥ غرائب اللغة ( ٢٠٩ ) .
- ٦ Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 433.
- ٧ Histoire, IV, p. 312, Preislamiqes, p. 20.
- ٨ Jamme, South Arabi. Inscriptions, p. 440.

وهناك بيوت عبادة أخرى تكون دون المحجبات في الأهمية والدرجة ، لأن الآلهة لم تحترها لنفسها ولم تنص على اسمها ، وإنما هي دور عبادة أقامها الناس تقرباً الى تلك الآلهة . وهي متفاوتة في الدرجة أيضاً ، فيها المعابد الكبيرة التي صرف على اقامتها مال كثير ، وفيها معابد بسيطة ، يقيمها الناس تقرباً الى أربابهم .

والناس في ذلك العهد ، كالناس في ايماننا هذه ، لا يكتفون بتشيد معبد واحد في المدينة ، بل نجدهم يقيمون جملة بيوت للعبادة ، وقد خصص بعضها بعبادة جملة آلهة ، وخصص بعضها بعبادة إله واحد معين ، يذكر اسمه على باب المعبد . وقد تبنى في الموضع الواحد جملة معابد لإله واحد ، لأن المعابد من الأعمال الخيرية التي يقوم بها المؤمنون تقرباً الى الآلهة ، لذلك يصادف قيام جملة أسر ببناء معابد لذلك الإله ، تسميها باسمه وتنقش اسم الأسرة أو المتبرع بالبناء على موضع بارز من المعبد . ويفضل هذه الطريقة القديمة ، التي لا تزال البشرية تتبعها ، تمكنا من الحصول على معلومات عن تلك المعابد وعن الآلهة التي خصصت لها وعن أسماء المؤمنين الذين أقاموها .

وقد اتخذ الانسان من الكهوف بيوتاً للعبادة ، كما اتخذ من الجبال والمواقع المرتفعة أماكن بنى عليها معابده ، ليكون في رأيه ونظره أقرب الى السماء ، حيث تقيم الآلهة ، فنسمع دعاءه ، وتصل اليها كلمته ، وتستجيب له ، أكثر من استجابتها له لو كان على سطح الأرض . وبنى الحضري معبده في المواطن التي يقيم فيها ، وحاول جهده الإنفاق عليها ، والتفنن في بنائها وزخرفتها ، لتكون بيوتاً تليق بسكنى الأرباب . أما البدو ، فكانت معابدهم في الخيام ، تحفظ فيها أصنامها ، فتنقل معها ، وتضرب في الموضع الذي تحل القبيلة فيه ، ينظرون اليها نظرة تقديس وإجلال ، لأنها حرم الآلهة وأماكنها وبيوتها المقدسة ، فلا يجوز تدنيسها ولا انتهاك حرمتها . لهذا لم يكن يسمح لأحد بالدخول اليها إلا اذا كان من رجال الدين .

ولهذه الخيام المقدسة سدنة ، يضعون الصنم أو الأصنام في جوفها ، ويسهرون على خدمتها ، وينقلونها معهم حيث تنتقل القبيلة . وهم يتوارثون خدمتها . واذا استقرت القبيلة وتحضرت ، تحضر معبد صنمها بتحضرها كذلك . ووجد الصنم

عندئذ له مستقراً دائماً ومقاماً ثابتاً ، ويصير عندئذ في عداد الأصنام الثابتة .  
ويكون للصنم عندئذ معبد متناسب قيمته وأهميته ودرجة عمرانته ، مع مكانة القبيلة  
وعدد رجالها وغناها وما عندها من مال .

وللعين أهمية كبيرة في تقييم المعبد وفي نشر العبادة وفي تكوين شخصية الإله  
رب المعبد فيما بين الناس . فكما أن قيمة الانسان بملبسه وبأناقته وبجسده ومظهره ،  
كذلك تكون قيمة المعبد بضخامته وبما يزين به من نقوش وزخارف وبما يعلق  
على الموضوع المقدس منه من ذهب وفضة وأحجار كريمة . فالمعبد الضخم ، يدل  
على قوة الإله وقدرته في نظر من ينظر بعينه لا بعقله الى قيم الأمور ، أي في  
نظر السواد ، وهم الكثرة الغالبة ، ولذلك يجلبهم اليه ، وتلقى ضخامته في نفوسهم  
تأثيراً كبيراً يجعلهم يشعرون أنهم أمام بيت إله حقاً ، لما فيه من روعة ولما  
تفوح في داخله من روائح البخور والطيب ، لذا حرص رجال الدين على جعل  
معايدهم ضخمة فخمة ، لتجلب لها أكبر عدد ممكن من المتعبدين .

ومن أشهر المواضع المرتفعة التي حجج اليها المتعبدون للتبتل والتعبد ، والتي ورد  
ذكرها في قصص أهل الأخبار : حِراء ، وأبو قبيس ، وثبير .

أما ( حراء ) فقد ورد في بيت منسوب الى شاعر جاهلي :

فإني والذي حجت قريش محارمه ، وما جمعت حراء<sup>١</sup>

وجعل أحد الأجل الخمسة التي بُني من حجارتها البيت<sup>٢</sup> . واليه كان يلجأ  
كبار قريش لدعوة آلهتهم في الملأ ، واليه أيضاً كان يأتي بعض المتحنتين النسك  
الزاهدين في عبادة الأوثان للتفكير والتأمل . وفيه غار تحنث فيه النبي ، ويعرف  
بـ ( جبل النور )<sup>٣</sup> . وورد ان أبا طالب أرسل عقيلاً ليأتي بالرسول اليه ،  
فذهب الى ( كبس ) ، وأخرجه منه . والكبس الغار<sup>٤</sup> . ويظهر انه أراد به  
غار حراء .

- 
- ١ البكري ( ٤٣٢/٢ ) ، ( حراء ) ، هو « عوف بن الاعوص » العامري ، شرح ديوان  
لبيد ( ٢١ ) .
  - ٢ الأزرقى ، أخبار مكة ( ٢٦/١ ) ، ( ما ذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة ) .
  - ٣ تاج العروس ( ٨٧/١٠ ) ، ( حرو ) .
  - ٤ تاج العروس ( ٢٣٩/٤ ) ، ( كبس ) .

وأما ( أبو قبيس ) ، فيظهر من غرابة أخبار الأخباريين انه كان من المواضع المقدسة الداخلة في شعائر الحج ، يرتقي الحجاج ظهره ، ليموا بذلك مناسك حجهم ، وليدعوا آلهتهم بما يطلبون ويرغبون . وكان مقصوداً عند نزول الشدة والبلاء . فالمظلوم يجد محله فوق هذا الجبل للدعاء عند انحباس المطر ، لنزول الغيث<sup>١</sup> .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ، انه سمي ( أبا قبيس ) برجل من مذحج حدّاد ، لأنه أول من بنى فيه ، أو بقبيس بن شالخ ، رجل من جرهم ، كان قد وشى بين عمرو بن مضاخ وبين ابنة عمه ( مية ) ، فنذرت ان لا تكلمه ، وكان شديد الكلف بها فحلف ليقتلن قبيساً ، فهرب منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره . فإما مات وإما تردى منه ، فسمي الجبل أبا قبيس . « وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكان أبو قبيس الجبل هذا يسمى الأمين ، لأن الركن ، أي الحجر الأسود ، كان مستودعاً فيه »<sup>٢</sup> . « وكان الله عز وجل استودع للركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح » ، فلما أقام ( إبراهيم ) قواعد البيت ، ( جاءه جبريل بالحجر الأسود )<sup>٣</sup> . والظاهر ان بيتاً للعبادة كان عليه ، وانه كانت له صلة بالبيت ، فتجسمت هذه الصلة في الذي ذكروه عن الحجر الأسود ووجوده فيه .

وأما ( ثبير ) ، فقد كانوا يفيضون منه في الحج على نحو يذكر في شعائر الحج .

ويلاحظ أن أهل العربية الجنوبية وأهل السراة قدسوا قمم الجبال ، فجعلوا فيها معابد لعبادة الآلهة ، مثل معبد ( اوم ) ( أوّام ) في ( الو ) . وقد أزيلت معالم تلك المعابد في الإسلام ، ولكن بعضها أخذ طابعاً اسلامياً فصير مثلاً قبراً من قبور الأنبياء مثل : ( حضور نبي شعيب ) ، الذي يقع على قمة جبل تعد من أعلا قمم جبال العربية الجنوبية ، و ( نبي ايوب ) و ( مقلى ) عسلى محر ( مبلقة )<sup>٤</sup> .

- ١ المشرق : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز - أيلول ١٩٤١ ، ( ص ٢٥٢ وما بعدها ) .
- ٢ تاج العروس ( ٢١٢/٤ ) ، ( فيس ) .
- ٣ الأزرقى ( ٢٧/١ ) ، ( ما ذكر من بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة ) .
- ٤ تاج العروس ( ١٤٨/٣ ) ، ( حضر ) ، Beiträge, S. 85, Ency., II, p. 222.

وترجع قدسية المواضع المقدسة وحرمتها الى الاعتقاد بنزول الآلهة في هذه المواضع ، والى وجود قوى خارقة فيها ، أو الى وجود مقدسين فيها قبروا في باطنها ، فقدست تلك المواضع لهذه الأسباب . وتعرف هذه المواضع المقدسة بأسماء من تقدست بهم ، وبأسماء المواضع التي تقع فيها .

ولنا لرى كثيراً من الأماكن المقدسة قد أقيمت في جزيرة العرب عند الينابيع والآبار المقدسة حيث تروى الأرض بالماء فتنمو به المزروعات ويستقي منها الناس . وقد صور هذا الخصب لسكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان ولهذا الأرض<sup>١</sup> .

وقدست بعض المواضع وأقيمت المعابد بها ، بسبب وجود أشجار مقدسة بها ، ونجد في أخبار أهل الأخبار أن بعض المعابد مثل معبد العزى ، كان المتعبدون يتقربون بها الى سمرة ، أي شجرات ثلاثة ، أو الى شجرة واحدة ، فكانوا يعلقون عليها الحلي ويزينونها ، ومثل معبد ( ذات أنواط ) ، وهي شجرة كانت تعبد في الجاهلية ، وهي سمرة كان المتعبدون لها ينوطون بها سلاحهم ويعكفون حولها<sup>٢</sup> .

وقدست مواضع أخرى لوجود أحجار مقدسة بها ، كانوا يطوفون حولها من هذه المواضع : ( عكاظ ) . فكان الناس يأتون الموضع في الموسم ، فينصبون فيه خيامهم ، ويقىمون سوقهم ، ويطوفون بأحجار عكاظ ، يقيمون على ذلك أيام الموسم . فهي أيام عبادة وتجارة وفرح .

ولهذه القدسية والحرمة ، لم يسمح للسواد الأعظم من الناس بدخول الغرف المقدسة المخصصة بالآلهة ، لأنها بيوت الآلهة ، وعوض لهم عن هذا التحريم بالطواف حولها أو بلمس جدرانها ، وللسبب نفسه ، حتم على القاصدين لها غسل أجسامهم وتنظيفها ولبس ملابس طاهرة نظيفة ، كان سدنة بعض تلك المعابد ، أو أهل المواضع التي تقع فيها المعابد يؤجرونها للناس بأجر معين مرسوم ، إن كانت تلك المعابد من المعابد الكبيرة وفي مواسم الحج . كذلك لم يكن يسمح لأحد بالدخول الى المعابد والأحذية في أرجلهم فلا بد من خلعها والدخول بغير أحذية

Ency. Religi., 6, p. 753, Robertson, p. 115.

١

٢ تاج العروس ( ٢٣٦/٥ ) ، ( نوط ) .

احتراماً لقدسية المكان وخشية التدنيس<sup>١</sup> . وقد حتم الجاهليون على من يريد دخول الكعبة من المتمكنين خلع نعليه ، احتراماً للبيت . ذكر أهل الأخبار ان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة ( الوليد بن المغيرة ) ، فخلع الناس نعالهم في الاسلام<sup>٢</sup> . وقد عثر على كتابات جاهلية تبين منها . ان الجاهليين كانوا يعدّون طهارة الملابس وطهارة الجسم من الأمور الملازمة لمن يريد دخول المعبد ، فإذا دخل انسان معبداً وهو نجس عادّ آثماً ، وقد ورد ان رجلاً اتصل بامرأة ، ثم دخل المعبد بملابسه التي كان يلبسها حين اتصل بها ، فعادّ آثماً ، ودفع فدية عن إثمه ارضاءً للآلة<sup>٣</sup> . وورد ان رجلاً دخل معبد الإله ( رب السماء ) ( ذسموى ) بمعطف نجس ، فدفع فدية عن ذلك ، جزاء ما ارتكبه من إثم<sup>٤</sup> . فدخول المعابد بملابس نجسة ، نجاسة : مادية أو معنوية ، إثم ، تعاقب الآلهة عليه ، لهذا اشترطت ديانتهم عليهم عدم دخول بيوت الآلهة ، إلا بملابس طاهرة نظيفة حرمة وتقديراً لهذه البيوت .

وللسبب المذكور اشترط سدنة الصنم ( الجلسد ) على من يريد من عباده معادب قربان اليه ، أو تخليعه كراه ثياب مسدنة ، للبسها بدلاً من ملابسهم ، لأنّها ملابس نظيفة طاهرة . لم تدمها أدران مادية أو معنوية<sup>٥</sup> . وهو شرط نجده عند غير العرب أيضاً كالعبرانيين<sup>٦</sup> . وقد كانت المعابد تدخر ملابس تكرمها لمن يريد أداء شعائر ريادة بيوت الأصنام .

وورد في كتب أهل الأخبار ، أن الجاهليين حتموا على المرأة الحائض ألا تمس الصنم ولا تلمس به ، والا تدخل بيته لنجاسة الحيض<sup>٧</sup> . وورد أن (فاختة) أم ( حليم بن حزام بن خويلد ) ، كانت دخلت الكعبة وهي حامل متم بحكيم

1 Ency. Religi., 6, p. 753.

2 ابن رسته ، الاعلاق (١٩١) ، صبح الاغنى ( ٤٢٨/١ ) .

3 Glaser 1052, Hofmus 6, GH 523. (Grohmann, S. 251. f.

4 Rep. Epigr., 3956, Grohmann, S. 252.

5 البلدان ( ١٢٢/٣ ) .

6 ثم قال الله ليعقوب . قم فاصعد الى بيت ابل ، وأقم هناك ، واصنع هناك مذبحاً لله الذي ظهر لك عند هربك من وجه عيسو أخيك . فقال يعقوب لأخيه وسائر من معه : أزيلوا هذه الآلهة الغربية التي بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم . وهلموا

نصعد الى بيت ابل ، الكون ، الفصل (٣٥) . الآنة ١ وما بعدها .

7 الاصنام (٣٣) ، خزائن الادب ( ٢٤٥/٣ ) .

ابن حزام فأجاءها المخاض ، فلم تستطع الخروج من الكعبة ، فوضعتها فيها فلفت في الأنطاع هي وجنينها وطرح مثيرها وثيابها التي كانت عليها ، فجعلت لقي لا تقرب<sup>١</sup>. فيظهر من هذا الخبر ان اهل مكة كانوا يعتبرون دم المخاض والولادة نجساً ، ولهذا اعتبرت الأنطاع التي وضعت ( فاختة ) جينها عليها ، بل اعتبرت هي نجسة أيضاً ، فلفت بالأنطاع ، وألقيت ، وجعلت لقي لا يمسه أحد . وعثر المنقبون على أحواض داخل المعابد في العربية الغربية ، يظهر أنها كانت للوضوء ، لتطهير الجسم قبل الدخول الى المسجد ، موضع الصنم . وذلك بغسل الوجه واليدين والقدمين وربما الأبدان كذلك ، قبل الدخول الى بيت الصنم . ولكون هذا الوضوء تطهيراً للجسم ، عرفت ( الميضأة ) بالمطهرة ، لأنها تطهر من الأدران<sup>٢</sup> . ولهذا السبب ، حفرت الآبار في المعابد ، لتموين هذه الأحواض بالماء ، وللتترك أيضاً بالماء المقدس ، ولاستعماله في أغراض أخرى ، منها تنظيف الجسم من الأدران بعد قضاء الحاجة .

ولهم آداب اتبعوها حين دخولهم بيت الصنم وحين خروجهم منه . من ذلك ان القبائل كانت تتجنب ان تجعل ظهورها على مناة اعظاماً للصنم . فكانت تنحرف في سيرها ، حتى لا يكون الصنم الى ظهرها . وفي ذلك قال الكهيمت بن زيد ، أحد بني أسد بن خزيمه بن مدركة :

وقد آلت قبائل لا تولي مناة ظهورها مُتَحَرِّفِينَا<sup>٣</sup>

وقد تطورت أشكال المعابد وهندستها بتطور الحضارة ، وبشكل طبيعة الأرض التي يقام المعبد عليها . وهي تتناسب مع درجة تطور الشعوب ودرجة رقيها وطرز تفكيرها واختلاطها بالأمم المجاورة . ولذلك نجد معابد ( تدمر ) مثلاً قد تأثرت بطراز البناء الإغريقي ، لتغلغل الثقافة اليونانية فيها ، ولتأثر سكان المدينة باليونان . كذلك نجد هذا الأثر والأثر الروماني في معابد بلاد الشام وفلسطين ، فالمعبد اذن

- ١ الروض الانف ( ١٣٤/١ ) ، الاصابة ( ٣٤٨/١ ) ، ( رقم ١٨٠٠ ) ، كتاب نسب قريش ( ٢٣١ ) .
- ٢ تاج العروس ( ١٣٤/١ ) ، ( وضوء ) .
- ٣ ابن هشام ( ٩٠/١ ) ، المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، ( الجزء الاول ) ، ( ص ١١ ) ، ابن هشام ( ٦٥/١ ) ، ( حاشية على الروض الانف ) ، ( قصة عمرو بن لحي ، وذكر أصنام العرب ) .

هو نموذج معبر عن نفسية الناس وعن حضارتهم ودرجة تفكيرهم وعن هندستهم، ومدى تأثير فن البناء عندهم بالمؤثرات الداخلية الأصيلة أو المؤثرات الدخيلة في الزمن الذي قام فيه البناء .

ومن هنا نجد معابد اليمن ، اتخذت لها الحجارة الضخمة المتقطعة من الصخور في بناء الجدر والأرض وفي الأعمدة ، ونجد المعمار قد تفنن في تزويق الجدر والأعمدة والسقوف وفي زخرفتها ، فصارت المعابد ضخمة جميلة ، لا تضاهيها المعابد التي أقيمت في مواضع سهلة من جزيرة العرب ، لعدم وجود المواد الصالحة للبناء فيها ، ولأن الطبيعة لم تهب للمعمار فيها ما يدفعه الى بناء أبنية ضخمة فيها تضاهي معابد أهل اليمن .

### الاستفسار عن المغيبات :

ولم تكن المعابد مواضع عبادة وتقرب الى الأصنام حسب ، بل كانت مواضع استفسار عن المغيبات كذلك ، يقصدها أهل الحاجات لسؤال الآلهة عما عندهم من مشكلات ، أو عما سيخبئه لهم المستقبل من أمور ، أو عن أعمال يريدون القيام بها ، أو عن سرقة ، وما شابه ذلك من طلبات .<sup>١</sup> ومن هذه البيوت بيت رثام ، وقد كانوا يكلمون منه وينحرون عنده .<sup>٢</sup> وبيت العزى ، وكانوا يسمعون فيه الصوت .<sup>٣</sup> والمنطبق وكان صنماً من نحاس يكلمون من جوفه ، فيأتيهم الجواب .<sup>٤</sup> وبيت ( الجلسد ) ، صنم كندة وأهل حضرموت .<sup>٥</sup> وقد ذكر ( الجاحظ ) : « أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشر حتى احترق عامة فخذه ، حتى عادته النبي ، صلى الله عليه وسلم » . وهو ممن يشكون في صدور مثل هذه الأمور إذ يقول : « وهذه فتنة لم يكن الله ليمتحن بها الأعراب وأشباه الأعراب من العوام . وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطف لمكان التكسب » .<sup>٥</sup>

- ١ الاصنام ( ص ١٢ ) ، الطبري ( ٩٧/٢ ) .
- ٢ الاصنام ( ص ١٨ ) .
- ٣ المجد ( ص ٣١٨ ) .
- ٤ البلدان ( ١٢٢/٣ ) وما بعدها ، .
- ٥ الحيوان ( ٢٠١/٦ ) .

## تكليم الأصنام :

ويقوم الكهان بتكليم الصنم ، وهم الذين يفسرون للسائلين المهمة أو الأصوات الصادرة من تلك الأصنام ويتكلمون على ألسنتها بما يلائم السائل مقابل نذر وهدايا وألطف يقدمونها الى السدنة . وهذا النوع من التنبؤ ، معروف عند اليونان والرومان، مشهور ومعروف عند غيرهم من الأمم كالبابليين والأشوريين والعبرانيين. بل هو يؤلف جزءاً مهماً من أركان الديانات القديمة ، ويطلق عليه Oracle في الانكليزية من Oraculum اللاتينية ، ومعناها التكلم . ولهذا النوع من التنبؤ صلة كبيرة بالسحر Magic وبالكهانة في الديانات القديمة والديانات البدائية عند بعض الشعوب الافريقية والاسترالية في الزمن الحاضر . وقد اكتسبت بعض معابد اليونان شهرة كبيرة في هذا النوع من التنبؤ بالغيب ، وأشهرها معبد ( دلفي ) Delphi الذي كسب شهرة عظيمة في هذا الباب<sup>١</sup> .

وقد ورد في بعض النصوص ، ان قوماً كلموا آلهتهم في شهر ( ذاجبي ذعثر ) و ( ذفرعم ذعثر ) ، فأجابهم الإله (عثر) على ما سألوا عليه . وورد ان جماعة من المؤمنين بـ (عم) ، كلموه ، فأجابهم على ما سألوا عنه . وكانوا اذا كلموا الآلهة ، فوجدوا ان الأجوبة غير منسجمة مع الأسئلة ، أعادوا الأسئلة عليها وقدموا قرابين جديدة لها ، أو وزادوا في الحلوان، يفعلون ذلك حتى يسمعوا الجواب المناسب لأسئلتهم<sup>٢</sup> .

ولم أسمع بوجود تكليم في مكة . فلم يذكر أحد من أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يأتون الكعبة لسماع أجوبة الأصنام عن أسئلة يوجهونها إليها، ولا عن وجود سدقة كانوا يقومون بأي نوع من التكليم . وإنما ذكروا أنهم كانوا يسألون الأصنام النصيح والارشاد ، والأمر والنهي بفعل فعل أو تركه ، ويكون ذلك بالاستقسام بالأزلام . وقد خصص الصنم ( هبل ) بهذا النوع من الإرشاد . وكانت عنده سبعة قداح ، كل قدح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل ، إذا اختلفوا في العقل من يحملة منهم ، ضربوا بالقداح السبعة عليهم . فإن خرج العقل ، فعلى

Ency. Brita., Vol., 16, p. 830, T.D. Dempsey, The Delphic Oracle, 1918, L.R. ١

Farnell, Cults of the Greek States, Vol., IV, p. 179.

Grohmann, S. 251. ٢

من خرج حمله . وقدح فيه ( نعم ) للأمر ، إذا أرادوه يضرب به في القدح ، فإن خرج قدح فيه نعم ، عملوا به . وقدح فيه ( لا ) ، فإذا أرادوا الأمر ضربوا به في القدح ، فإذا خرج ذلك القدح ، لم يفعلوا ذلك الأمر . وقدح فيه ( منكم ) ، وقدح فيه ( ملصق ) ، وقدح فيه ( من غيركم ) ، وقدح فيه ( المياه ) ، فإذا أرادوا أن يحضروا للقاء ضربوا بالقدح ، وفيها ذلك القدح ، فحيثما خرج به ، عملوا به . وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحدهم ، ذهبوا به إلى هبل وبمئة درهم وجزور ، فأعطوها صاحب القدح الذي يضرب بها ، ثم قربوا صاحبهم السني يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا فلان ، أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه . ثم يقولون لصاحب القدح : إضرب ، فإن خرج عليه ( منكم ) كان منهم وسيطاً ، وإن خرج عليه من ( غيركم ) كان حليفاً ، وإن خرج عليه ( ملصق ) ، كان ملصقاً على منزلته فيهم لا نسب له ولا حليف ، وإن خرج عليه شيء مما سوى هذا مما يعملون به ( نعم ) عملوا به ، وإن خرج ( لا ) أخرجه عامسه ذلك ، حتى يأتوا به مرة أخرى ، ينتهون في أمرهم ذلك إلى ما خرجت به القدح<sup>١</sup> .

وهكذا كانت قریش والقبائل التي تخرج إلى مكة تأتي إلى هبل لاستشارته في قضايا تهمها . فما يخرج في القدح مما هو مكتوب ، يكون الجواب . غير أن بعض الأجوبة قد يأتي على خلاف رغبة السائلين ، ولذلك كانوا يغرون الضارب على القدح بالضرب إلى أن يخرج القدح الذي فيه يريدون ويشتنون. وقد يؤخرون ذلك بعض الوقت . وهم يفسرون النتيجة التي تظهر أنها رغبة الصنم وإرادته بوحياها ، فتظهر بالقدح .

وذو الخلصة من الأصنام التي كان يستقسم عندها كذلك . وإلى هذا الصنم ينسب قول أحد الشعراء لهذه الأبيات :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلي وكان شيخك المقبوراً  
لم تنه عن قتل العداة زوراً

١ الازرقبي ( ٦٨/١ وما بعدها ) ، الطبري ( ١٧٢/٢ وما بعدها ) .

وهي أبيات ينسبها بعض الرواة الى امرىء القيس . وكان أبوه قتل ، ف  
الطلب بثأره ، فأتى ذا الخليفة ، فاستقسم عنده بالازلام ، فخرج السهم ين  
عن ذلك ، فقال هذه الأبيات التي تتحدث عن غضب الشاعر على هذا الصنم  
لنهيه إياه عن الأخذ بالثأر . ولو كانت النتيجة كما يشتهي ، لما قال الشاعر  
الأبيات بالطبع ، وتجاسر على الصنم .

ولما كانت الحروب والغزوات من القضايا المهمة ، كانت استشارة الآلهة  
والاستقسام بشأنها من الأمور المألوفة ، فكان أهل مكة اذا أرادوا الحرب  
عقد هدنة أو إبرام أمر خطير أتوا ( هُبُل ) يستقسمون عنده ليعطيهم الر  
المصيب في هذا الموضوع .

والغالب ان يكون الاستقسام أمام الصنم ، ليقع في روع طالب الاستقسام  
ما يجري انما هو بعلم الصنم وبوحيه ، فيكون ذلك أوكد في نفسه وأعمق تأثير

#### أشكال المعابد :

هذا ولا بد لي ان أشير الى اننا لا نملك حتى الآن رأياً واضحاً قاطعاً  
شكل المعابد عند الجاهليين . ولا يمكن تكوين رأي واضح عن هذا النحو إلا  
قيام علماء الآثار المتخصصين بدراسة آثار المعابد والكشف عنها ورسم مخططات  
صحيحة لقواعدها وأسسها . ولذلك ، لا بد من مرور زمن ، حتى يتمكن ال  
من تكوين رأي في أصول المعابد ، وكيفية إقامتها من الوجهة الدينية الأصولية  
عند العرب قبل الاسلام .

وإذا كان في استطاعتنا تحديد شكل ( بيت الله ) بمكة ، و ( كعبة نجران )  
و ( كعبة سندان ) ، أو ( كعبات سندان ) ، كما يسميها البعض ، فإن  
الصعب علينا تحديد حياة بيوت الأصنام في المعابد الأخرى ، لعدم ورود نص يع  
صفة تلك البيوت في أخبار أهل الأخبار . فلا ندري أكانت مكعبات ، أم  
أشكال أخر .

ولما كانت المعابد بيوت الأرباب ، صارت لها حرمة خاصة وقدسية في ك

دين ، فلا يجوز انتهاك حرمتها ، ولا القيام بأعمال شائنة دنسة فيها ، خاصة بالقياس الى الأماكن المقدسة جداً التي تعدّ محجة للناس . وقد اتخذت حول البيوت مواضع عدتّ جزءاً من المعبد حددت بحدود ، فما كان داخلياً عدّ حرماً آمناً ، وما كان خارج الحد كان خارجاً عن المعبد ، فليست له تلك الحرمة التي عينتها شريعة القوم للمعابد .

وأقدس مكان في المعبد هو (البيت) ، أي الغرفة التي تضم الصنم أو الأصنام . فقد كان البيت ، وهو المسمى الكعبة في مكة ، أقدم موضع عند قريش وعند غيرهم من عبدة الأصنام الذين كانوا يقصدون ( البيت الحرام ) ، وذلك بسبب وجود الأصنام فيه .

ويعبر في العربية الجنوبية عن البيت الذي توضع فيه الأصنام ، بـ ( نختن )<sup>١</sup> فهو إذن بمثابة الكعبة بمكة .

ويقال للأرض الحرام المقدسة التي تحيط بـ ( البيت ) ، ( الحرم ) . قيل سمي (الحرم) حرماً لتحريم الناس فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره من المواضع<sup>٢</sup> . وقد وردت اللفظة في الكتابات النبطية . فوردت في كتابة نبطية عثر عليها في (بطرا) علماء لحرم الإله ذي الشرى ، قصد به الأرض المقدسة المحيطة ببيت ذلك الصنم ، والمعبد كله ، لأنه محرم ومقدس : (حرم ذي الشرى الإله ربنا)<sup>٣</sup> . ولا يجوز لأحد انتهاك حرمة الحرم والاعتداء عليه . وإذا دخل انسان الحرم صار آمناً مطمئناً ، لا يجوز أن يعتدى عليه ، ولا أن يمس بسوء ، وإن كان قاتلاً . وحدود الحرم أنصابه ، وهي علاماته ، فمن اجتازها وصار في داخلها ، دخل في حرمة الحرم .

وما كان خارج الحرم ، هو من الحل ، أي من المنطقة الخارجة عن حرمة المعبد . فلا تشملها الأحكام المفروضة على الحرم . وكان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً ولجأ الى الكعبة ، لم يهج ، فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم ، قيل له : هو ضرورة ولا تهجه<sup>٤</sup> .

Grohmann, S. 249. ١

المفردات (١١٢) . ٢

Lidzbarski, Nord Semi. Epigra., S. 280, CIS., II, p. 350, G. A. Cooke, North ٣  
Semi. Inscriptions, Oxford, 1903, p. 79, Ency. Religi., 6, p. 753.

٤ تاج العروس ( ٣٣١/٣ ) ، ( صرد ) .

ولمكآنة الحرم في نفوس الجاهلین ولآنه موطن آمن من دخل فيه صار آمناً ، كان لا بد من تحدیده ووضع معالم تشير الى نهآيته ، إما بوضع أنصاب على أطرافه من تجاوزها الى داخله صار آمناً فلا يخاف على نفسه ، وإما ببناء حائل كجدار أو سياج أو أمثال ذلك ليكون إشارة الى حرمة ما وراءه في الداخل . وقد جعل أهل مكة حدود حرم البيت أنصاباً من تجاوزها الى الداخل صار في حرمة الحرم وفي حماية رب البيت .

وكانت أرض المعابد ، أي حرمها ، واسعة في الأصل ، ذات ماء وأشجار وحمى ، ثم تقلصت وضيقت وحددت بحدود ، بسكن الناس حولها، ويتقربهم من المعبد ، وبزيادة عدد عبآده . فعندما يتألق نجم معبد ، ويكثر المؤمنون بصاحبها، يكثر زواره ، ويتسابق الناس الى السكن بجواره والتقرب منه جهد امكانه ، إذ يكون ذلك شرفاً لهم . شرف مجاورة البيت ، كما يكون مكسباً ومورداً طيباً للآل ، لرغبة الزوار في مجاورة المعبد ، فيدفع هذا الطمع، أصحاب النفوذ والجاه على اختلاس الأرض والتجاوز على حدود الحرم فتضييق . كالذي حدث بمكة ، إذ كان الحرم واسعاً كبيراً ، يشمل الوادي كله ، فلما هبط (قصي) به وابتنى البيوت ، اعتدى من جاء بعده على الحرم حتى صغر ، مما دفع الخلفاء على شراء البيوت المجاورة وهدمها لاعادة أرضها الى الحرم ليتسع صدره للناس .

وتلحق بالمعابد أرضون ، يقال لها (حمى) لأنها في حماية الأرباب والأصنام ورعايتها ، فلا يعتدى عليها ، ولا يقطع شجرها ولا يرعى فيها ولا يسمح بصيد الحيوان فيها والاعتداء عليه في أرض الحمى<sup>١</sup> . فكان في الطائف (حمى) ، وهو (حمى اللات) ، وقد خصص به ، وكان حمى في جرش<sup>٢</sup> . بل كان وادي مكة الذي أقيم البيت به (حمى) لرب البيت ، ولم يكن يسمح لأحد قبل (قصي) بقطع شجره ، ولا التجاوز على ما فيه من نبت . وقد كان (قصي) كما يقول أهل الأخبار أول من اقتطع شجره ، وأقام البيوت لسكناه وسكنى قریش في ذلك الوادي .

ويفهم من كلام ( نيلوس ) Nilus أن العرب لم يكونوا يحيطون مواضعهم

١ اللسان ( ١٩٩/١٤ ) ، العرب في سوريا قبل الاسلام ( ١١١ ) .  
٢ Ency. Religi., 6, p. 753.

المقدسة التي فيها أصنامهم بأسوار ، وإنما كانوا يجعلون لحرمها حجارة تكون حدًا وعلامة للحرم . ويتبين من كلام هذا المؤرخ الذي أسر العرب ابنه وأرادوا تقديمه الى الزهرة قرباناً على حدّ قوله ، أنه قصد بالعرب الأعراب ، ولا سيما أعراب طور سيناء ، وقد كانوا أشداء غلاظاً يلقون الرعب في النفوس ، وكانوا يتاجرون بالرقيق يقبضون على من يقع في أيديهم ويبيعونه في أسواق الرقيق . وجاعة هذا شأنها لا تستقر في مكان ، لا يمكن بالطبع أن يكون لها معبد ثابت ، وإنما يكون معبدها الموضع الذي يوضع صنم القبيلة فيه . ولتعيين الأرض الحرام توضع تلك الحجارة .

إلا أن هذا لا يعني أن معابد أهل المدر كانت مسورة أو ذات حائل دائماً ، فقد ذكرت أن حرم بيت الله بمكة لم يكن مسوراً ، بل كان معلماً بأنصاب . ومكة موضع حضر . أما حرم معبد ( المقه ) بمأرب وكذلك أكثر معابد أهل اليمن ، فقد كانت مسورة بأسوار عالية قوية ، لها أبواب يدخل المتعبدون منها ، تفتح وتغلق كما نفعل هذا اليوم في دور العبادة عندنا .

ومن المعابد الشهيرة : ( البيت الحرام ) ، أي ( الكعبة ) بمكة ، وسأتكلم عليه في موضع خاص . ومعبد ( ذو الشرى ) Dushare بمدينة ( بطرا ) ، و ( كعبة سنداد ) ، و ( كعبة نجران ) ، ومعابد عديدة في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، ولا سيما اليمن .

والفضل في ظفرنا ببعض المعارف عن ( بيت الرب ) بمدينة ( بطرا ) ، يعود الى الكتابات النبطية ، والى ما كتبه بعض الكتبة اليونان والسريان عنه . وقد خصص هذا البيت بعبادة الإله ( ذي الشرى ) ، الذي هو ( رب البيت )<sup>١</sup> التي أطلقها النبط على إلههم ، تذكرنا بجملة أخرى معروفة في الجاهلية عند أهل مكة ، كما هي معروفة عند المسلمين حتى اليوم ، هي جملة : ( رب البيت ) ، التي تعني إله البيت ، وهو الكعبة ، وقد أقرها وثبتها الاسلام . وقد نعت ( رب البيت ) ، ( رب بيت ذي الشرى ) ب ( الذي يفرق الليل عن النهار )<sup>٢</sup> وهو نعت له أهمية كبيرة في تكوين فكرة عن وجهة نظر عباده اليه .

CIS, II, 235, RES, 1088.

RES, 1102, Ency. Religl., p. 122.

وقد نصب في هذا المعبد الصنم ( ذو الشرى ) على قاعدة مكسوة بالذهب ، في بيت موثى بالذهب وبالصور التي تمثل مشاهد تقديم القرابين اليه . وهو في موضع مرتفع على صخرة عالية ، يحج اليه الناس من مواضع بعيدة ، للتقرب الى ذلك الإله الذي يقابل الإله ( باخوس ) و ( ديونسيوس ) (Dionysos- Bacchus) في رأي الكتبة اليونان واللاتين<sup>١</sup> .

وكان لهذا المعبد حج يقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام ، فيفد اليه الناس من أماكن بعيدة للتقرب الى ( رب البيت ) ، فينحرون ويقضون الأيام المعينة ، ثم يعودون الى ديارهم . والظاهر ان هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل ( العربية النبطية ) ، انما كانت محجة لغيرهم من العرب ، كما يتبين ذلك من تصريحات بعض الكتبة ( الكلاسيكيين ) عنها .

وقد عرفت بعض معابد الجاهليين بـ ( الكعبات ) . ويدل ذلك على أن بناءها كان على هيئة مكعب كشكل بناء الكعبة ، وعلى أن العرب كانوا يبنون بيوت الأصنام الكبرى على هذا النحو . من هذه كعبة ( سنداد ) على ما يذكره الأخباريون ، وهي قصر كانت العرب تحج اليه فيطوفون حوله ، وقد عرف بـ ( الكعبات ) جمع كعبة وهو البيت المربع والمرتفع ، وبـ ( ذات الكعبات ) . و ( ذي الكعبات ) وكان مركز حج قبائل بكر بن وائل وإياد<sup>٢</sup> . ولكن الأخباريين لم يتحدثوا بشيء من التفصيل عن هذا المعبد وعن كفيته وشكله وعن الأصنام التي كانت فيه . وقد ذكر ( ابن الكلبي ) أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة ، إنما كان منزلاً شريفاً<sup>٣</sup> .

وذكر أن ( ذات الكعبات ) بيت كان لبكر وتغلب ابني وائل وإياد، وذكر أنه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به . وذكر أنه كان لإياد ، وكان كعبة

١ Ency. Religi., 9, p. 122, Epiphantus, Hoer., LI, 22.

٢ البلدان ( ١٥٠/٥ ) ، « سنداد » ، ( ٢٥٥/٧ ) ، اللسان ( ٧١٨/١ ) ، ( كعب ) ، تاج العروس ( ٤٥٦/١ ) وما بعدها ، Ency., II, p. 590.

٣ الاصنام ( ص ٤٥ ) ، « وكان لربيعة بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات . وقيل : ذا الكعبات ، وقد ذكره الاسود بن يعقوب في شعره ، فقال : والبيت ذي الشرفات من سنداد » .

اللسان ( ٧١٨/١ ) ، ( كعب ) .

بسنداد بين الحيرة والابلة<sup>١</sup> . وهو من منازل إياد أسفل سواد الكوفة ، وكان عليه قصر تحج العرب اليه<sup>٢</sup> .

وكان بنجران بيت عبادة عرف بـ ( كعبة نجران ) . وهو بناء بُني على هيئة الكعبة . وفي رواية تنسب لابن الكلبي انها كانت قبة من آدم من ثلاث مئة جلد ، كان اذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفداً رقد<sup>٣</sup> . ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها ومن كونهم أساقفة انها كانت بيعة أسسها النصارى في مركز النصرانية في اليمن ، وهو موضع نجران ، وانه لا علاقة له بالوثنية . ويذكر الأخباريون ان بني عبد المدان ابن الديان الحارثي أقاموها هناك ، مضاهاةً للكعبة<sup>٤</sup> . وقد ذكر ( ابن الكلبي ) ان كعبة نجران لم تكن كعبة عبادة ، وانما كانت غرفة يعظمها القوم من بني الحارث بن كعب<sup>٥</sup> . وبني الحارث بن كعب هم رؤساء نصارى نجران .

وذكر بعض أهل الأخبار ان كعبة نجران وكانت للمدحج وبني الحارث بن كعب ، عرفت بـ ( الربة )<sup>٦</sup> .

وقد ذكر ( ابن الكلبي ) ان رجلاً من جهينة يقال له عبد الدار بن حديب أراد بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء ليضاهي به الكعبة حتى يستميل به العرب ، فأعظم قومه ذلك ، وأبوا عليه<sup>٧</sup> . ونجد في كتاب ( الأصنام ) لابن الكلبي ، وفي كتب أهل الأخبار أسماء مواضع ذكر انها كانت بيوت عبادة حج إليها العرب حجهم لمكة . وذكر ان قريشاً بنتت للعزى بيتاً بوادي حراض بإزاء الغمير ، وحت له شعباً من وادي حراض يقال له سقام ، يضاؤون به

- 
- ١ تاج العروس ( ٤٥٧/١ ) ، ( كعب ) ، الاصنام (٤٥) ، البلدان ( ١٤٩/٥ ) .
  - ٢ تاج العروس ( ٣٨٣/٢ ) ، ( سند ) .
  - ٣ البلدان ( ٢٦٢/٨ ) وما بعدها ، تاج العروس ( ٥٥٦/٣ ) ، ( نجر ) .
  - ٤ البلدان ( ٢٦٢/٨ ) .
  - ٥ الاصنام ( ص ٤٥ ) .
  - ٦ تاج العروس ( ٢٦٢/١ ) ، ( ربة ) ، قال الاعشى :  
وكعبة نجران حتم عليك حتى تناجي بأبوابها  
يزور يزييد وعبد المسيح وقيسا هم خير أربابها
  - ٧ تاج العروس ( ٥٥٦/٣ ) ، ( نجر ) .  
الاصنام (٤٥) .

الكعبة ، وقد حجت اليه ، وكانت تنحدر عنده ، ويتقربون الى العزى بالذبايح<sup>١</sup> .  
وقد ذكر الأخباريون أنه كان بعكاظ صحخور يطوف الجاهليون بها ويحجون  
اليها<sup>٢</sup> . وإذا تذكرنا ( دومة الجندل ) ومعبدها الكبير ، فلا يستبعد أن تكون  
الأسواق الأخرى مواضع مقدسة قديمة كانت محجة للناس عامرة تفقد اليها القبائل  
في موسم الحج ، ثم فقدت خطورتها قبيل الإسلام ، ولم يبق عليها إلا طابع  
الأسواق التجارية .

وتكون في المعابد مواضع يلقي فيها العباد وأصحاب النذور هداياهم ونذورهم  
التي يتقربون بها الى آلهة المعبد . وقد أشار أهل الأخبار الى وجودها في الكعبة  
وفي المعابد الجاهلية الأخرى . ويظهر من وصفهم لها أنها كانت على شكل حفر ،  
تلقي فيها تلك الهدايا والنذور . فذكر الأخباريون أنه كان على يمين الداخل الى  
البيت ( جب ) ، اتخذ خزانة للبيت يلقي فيه ما يهدي الى الكعبة ، وهو الجب  
الذي نصب عليه عمرو بن لحي ( هُبَل ) وهو صنم كانت قریش تعبد . وقد  
عرف علماء اللغة الجب بأنه البئر<sup>٣</sup> ، ووصفها ( الأزرقى ) ، فقال : إنها كانت  
في جوف الكعبة على يمين من يدخلها ، وكان عمقها ثلاث أذرع ، وان اسمها  
( الأخشف ) ، وكانت العرب تسميها ( الأخشف )<sup>٤</sup> .

#### السقاية :

وفي المعابد سقايا ، يستقى منها الماء للشرب وللتطهر ، كأن تغسل الأوجه  
والأيدي والأرجل بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد ، أو لتحل له إقامة الشعائر  
الدينية . ويعد الماء ماءً مقدساً ، لأنه من أرض مقدسة ، ولذلك يتبرك به أيضاً ،  
ويستشفى بالشرب منه . وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في  
حرم المعابد ، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم ،

- ١ الاصنام (ص ١٦ ، ١٨ وما بعدها) .
- ٢ البلدان ( ٢٠٣/٦ ) ، المشرق ، السنة ٣٧ ، نيسان - حزيران ، ١٩٣٩ م  
( ص ٢٢٠ ) .
- ٣ اللسان ( ٢٥٠/١ ) « صادر » .
- ٤ أخبار مكة ( ٢٧/١ ، ٦٨ ) ، البلدان ( ٢٥٨/٧ وما بعدها ) .

وعند أدايتهم الشعائر الدينية . ويثر زمزم ، هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية .

وقد كانت سقاية الحاج من المآثر الكبيرة عند أهل مكة، وهي تسقية الحاج من الزيب المنبوذ بالماء . وكان يليها في أيام الرسول العباس بن عبد المطلب . وكان بعضهم يسقي الحاج اللبن بالعسل .

### المذابح :

وتلحق بالمعابد مذابح تذب عليها القرابين التي يتقرب بها المؤمنون الى آلهتهم، ويقال للواحد منها ، ( مذبح ) و ( نصب ) و ( مصب ) و ( غيب ) . وقد وردت لفظة ( مذبح ) و ( مذبحت ) ، أي ( المذبح ) ، في طائفة من الكتابات . وهي مواضع الذبج ، حيث يكون تقرب القرابين الى الآلهة .

وقد ذهب علماء اللغة مذاهب في تحديد معنى ( النصب ) ، فرأى بعضهم ان النصب كل ما عبد من دون الله ، وذهب بعض آخر الى ان النصب صنم أو حجر كانت الجاهلية تنصبه ، وتذب عنده ، فيحمرّ للدم ، وذهب آخرون الى ان الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب ، ويذب عليها لغير الله تعالى<sup>١</sup> . وعرفها بعضهم بقوله : « النصب الأوثان من الحجارة ، جماعة أنصاب كانت تجمع في الموضع من الأرض ، فكان المشركون يقربون لها وليست بأصنام » ، « قال ابن جريج : النصب ليست بأصنام . الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب ثلاثمائة وستون حجراً . منهم من يقول ثلاثمائة منها بنحزاعة . فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة . فقال المسلمون : يا رسول الله ؟ كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فنحن أحق ان نعظمه »<sup>٢</sup> . ولو أخذنا برواية ( ابن جريج ) ، خلصنا الى ان هذه

١ اللسان ( ٣٩٢/١٤ ) ، ( سقى ) ، الاصابة ( ٢٦٣/٢ ) ، ( رقم ٤٥٠٧ ) .  
٢ اللسان ( ٧٦٠/١ ) « صادر » ، ( ٢٥٩/٢ ) « بولاق » ، القاموس ( ١٣٢/١ ) ،  
تاج العروس ( ٤٨٦/١ ) ، الاصنام ( ٩٧ ) ، تفسير الطبري ( ٤٤/٦ ) ، الاصنام  
( ٣٣ ) ، ( المطبعة الاميرية ١٩٦٤ ) .  
٣ تفسير الطبري ( ٤٨/٦ ) .

الأنصاب ، كانت بعدد أصنام الكعبة ، اي انهم كانوا قد خصصوا بكل صنم نصباً ، يذبحون عليه ما يتقربون به اليه من عتائر . فقد كان عدد أصنام الكعبة ثلثمائة وستون حجراً عام الفتح على ما يذكره أهل الأخبار ، إلا اذا اعتبرنا ما ذكروه عن عدد الأصنام وهماً ، وأخذنا برواية ( ابن جريج ) التي هي دون الرواية الأخرى في الشهرة والذكر .

وأشير الى ( النصب ) في شعر ينسب الى ( الأعشى ) ، يقال إنه قاله في مدح الرسول . هو :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعاقبة والله ربك فاعبدا<sup>١</sup>

وعلى كل ، فنحن لو أخذنا بالروایتين ، أو برواية واحدة منها ، فإن العدد ( ٣٦٠ ) يلفت النظر حقاً . فلم خصص رواة الخبرين عدد الأصنام أو الأنصاب بهذا الرقم ، وهل يمثل ذلك شيئاً له صلة بالفلك ، أو بأسطورة دينية قديمة كانت عند أهل مكة ؟

وقد وردت كلمة ( النصب ) في آية اللحوم المحرمات التي لا يجوز أكلها في القرآن الكريم : « حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ، إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب »<sup>٢</sup> . فجعلت الذبائح التي تذبح على النصب للأصنام في جملة التي لا يحل للمسلم أكلها ، فيفهم من هذه الآية أن النصب مواضع تذبح عليها القرابين . كما وردت في موضع آخر من سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . فاجتنبوه »<sup>٣</sup> . وقد ذكر علماء التفسير ، أن الأنصاب التي يذبحون عندها<sup>٤</sup> .

وقد ذكر علماء التفسير ، ان أهل الجاهلية كانوا قد وضعوا حول الكعبة

- 
- ١ تاج العروس ( ٤٨٦/١ ) ، ( نصب ) .
  - ٢ المائدة ، الآية ٣ .
  - ٣ المائدة ، الرقم ( ٥ ) ، الآية ٩٠ .
  - ٤ تفسير الطبري ( ٢١/٧ ) .

أنصاباً ، أي حجارة كانوا يذبحون عليها ، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم : وجعلوه على الحجارة . وكانوا يبدلونها إذا شاؤوا بحجر هو أحب اليهم منها<sup>١</sup> . كما كانوا قد وضعوا الأنصاب في بيوت الأصنام الأخرى ، يذبحون عليها ذبائحهم لها . وقد أشير الى ( المائرات ) ، أي الدماء : دماء الذبائح لـ ( رشيد بن رميض العتري ) :

حلفت بمائرات حول عوض وأنصار تركن لدى السعير<sup>٢</sup>

و ( عوض ) صنم لبكر بن وائل ، و ( السعير ) صنم لعنزة خاصة .  
و ( نصب ) هي ( نصب ) و ( مصب ) في اللهجات العربية الجنوبية ،  
و ( نصب ) و ( مصبت ) في الفينيقية ، و ( مصبه ) Maseba في العبرانية .  
ويراد بها مذبح ، تذبح عليها القرابين والضحايا التي يقدمها المتعبدون الى معبودهم Deity . ويعرف بـ Altar أي مذبح في الانكليزية . وهو من حجر واحد في الأصل ، قد يذبح عليه ، فيسيل الدم فوقه ويتلطح به ، وقد يكون في نظرهم بمثابة المعبود الذي تقدم الضحية اليه . وقد يذبح عليه ، فيسيل الدم من فتحة تكون فيه الى بئر تتجمع فيها دماء الذبائح ، تكون عند قاعدة النصب .  
وقد تخصص المذابح بحرق لحم الذبيحة كله أو بعضه عليها ، تقريباً الى الأصنام ، كالذي كان يفعله العبرانيون<sup>٣</sup> .

وقد عثر المتقنون على أحجار عديدة اتخذت أنصاباً للذبح القرابين عليها أو عندها ، عثر عليها في العربية الجنوبية بصورة خاصة . وفي بعضها فتحة على هيئة ثقب تسيل منه دماء القرابين الى موضع تتجمع فيه . وفي بعض آخر مسابيل جانبية ، تسيل الدماء منها الى الخارج . وهذه الأنصاب هي ( مذابح ) ويقال للواحد منها ( مذبح ) في العرييات الجنوبية أي ( مذبح ) . ولذبح القرابين ( ذبح ) و ( ذبحم ) ، أي ( الذبح ) و ( ذبح ) .

١ تفسير الطبري ( ٤٨/٦ وما بعدها ) ، « وهي أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها للأصنام » ، ارشاد الساري ( ١٧٢/٦ ) .  
٢ تاج العروس ( ٢٦٨/٣ ) ، ( سعر ) ، ( ٥٥٠/٣ ) ، ( مور ) .  
٣ Hastings, p. 23.

فالنصب اذن ، الأحجار التي تذبح عليها القرابين وما يهل للأصنام . والعادة أن تكون أمام الصنم ، وعلى مقربة منه . فإذا ذبح القران سال دمه على النصب الى ثقب يؤدي الى حفرة يتجمع فيها الدم . هي ( الغبغ ) . و ( النصب ) هو ( مصبه ) Masebah في العبرانية ، حيث كانوا يذبحون عليها القرابين . ولكثرة ما كان يذبح عليها صارت تبدو حمراء من لون الدم ، وقد أشير الى الحمرة في حديث اسلام ( أبي ذر الغفاري ) ، إذ ذكر أنه وصف تعذيب قريش له بقوله : « فرماني الناس حتى كأني نصب أحمر »<sup>١</sup> .

وليس لأهل الأخبار رأي واحد في ( الغبغ ) ، وإنما ذهب بعضهم الى أن الغبغ هو المنحر ، وذهب بعض آخر الى أنه خزانة المعبد ، يلقي الناذرون فيها ما عندهم من نذور وقربات ، وذهب فريق آخر الى أنه بيت كان الناس يحجون اليه ، كما يحج الى البيت بمكة<sup>٢</sup> . وقيل إنه كان لمعتب بن قيس بيت يقسال له غبغ ، كانوا يحجون اليه<sup>٣</sup> .

والذي عليه أكثر أهل الأخبار أن ( الغبغ ) المنحر . وقد صرح بذلك ( ابن الكلبي ) في كتاب ( الأصنام ) : وهو يتحدث عن ( العزى ) ، فقال : « ولها منحر ينحرون فيه هداياها ، يقال له الغبغ »<sup>٤</sup> . كما صرح علماء اللغة إذ عرفوا الغبغ بأنه المنحر ، أو نصب كان يذبح عليه في الجاهلية ، أو كل مذبح تبنى . وقد خصصه بعضهم بمذبح منى<sup>٥</sup> : أو هو حجر ينصب بين يدي صنم ، وكان لمناف مستقبل ركن الحجر الأسود غبغ ، وقيل كانا اثنين . ويظهر من شرح علماء اللغة للمثل : ( رب رمية من غير رام ) ، ينسب قوله الى الحكم بن عبد غوث أن الغبغ هو المذبح ، أي المنحر الذي ينحر عليه<sup>٦</sup> .

- ١ الاصابة ( ٩٣/٤ ) ، ( الرقم ٣٨٤ ) ، « فخرت مغشياً علي ، ثم ارتفعت كأنني نصب أحمر » ، الاصنام ( ١١١ ) .
- ٢ مراصد الاطلاع ( ٩٨٣/٢ ) ، البلدان ( ١٨٥/٤ ) ، اللسان ( ٦٣٧/١ ) ، تاج العروس ( ٤٠٣/١ ) ، البلدان ( ١١٢/٦ ) ، الاصنام ( ١١١ ) ، ابن هشام ( ٥٥/١ ) .
- ٣ ابن هشام ( ٥٥/١ ) ، البلدان ( ١١٢/٦ ) .
- ٤ الاصنام ( ١٤ ) « روزا » .
- ٥ اللسان ( ٦٣٧/١ ) .
- ٦ اللسان ( ٦٣٧/١ ) « صادر » ، ( ١٢٨/٢ وما بعدها ) « بولات » ، تاج العروس ( ٤٠٣/١ ) ، ( غب ) ، البلدان ( ٢٦٥/٦ ) ، ( الغبغ ) .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن (بيوت) الآلهة انه كان لكل (بيت) (غيب) ، تذبج فيه هداياها ، أي ما يهدى الى تلك البيوت من قرابين . وقيل : الغيب : المنحر ، وهو جبيل بمنى ، فخصص . وقيل كل منحرج بمنى غيب . قال الشاعر :

### والراقصات الى منى فالغيب<sup>١</sup>

ويذكر علماء اللغة ان (الغيب) (الععب) كذلك<sup>٢</sup> . وان الععب موضع الصنم . وصنم لقضاة ومن داناها<sup>٣</sup> . وبيت كان لمعتب بن قيس ، كانوا يحجون اليه كما يحجون الى البيت<sup>٤</sup> . ويظهر من هذا الشرح ان (الغيب) و (الععب) ، كلمة واحدة ، لشيء واحد .

و (الغيب) (الجب) كذلك . وهو حفرة يجمع فيها دم البدن ، والجمع (الجباجب) . قال «الزبير بن بكتار : الجباجب جبال مكة حرسها الله تعالى ، أو أسواقها أو منحرج . وقال البرقي ، «حفر» بمنى كان يلتقى به الكروش ، أي كروش الأضاحي في أيام الحج ، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا ، والعرب تعظمها وتفخر بها»<sup>٥</sup> .

ويقوم أحياناً ان (الغيب) ، حفرة أو بئر ، كان المتعبدون للأصنام يرمون بها نذورهم وهداياهم وما يتقربون به الى أصنام من نذور نفيسة ، من ذهب أو فضة أو حجارة كريمة . فكانت تحت صخرة (اللات) حفرة عرفت ب (الغيب) حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم الى الصنم . فلما هدم الصنم أخذت من الغيب تلك الأموال<sup>٦</sup> . ويرادف الغيب (الجب) ، الذي يقال له (الأخسف) و (الأخشف) ، وهو بئر في جوف الكعبة نصب (هبل) عليه . كان الناس يرمون فيها نذورهم وهداياهم . وتقع على يمين من يدخل البيت ، وكان عمقها ثلاث أذرع<sup>٧</sup> .

- ١ تاج العروس (٤٠٤/١) ، (غيب) .
- ٢ تاج العروس (٤٠٣/١) ، (غيب) .
- ٣ تاج العروس (٣٦٣/١) ، (عب) ، البلدان (١١٢/٦) ، الاصنام (١١١) .
- ٤ البلدان (١٨٥/٤) .
- ٥ تاج العروس (١٧٤/١) ، (جب) .
- ٦ الطبري (٩٩/٣) وما بعدها .
- ٧ أخبار مكة ، للزرقي (٦٦/١) وما بعدها .

و ( الغري ) مذبح على ما يظهر من تفسير علماء اللغة لهذه اللفظة . يظهر أنه كان صخرة تذبج عندها الذبائح وتطلى بدمها ، أو نصب تذبج القرابين عليه <sup>١</sup> . ويعبر عن المذبح الذي تذبج عليه الحيوانات الكبيرة، مثل البقر بلفظة (حردن) <sup>٢</sup> . ومن الألفاظ التي تطلق على المذبح ، ( منطف ) و ( منطفت ) ، أي ( المنطفة ) ، وهي المذبحة <sup>٣</sup> . والمذبح ، هو ( مذبحت ) في نصوص المسند ، أي موضع الذبج .

### المحارق :

وتلحق بالمعبد محارق ، تحرق فيها القرابين ، يقال لها ( مصرب ) <sup>٤</sup> . وقد كان العبرانيون يحرقون قرابينهم ، في محارق تلحق بالمعبد ، وتكون جزءاً منه . أما العرب ، فإننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا يحرقون قرابينهم في كل جزيرة العرب ، لأننا لا نملك أدلة آثارية على ذلك ، إلا معابد اليمن واعيالي الحجاز ، حيث عثر على آثار المحارق في معابدها، مما يدل على أنهم كانوا يحرقون القرابين. و ( المصرب ) ، المحرقة ، الموضع السندي يحرق به الخشب ذي الرائحة الطيبة أو البخور ، وهو مبخرة ، تكون في المعابد ، يحرق بها ، لتفوح منها روائح طيبة ، أثناء العبادة . وقد أشير إليها في نصوص المسند .

### البخور والمباخر :

وللتبخير شأن كبير في أداء الفروض في المعابد ، إذ لا بد من حرق البخور فيها ، فيبخر بها المذبح والأصنام كما يبخر القائمون بأداء تلك الفروض . وتسمى المبخرة بـ ( مسلم ) ، وبـ ( مقطر ) وذلك في لغة بعض الجاهليين <sup>٥</sup> .

- |   |   |
|---|---|
| ١ | اللسان ( ١٢٢/١٥ ) ، ( غرا ) ، تاج العروس ( ٢٦٤/١٠ ) . |
| ٢ | Grohmann, Arabien, S. 247.                            |
| ٣ | Grohmann, Arabien, S. 249.                            |
| ٤ | Grohmann, Arabien, S. 247.                            |
| ٥ | Grohmann, Arabien, S. 247.                            |

و ( المجرمة ) والمجرم ، الموضع الذي يوضع فيه الجمر بالدخنة للتجدير<sup>١</sup> .  
وقد أشير الى المجرمات والمباخر في كتابات المسند . وعثر المنقبون على نماذج  
منها ، قدمها الناذرون نذوراً الى آلهتهم ، وقد وضعوها في معابدها ، وهي في  
جملة الهدايا المرموقة التي تقدم الى المعابد بعضها من أحجار وبعضها من معدن  
بذل جهداً في صنعه وفي زخرفته حيث يكون هدية قيّمة تكون خليقة بوضعها في  
المعابد .

وقد كان الناس يأتون بالمجامر ليجمّروا بها الكعبة تقرباً بعملهم هذا الى  
الأصنام ، وذكر ان حريقاً أصاب الكعبة ، بسبب تطاير شرر من مجمر امرأة  
جمرت البيت ، فأصاب ستار الكعبة ، فاحترق . والتجدير ، هو من شعائر  
التقدير والتعظيم . وهو مما يدخل في الطقوس ، وقد صرفت المعابد القديمة أموالاً<sup>٢</sup>  
على شراء (العود) وغيره لاحتراقه في المجامر ، لتطيب المذبح والمعبد به . وكان  
البخور مما يبخر به في المعابد أيضاً . وقد استعمله الجاهليون في بيوتهم المعظمة  
كذلك .

وتلحق بالمعابد مواضع يخزن فيها ما يقدم الى المعبد من هدايا ونذور ، وما  
يرد اليه من غلات أوقافه . واذا كانت النذور والهدايا ماشية ، فقد تحفظ في  
مواضع بعيدة عن المعبد، أو توضع في احياء المعابد لترعى بها . ولا يجوز التعرض  
لها بسوء . وتعلم بعلامات تشير الى أنها مما حبس على الأصنام . وكانت لهبل  
خزانة للقرايين . وكان قربانه مئة بعير ، وله حاجب يقوم بخدمته<sup>٣</sup> . وفي جملة  
ما أهداه الناس الى أصنامهم السيوف والملابس ، وكانوا يعلقونها أحياناً على  
الأصنام<sup>٣</sup> .

### سدنة الآلهة :

ولبيوت العبادة سدنة وحجبة وخدم ، يقومون كلهم بخدمة البيت وما فيه من  
أصنام . ويعبر في عربيتنا عن الذي يتولى أمر الصنم ب ( السادن ) و ( سادن الصنم ) .

١ تاج العروس ( ١٠٨/٣ ) ، ( جمر ) .  
٢ الازرقعي ، أخبار مكة ( ٦٨/١ ) وما بعدها ) .  
٣ نهاية الارب ( ١٩/١٦ ) .

وهو المسؤول عن الصنم أو الأصنام ، ومتولي أمرها . وهو المرجع الأعلى في سلسلة الرتب بالنسبة الى المعابد . ويعبر عنه بلفظة (شوع) في المعينية<sup>١</sup> ، وبلفظة أخرى هي ( رشو ) . وأما إذا كان السادن امرأة ، فيقال لها ( رشوت ) ( رشوة ) عندئذ<sup>٢</sup> .

ويقال لسادن الآلهة ( افكل ) ( أفكل ) في اللحيانية . جاء ( افكل لت ) ( أفكل لات ) أي ( سادن اللات )<sup>٣</sup> . وتقابل هذه اللفظة لفظة ( ابكلو ) Apkallu في اللغة الأكادية<sup>٤</sup> .

وتعد السدانة من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة عند الجاهليين . ويبد السادن في العادة مفتاح بيت الصنم أو الأصنام . وتكون وراثية في الأغلب تنتقل في أفراد العائلة من الأب الى ابنه الأكبر أو الى غيره من البارزين في الأسرة . وهي منزلة شرف ، تكسب صاحبها جاهاً ، كما تكسبه مالاً ، لما تأتي به اليه من حبوس ونذور وقرابين . لذلك صارت سبباً لوقوع خصومات بين الأسر ، من أجل الاستحواذ عليها ، كالذي حدث مراراً في مكة من أجل الحصول على مفاتيح البيت .

وسدنة الأصنام في الجاهلية قومتها وحجباها ، وكانت السدانة واللواء بمكة لبني عبد الدار في الجاهلية ، فأقرها النبي لهم في الإسلام . فكان اليهم أمر مفتاح البيت<sup>٥</sup> .

ومن قداماء من كانت اليهم ولاية أمر البيت الحرام أي سدانته ، رجل زعموا انه ولي أمر البيت بعد جرهم ، ودعوه ( وكيع بن سلمة بن زهير ) ( زهر ) ( الإيادي ) . جعلوه سادناً ، وجعلوه كاهناً ، فنسبوا اليه سجعماً من نوع سجعم الكهان . ذكر انه جمع إياداً قبيل وفاته فنصحها وأوصاها . وزعم انه بنى صرحاً بمكة ، وجعل فيه سلماً كان يرقاه ليناجي الله . وكان الجاهليون يرون انه صدّيق

١ راجع النص رقم ٤ و ٥ من كتاب : نقوش .خربة معين .

٢ Grohmann, Arabien, S. 248.

٣ Grohmann, Arabien, S. 82, Jaussen-Savignac, Mission, II, 506.

٤ Grohmann, Arabien, S. 248.

٥ تاج العروس ( ٢٣٣/٩ ) ، ( سدن ) .

من الصديقين ، وانه ينطق بالخبر اليقين من السماء . وذكر انه صاحب الصرح المعروف بمجزورة مكة ، وانه هو القائل : « اسمعوا وصيتي : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فرفضوه ، وكل شاة معلقة برجلها » . فكان أول من قال هذه الكلمة ، فذهبت مثلاً<sup>١</sup> .

ويذكر أهل الأخبار انه لما مات وكيع ، نعي على الجبال . وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادي :

ونحن إياد عباد الإله ورهط مناجيه في سلم  
ونحن ولاة الحجاب العتيق زمان النخاع على جرهم

ويفسرون زمان النخاع بأنه داء يقال له النخاع ، سلط على جرهم ، فأفنى منهم ثمانين كهلاً في ليلة واحدة ، سوى الشباب . وفي هذا الداء قال بعض العرب :

هلكت جرهم الكرام فعلاً وولاية البنية الحجاب  
نخعوا ليلة ثمانين كهلاً وشباباً كفى بهم من شباب<sup>٢</sup>

ويظهر ان داء<sup>١</sup> كان قد تفشى في عهد غير بعيد عن الاسلام بين جرهم ، فبقيت ذكراه في النفوس . ولا بد ان يكون ( وكيع بن سلمة ) ممن عاشوا قبيل الاسلام أيضاً ، فبقيت ذكراه في أهل مكة ، وإلا لما حفظت الذاكرة اسمه .

وقد ذكر أهل الأخبار أحياناً أسماء الأسر التي تولت سدانة البيوت المعظمة والمحجيات ، كما ذكروا أسماء السدنة ، ولا سيما السدنة الذين كانت اليهم سدانة تلك البيوت عند ظهور الاسلام . وهم من أسر عريقة ، توارثت هذا المنصب من عهد بعيد ، وحافظت عليه ، وصارت بذلك من أشرف القوم .

١ المحبر (ص ١٣٦) ، الامثال ، للميداني (٨١/٢) ، البيان والتبيين (١٠٩/٢) ، بلوغ الارب (٢٦٠/٢) .  
٢ بلوغ الارب (٢٦٠/٢) وما بعدها .

## حرمة المعابد :

ومع الحرمة التي كانت للمعابد ، انتهك المستهترون وذوو الحاجة حرمتها ، فسرقوا ما تمكنوا عليه من خزائنها . فقد سرقت خزانة الكعبة مراراً . ذكر أهل الأخبار أن سارقاً سرق من مالها في زمن جرهم ، وأنه دخل البئر التي فيها كثرها ، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها وانتزع المال منه . وسرقت قبيل بنيانها في أيام الرسول ، سرقها فتيان من فتیان قريش وأودعوا المال عند (دويك) مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة . فقطعت قريش يده<sup>١</sup> .

١ الروض الانف ( ١٣٠/١ ) .

## الفصل الرابع والسبعون

### الكعبة

وكعبة مكة ، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم ، من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية . فقد اندثر أثر الكعبات الأخرى وزالت معالمها ، ولم يبق لها مكان . وإلى الإسلام يعود ولا شك فضل بقاء ( البيت الحرام ) . وبفضل الإسلام أيضاً جمع العلماء ما تمكنوا من جمعه من تاريخ المدينة القديم والمعالم المتصلة بها ، ومن أختار قریش ، لما لهذا التاريخ من صلة بظهور الإسلام .

ويذكر أهل الأخبار أن الكعبة كانت معروفة عند العرب خارج الحجاز كذلك ، وأنهم كانوا يحجون إليها ويقدمونها ويقسمون بها . وأن ممن أقسم بها وذكر البيت

- 
- ١ آل عمران ، الآية ٩٦ ، تفسير الطبري ( ٦/٤ وما بعدها ) ، ( دار المعارف ) ، الطبرسي ( ٤٧٦/٢ ) ، سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري ( ٤٧/٣ وما بعدها ، ٦٦ وما بعدها ) ، تفسير الطبرسي ( ٧٨/٧ وما بعدها ) ، سورة ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري ( ١٣/١٥٢ ) ، روح المعاني ( ١٣/٢١٢ ) ، تفسير الطبرسي ( ٦/٣١٧ وما بعدها ) ، البقرة ، الآية ١٢٧ ، تفسير الطبري ( ١/٥٤٦ ) ، تفسير الطبرسي ( ١/٢٠٦ ) ، البقرة ، الآية ١٥٨ ، تفسير الطبري ( ٢/٤٣ ) ، تفسير الطبرسي ( ١/٢٣٨ وما بعدها ) ، سورة المائدة ، الآية ٩٧ ، تفسير الطبري ( ٧/٧٦ وما بعدها ) ، تفسير الطبرسي ( ٣/٢٤٦ وما بعدها ) ، سورة الانفال ، الآية ٣٤ ، تفسير الطبري ( ٣/٢٣٨ ) ، تفسير الطبرسي ( ٣/٥٣٩ ) ، سورة الايلاف ، الآية ٣ ، تفسير الطبري ( ٣٠/٣٠٧ وما بعدها ) ، تفسير الطبرسي ( ١٠/٥٤٣ ) .

في شعره (زهير)<sup>١</sup> و (النابعة)<sup>٢</sup>. وقد عرفت ب (البيت العتيق) ، وب (البيت المعمور)<sup>٣</sup>. ورووا أن (عدي بن زيد العبادي) قصدها بقوله :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر المساجد الزارا

دعاها ( ذات الودع ) لأنه كان يعلق الودع في ستورها<sup>٤</sup> .

وقد أقسم بها شاعر جاهلي آخر ، هو ( عوف بن الأحوص ) إذ قال :

ولإني والذي حججت قريش محارمه وما جمعت حراء

وشاعر عامري آخر ، إذ قال :

فأقسم بالسذي حججت قريش وموقف ذي الحجيح الى لال<sup>٥</sup>

يريد بذلك مكة . وبمكة بيت الله .

ومعارفنا عن ( البيت الحرام ) ضئيلة ، وفي الذي يذكره أهل الأخبار عنه ما لا يمكن قبوله ولا الأخذ به ، لأنه لا يدخل في حدود التأريخ ، ولغلبة الطابع القصصي عليه . ثم إن بعضه يناقض بعضاً ، وفي بعضه تحيز وتعصب لبيت قرشي على بيت آخر . وحتى القسم الذي يتناول الأيام القريبة من الإسلام ، لا يخلو من اضطراب ومن تناقض ، وفيه شعر نحل على أناس ، أقحمت أسماءهم في قصص مكة ، لتثبته على طريقتهم في تثبيت الأخبار برواية شعر يتعلق بها .

ولم يعثر حتى الآن على كتابة جاهلية تكشف القناع عن تأريخ (البيت الحرام). ولذلك انحصر علمنا بتأريخه بما ورد في الموارد الاسلامية عنه .

وقد نص في القرآن الكريم ، على ان ابراهيم واسماعيل هما اللذان رفعوا القواعد من البيت « ولإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ،

- ١ فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرحهم ديوان زهير (١٥) ، الثعالبي ، تمار القلوب (١٦) .
- ٢ فلا ورب الذي قد زرتة حججا وما هريق على الانصاب من جسد (فلا لعمر الذي مسحت كعبته) في رواية أخرى، ديوانه (٢٥)، الثعالبي، تمار (١٧) .
- ٣ البلدان ( ٥٢١/١ ) ، ( بيروت ١٩٥٥ ) .
- ٤ تاج العروس ( ٥٣٤/٥ ) ، ( ودع ) .
- ٥ المحبر (٣١٩) ، شرح ديوان لبيد (٢١) .

وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود .  
 واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم  
 بالله واليوم الآخر . قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار  
 وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك  
 أنت السميع العليم <sup>١</sup> . وقد كان تأسيس البيت في ايام العرب الأولى ، في ايام  
 جرهم ، على روايات أهل الأخبار ، وفيهم تزوج . وفي عهده ظهر ماء بشر  
 زمزم <sup>٢</sup> .

ويذكر أهل الأخبار ان مكة حرم آمن ، لا يحلّ فيه قتال ، ولم يكن أهله  
 يقاتلون فيه ، وان أول بغى وقع فيه ، كان حرب وقعت بين ( بني السباق بن  
 عبد الدار ) وبين ( بني علي بن سعد بن تميم ) ، حتى تفانوا . ولحقت طائفة  
 من ( بني السباق ) بعك ، فهم فيهم . وقيل أول بغى كان في قريش : بغى  
 ( الأفايش ) ، وهم ( بنو أقيش ) من بني سهم ، بغى بعضهم على بعض ،  
 فلما كثر بغيتهم على الناس ، أرسل الله عليهم فأرة تحمل فتيلة ، فأحرقت الدار  
 التي كانت فيها مساكنهم فلم يبق لهم عقب <sup>٣</sup> .

وقد بقي البيت معبوداً مقدساً عند أهل مكة وعند غيرهم ، غير أن المشركين  
 حولوه الى بيت لعبادة الأصنام والأوثان والشرك حتى عام الفتح ، حيث أزال  
 الرسول عنه آثار الجاهلية ، وأمر بطمس معالم الوثنية . وصار حراماً آمناً خاصاً  
 بالإسلام لا يدخله مشرك ولا تطأ أرضه أقدم غير مسلم مؤمن بالله وبرسوله .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يعظمون البيت، وأن من سنن تعظيمهم  
 له ، أن من علا الكعبة من العبيد ، فهو حرّ لا يرون الملك من علاها ، ولا  
 يجمعون بين عزّ علوّها وذلّ الرقّ <sup>٤</sup> .

- ١ البقرة ، السورة رقم ٢ ، الآية ١٢٦ وما بعدها .
- ٢ الطبري ( ٢٧٥/١ ) ، قصص الانبياء ، ( ٦٩ ) ،  
 Shorter Ency. of Islam, p. 178. ff., Grünbaum, Neue Beiträge zu Sem.  
 Sogenkunde, S. 102, Goldziher, Die Richtungen der Islamischen Koran-  
 auslegung, S. 79, J. Harovitz, Koranische untersuchungen, S. 91.
- ٣ الروض الانف ( ٢٨/١ ) .
- ٤ الشعالي ، ثمار ( ١٨ ) .

وانهم لم يكونوا يبنون بناياتاً مربعاً بمكة تعظيماً للكعبة<sup>١</sup> . وأن أول من بنى بها بيتاً مربعاً ، ( بدليل بن ورقاء ) الخزاعي ، وهو أول من اتخذ بمكة روشناً ، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربع في البناء كيلا يشبه بناء الكعبة<sup>٢</sup> وأن أول من سقف بمكة سقفاً ( قصي بن كلاب ) ، وكان الناس قبل ذلك إنما ينزلون في العريش . وأن أول من بوب بمكة باباً ( حاطب بن بلتعة )<sup>٣</sup> .

و ( بدليل بن ورقاء ) ، هو ( بدليل بن ورقاء بن عبد العزى ) ، شريف كتب اليه النبي يدعوه الى الاسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة<sup>٤</sup> . فلو أخذنا برواية من قال انه كان أول من بنى بيتاً مربعاً بمكة ، وأول من اتخذ بها روشناً ، وجب جعل حدوث ذلك في ايام النبي ، أو بسنين قليلة قبل المبعث ، فهل يعقل ذلك ؟ والروشن الرف ، و ( الرشن ) الكوة ، من الألفاظ المعربة عن الفارسية<sup>٥</sup> .

وأما ( حاطب بن أبي بلتعة ) فهو ( حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن سلمة بن صععب بن سهل اللخمي ) ، حليف بني أسد بن عبد العزى ، من الصحابة ومن شهد بدرأ ، كان حليفاً للزبير ، وكان قد كتب كتاباً الى قريش يخبرهم بتجهيز رسول الله اليهم ، فضبط الكتاب قبل وصوله مكة ، واعتذر . فهو من الصحابة<sup>٦</sup> ، وذكر ان الرسول أرسله الى (المقوقس) صاحب الاسكندرية<sup>٧</sup> . فهل يعقل أن يكون أول من بوب باباً بمكة ، وقد كانت البيوت قبله بمكة منذ وجدت ، فكيف كان يدخل الناس اليها ، وقد رأينا قصصاً لأهل الأخبار يروونه عن امتناع (الحمس) عن دخول البيوت من أبوابها ، والحمس هم قريش وأهل مكة قبل دخول ( حاطب ) اليها !

ويذكر أهل الأخبار أن البيت قد تهدم مراراً ، وأن السيول قوضت قواعده عدة مرات ، لذلك لم يتمكن ( بيت ابراهيم واسماعيل ) من البقاء ، ولكن

- 
- ١ النعالي ، ثمار القلوب (١٦) .
  - ٢ صبح الاعشى (٤٢٦/١) .
  - ٣ صبح الاعشى (٤٢٦/١) .
  - ٤ الاشتقاق (٢٨٠) .
  - ٥ تاج العروس (٢١٦/٩) ، ( رشن ) .
  - ٦ الاصابة (٣٠٠/١) ، (١٥٣٨) ، المحبر (٧٢) .
  - ٧ المحبر (٧٦) .

الجاهليين حرصوا على المحافظة على أسسه وشكله وموضعه . ولإنهم كانوا بعد كل هدم أو تصدع يصيبه يحاولون إرجاعه الى ما كان عليه في أيام آبائهم وأجدادهم جهد امكانهم ، لا يحدثون فيه تغييراً ولا يدخلون على صورة بنائه تبديلاً .

و ( البيت الحرام ) بناء مكعب ، ولذلك قيل له ( الكعبة ) . وصفه أهل الأخبار، فقالوا كانت الكعبة قبل الاسلام بحمسة أعوام صنماً ، أي حجارة وضعت بعضها على بعض من غير ملاط ، فوق القامة ، وقيل كانت تسع أذرع من عهد اسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، وكان لها باب ملتصقة بالأرض . وكان أول من عمل لها غلقاً هو تبع<sup>١</sup> . ثم صنع ( عبد المطلب ) ، لها باباً من حديد ، حلاها بالذهب من ذهب الغزاليين . وهو أول ذهب حليت به الكعبة<sup>٢</sup> .

ووصف أهل الأخبار لها على النحو المذكور ، يجعلنا نتصورها وكأنها خربة بدائية بسيطة ، هي ساحة تكاد تكون مربعة أحيطت بجدار من أحجار رصمت بعضها فوق بعض من غير مادة بناء تمسك بينها ، تحط في فئتها الطيور وسباع السماء ، ولا يحول بين أرضها وبين أشعة الشمس المحرقة والأمطار التي تنزل على مكة أحياناً على شكل مياه خارجة من أفواه قرب ، أي حائل . لأنها في الواقع حائط من أحجار لا يزيد ارتفاعه على قامة إنسان .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من بنى جدار الكعبة ، ( عامر ) الجادر من الأزد . فقبل له : ( الجادر )<sup>٣</sup> . وكان أول من جدر الكعبة بعد اسماعيل<sup>٤</sup> . وأول تسقيف لها كان - كما يذكر أهل الأخبار - في التعمير الذي أجري عليها في النصف الأول من القرن السابع للميلاد ، وذلك قبل الاسلام بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . وسبب ذلك حريق أصابها - كما يزعمون - فقرروا إعادة بنائها ، واجتمعوا وعملوا رأيهم فكان قرارهم تسقيفها بخشب ، وقد أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب، وزعت في صفيين . وزادا فيها تسع أذرع ، فصارت ثماني عشرة ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد إليها إلا في درج أو سلم . ورفعوا من جدرانها التي بنوها بساف

١ الروض الانف ( ١٢٧/١ ) ، الطبري ( ٢٨٣/٢ وما بعدها ) .

٢ الروض الانف ( ١٠١/١ ) .

٣ ابن سعد ، طبقات ( ٦٤/١ ) ، ( صادر ) .

٤ الاشتقاق ( ٢٥ ) .

من حجر وساف من خشب ، حتى زادت على ما كانت عليه في الأصل<sup>١</sup> .  
وورد في الأخبار ان رسول الله لما دخل الكعبة عام الفتح ، قام عند سارية فدعا ،  
وفيه ست سوارٍ<sup>٢</sup> .

وذكر أهل الأخبار ، ان سبب بنيان الكعبة ، هو انها كانت رضة فوق  
القامة ، وانها كانت قد تصدعت حتى تداعت جدرانها وتساقطت أحجارها ،  
فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفرأ من قريش وغيرهم سرقوا كثر الكعبة ،  
وانما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، فأجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها<sup>٣</sup> .

ولم يكن هذا البناء الجديد بناءً فخماً ، كما يظهر من الوصف الوارد في كتب  
أهل الأخبار . كل ما فيه أنه غرفة سقفت الآن بخشب ، أقيم سقفيها على صفيين  
من أعمدة ، كل صف ذي ثلاثة أعمدة . وأما حيطانها ، فقد زيد ارتفاعها فصار  
ثمانى عشرة ذراعاً ، بعد أن كانت تسعم أذرع ، أو ارتفاع قامة أو أعلى من  
ذلك بقليل . وقد بنيت هذه المرة من مادة بناء قوية ، جعلت مدماكاً من حجارة  
ومدماكاً من خشب ، فكان الخشب خمسة عشر مدماكاً ، والحجارة ستة عشر  
مدماكاً . وجعلوا سقفيها مسطحاً له ميزاب ، يسيل منه ماء المطر . وهو على  
الجملة لا يقاس بشيء بمعابد العربية الجنوبية مثل معبد ( المقه ) بمدينة مأرب أو  
المعابد الأخرى التي تمكن الباحثون من الوقوف على أسسها ومعالمها ، من حيث  
مساحة البناء أو الفن أو الروعة والعظمة .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل  
من تجار الروم رمى البحر بسفينته الى الساحل الى ( الشعبية ) ، وهو مرفأ السفن  
من ساحل الحجاز ، وكان مرفأ مكة ، ومرسى سفنها قبل ( جلدة ) . فجاؤوا  
بالخشب الى مكة ، وكان بها نجار ( قبطي ) ، استعين به في تسقيف البيت بذلك  
الخشب . وذكر أن الذي سقف البيت عالج كان في السفينة ، يحسن النجارة اسمه

- ١ الروض الانف ( ١٢٧/١ وما بعدها ) ، الطبري ( ٢٨٣/٢ وما بعدها ) ، « دار  
المعارف » ، البلدان ( ٢٥٩/٧ ) ، ( الكعبة ) ، مروج الذهب ( ١٦٩/١ ) ، ( محمد  
محيي الدين عبد الحميد ) .
- ٢ صحيح مسلم ( ٩٧/٤ ) ، ( باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة  
فيها والدعاء في نواحيها كلها ) .
- ٣ الطبري ( ٢٨٣/٢ ) .

( باقوم ) . فجيء به مع الخشب، وسقف الكعبة . وقد سألهم عن كيفية تسقيفها هل يجعل السقف قبة أو مسطحاً ، فأمرؤة أن يكون مسطحاً ، فعمله على ما أمرؤه به <sup>١</sup> . ويذكرون أن قريشاً حين أرادوا بناء الكعبة أتى ( عبدالله بن هبل ابن أبي سالم ) ، ومعه مال ، فقال : دعوني أشركم في بنائها ، فأذنوا له فبنى الجانب الأيمن ، ف ( لبني كلب يد بيضاء في نصرتهم لقريش حين بنوا الكعبة ) <sup>٢</sup> . وصاحب هذا الخبر هو ( ابن الكلبي ) ، ولا استبعد أن يكون خبره هذا من وحي العاطفة نحو قومه الكليليين .

وذكر أن ( باقوم ) الرومي ، كان يتجر الى ( المنذب ) ، فانكسرت سفينته بالشعبية ، فخرجت اليه قريش فأخذوا خشبها . وقالوا له ابنها على بنيان الكنائس ، وقال لقريش : هل لكم أن تجروا عيري في عيركم ، يعني التجارة ، وأن أمدكم بما شتم من خشب ونجار ، فبتنوا به بيت ابراهيم <sup>٣</sup> .

ويذكر الأخباريون انه كان في بطن البيت قرنا كبش معلقان في الجدار تلتقا من دخلها يخلقان ويطيبان اذا طيب البيت ، وقد علق عليها معاليق من حلي كانت تهدي الى الكعبة . ويرمز القرنان الى قرني الكبش الذي ذبحه ابراهيم الخليل <sup>٤</sup> . وقد بقيا في الكعبة الى ايام ( عبدالله بن الزبير ) فاحترقا مع الكعبة <sup>٥</sup> .

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق، زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلت « في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحان ، شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين . فلما كان يوم فتح مكة ، دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، البيت ، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب ، فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب قبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست .. ووضع كفيته على صورة عيسى بن مريم وأمه عليها السلام ، وقال :

- 
- ١ الازرقعي ( ١٠٤/١ ) ، ابن هشام ( ١٣٠/١ وما بعدها ) ، ( حاشية على الروض الانف ) ، الروض الانف ( ١٣٠/١ ) .
  - ٢ ناج العروس ( ١٠٩/٤ ) ، ( بس ) .
  - ٣ الاصابة ( ١٤٠/١ وما بعدها ) ، ( رقم ٥٨٣ ) .
  - ٤ الازرقعي ( ١٠٠/١ ) .
  - ٥ القاسمي ، شفاء الغرام ( ١٩ ) .

أمح جميع الصور ، إلا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه . ونظر الى صورة ابراهيم ، فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام ، ما لابراهيم والأزلام <sup>١</sup> . وقد بقيت صورة عيسى بن مريم وأمه ، الى ايام عبدالله بن الزبير ، فلما تهدم البيت ، تهدمت الصورة معه <sup>٢</sup> .

وأعاد الجاهليون - كما يذكر أهل الأخبار - الصنم هبل الى مكانه ، نصبوه أمام (الغنخب) ، وأعادوا معه بقية الأصنام ، التي كانت تتعبد لها بعض القبائل . ووضعوا حول الكعبة أصناماً أخرى ، يجب أن تكون من الدرجة الثانية في المنزلة أي أصنام قبائل ضعيفة ، لذلك وضعت خارج البقعة المقدسة . وقد أوصلت الروايات عدة أصنام الكعبة عام الفتح الى ( ٣٦٠ ) صنماً ، كان بعضها منحوتاً من الحجارة ، وبعضها معمولاً من النحاس ، وبعضها قوارير ، وكان صنم خزاعة قوارير صفر . ولما دخل الرسول مكة ، أمر بها فأزيلت وحطمت ، فلم يبق من يومئذ بها صنم <sup>٣</sup> . وذكر ان النبي دخل مكة « وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً . فجعل يطعنها بعود كان بيده . ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » <sup>٤</sup> .

وذكر في بعض الروايات أن رسول الله بعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته دخل الكعبة فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها <sup>٥</sup> . وأنه لما طاف بالبيت وجد حولها أصناماً مشدودة بالرصاص ، فحطمت ، وأعظمها ( هبل ) صنم قريش <sup>٦</sup> .

ويتبين من الروايات الواردة عن بناء الكعبة وعن اختلاف أهل مكة وتشاحنهم وتنافسهم فيما بينهم على شرف وضع ( الحجر الأسود ) في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم ، وأنه كان أقدس شيء عندهم . وإلا لما اختلفوا

- ١ الاذريقي ( ١٠٤/١ وما بعدها ) ، السيرة الحلبية ( ٨٧/٣ ) ، ابن الاثير ( ١٠٥/٢ ) ، نهاية الارب ( ٣١٣/١٧ ) .
- ٢ الاذريقي ( ١٠٤/١ ) .
- ٣ السيرة الحلبية ( ١٤٤/١ ) ، ابن الاثير ( ١٠٥/٢ ) .
- ٤ صحيح مسلم ( ١٧٣/٥ ) ، « باب ازالة الاصنام من حول الكعبة » ، ارشاد الساري ( ٢١٠/٧ ) ، « باب وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً »
- ٥ الروض الانف ( ٢٧٤/٢ ) ، نهاية الارب ( ٣١٢/١٧ ) .
- ٦ الروض الانف ( ٢٧٦/٢ ) ، نهاية الارب ( ٣١٤/١٧ ) .

هذا الاختلاف على وضعه ، حتى ليتمكن أن يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة منزلة ، بدليل عدم ورود إشارة ما الى وقوع اختلاف بشأن إعادة صنم من تلك الأصنام الى مواضعها . ولو كانت الأصنام أقدس منه ، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع . وهذا التقديس الزائد يحملنا على التفكير في أسبابه وفي الميزة التي ميزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله . لقد ذهب ( ولهوزن ) إلى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية ، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه ، بل كانت بسبب هذا الحجر . لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته ، وهو الذي جلب القدسية للبيت ، فصار البيت نفسه مقدساً ، مقدساً في حد ذاته ، بحجره هذا الذي هو فيه ، ولعله شهاب ( نيزك ) ، أو جزء من معبود مقدس قديم<sup>١</sup> .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش ، لأنه يمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين ، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد<sup>٢</sup> .

ويلاحظ ان التقرب الى الأحجار في بيوت العبادة كانت شائعة بين الجاهليين . وقد ذكر ان في ( غيمان ) موضع عبادة وفيه ( حجر قححم ) ( حجر قاحم ) ( حجر قاحم ) ، وهو يشبه الحجر الأسود الذي كان يتقرب اليه الجاهليون في مكة . والحجر الذي كان في كعبة نجران وفي ( تسلال ) ، وفي مواضع أخرى عديدة ذكرها ( الهمداني ) . وقد عثر على مقابر جاهلية عديدة تبين للذين تقبوا فيها ان لها صلة بعبادة الأحجار ، وان تلك المقابر أقيمت عند موضع مقدس لوجود حجر مقدس فيه<sup>٣</sup> .

وقد كان الجاهليون يلمسون الحجر الأسود للتبرك به ، وهو مبني في جدار الكعبة ، فيكون اللمس بالطبع للجانب البارز منه . وبين موضع ( الحجر الأسود ) وباب البيت يكون ( الملتزم ) ، وفي الناحية الشمالية الغربية ( الحجر ) أو ( الحطيم ) .

Reste, S. 74. ١

المشرق : ( ١٩٤١ ) ، تموز - أيلول ، ( ص ٢٤٧ ) . ٢

Beiträge, S. 84. ٣

وكانت الجاهلية تتحالف وتحلف عنده<sup>١</sup> . ويقال للجهة التي فيها (الحجر الأسود) (الركن) . وذكر ان العرب في الجاهلية كانت تطرح بموضع الحطيم ما طافت به من الثياب ، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان ، فسمي الموضع حطيماً<sup>٢</sup> . وقد كانت الجاهلية تتحالف عند (الملتزم) بالأيمان ، وتدعو على الظالم ، وتعقد الحلف<sup>٣</sup> .

وذكر (اليعقوبي) ان الجاهليين كانوا قد وضعوا (إسافاً) و(نائلة)، داخل المسجد الحرام . وضعوا كل واحد منهما على ركن من أركان البيت ، فكان الطائف اذا طاف بدأ، بإساف فقبله وختم به . وذكر انهم نصبوا على الصفا صنماً ، يقال له (مجاور الريح) ، وعلى المروة صنماً يقال له (مطعم الطير)<sup>٤</sup> . وفي روايات أهمل الأخبار عن تزويق الكعبة بالصور ليس وغموض . وهي روايات عديدة ، يفهم من بعضها أن هذه الصور كانت بالزيت ، رسمت على دعائم السقف . ويفهم من بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متنقلة ، وأنها كانت معلقة على جدران البيت . ويفهم من بعض الروايات أن الرسول أمر فطمست معالم جميع الصور ، ويفهم من بعض آخر ، أنه استثنى منها صورة مريم وابنها عيسى ، وأنها بقيت كما ذكرت الى أيام عبدالله بن الزبير . فلما تهدم البيت : تهدمت الصورة معه . أما رسم شجر أو صور ملائكة أو أشباه ذلك في الكعبة ، فأمر لا اعتراض عليه ، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبدوثني ، يضم الأصنام . ولكن ما للوثنية والانبياء ، وما شأن الشرك بمريم وابنها وببقية الرسل حتى ترسم صورهم على جدران أو أعمدة البيت ؟ ثم هل كانت الكعبة مزوقة قبل هذا التزويق بالرسوم والصور ؟ وهل كانت هذه الصور من بقايا صور قديمة ؟ أم هي صور حديثة رسمت بعد أن أعادت قريش بناء البيت ؟ ورأيت ان هذه الصور هي من عمل عمال نصارى أراهم الروم الذين جلبهم أهل مكة مع (باقوم) بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للتجار معهم ولبناء الكعبة .

- 
- ١ تاج العروس (١٢٥/٣) ، (٢٥١/٨) ، اللسان (١٦٦/٤) ، (٢٩/١٥) ، البلدان (٢٢٣/٢) وما بعدها ، (١٩٠/٥) ، أخبار مكة ، للزركلي (٢٤٦) ، تاج العروس (٥٩/٩) ،
  - ٢ اللسان (١٣٩/١٢) ، (حطم) ، تاج العروس (٢٥١/٨) .
  - ٣ البلدان (١٤٦/٨) «الملتزم» .
  - ٤ اليعقوبي (٢٢٤/١) .

و ( باقوم ) كما يقول الاخباريون هو الذي أشرف على إقامة البناء وهندسته . وهو الذي سقف البيت وأقامه على عمد . ولا أستبعد ان يكون هو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم . وقد كان هؤلاء نصارى ، فرسموا على جدران البيت أو أعمدته صور قصص كتابي ، ومنه صور الانبياء ، للزينة والزخرف . لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الاصنام . ومن يدري ، فلعله رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها ، فلم يعترضوا لذلك عليه . أما طمس الاسلام لتلك الصور ، فللعلماء في ذلك كلام . وقد أشير إليه في كتب الحديث ، وأكثرهم على أن الرسول لم يستثن من ذلك الطمس صورة<sup>١</sup> .

وفي الحرم بئر ( زمزم ) ، وهناك مقام ابراهيم ، وبين زمزم ومقام ابراهيم كان موضع الذبح ، ذبح القرابين . ويرى ( ولهوزن ) احتمال كون موضع المقام هو المكان الذي كان الجاهليون يذبحون فيه<sup>٢</sup> .

ويرجع الاخباريون تأريخ بئر ( زمزم ) الى يوم بناء الكعبة وعهد اسماعيل . ويقال لها ( بئر اسماعيل ) أيضاً . وهي في الحرم في جهة الجنوب الشرقي من الكعبة في الجهة المقابلة للركن . ولا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ويظهر من روايات أهل الأخبار عنها انها دفنت في ايام جرهم ، وان أهل مكة صاروا يستقون الماء من آبار أخرى احتفروها ، ويستوردونه من الخارج اليها ، حتى اذا كانت ايام عبد المطلب ، ألقى في قلبه ان يحتفرها ، فحفرها واستخرج منها كثيراً ، وظهر الماء بها منذ ذلك اليوم<sup>٣</sup> . ولأهل الأخبار تفاسير عديدة للفظ ( زمزم ) ، تدل على انهم لم يكونوا على علم بأصل التسمية ، مما جاء فيها ان الملك ( سابور ) لما حج البيت أشرف عليها وزمزم فيها ، فقبل لها ( زمزم )<sup>٤</sup> . وهكذا جعلوا ( سابور ) من المؤمنين الحجاج للبيت الحرام ، المتبركين بماء زمزم !

١ الازرقي ( ١٠٤/١ ) « تعليقات السيد رشدي الصالح ملخص على الازرقي »  
Reste, S. 76.

٢ الطبري ( ٢٥١/٢ ) « دار المعارف » ، الروض الانف ( ١/٨٠ ، ٩٨ وما بعدها ) ،  
الازرقي ( ٢٤/١ ، ٢٨٠ وما بعدها ) ، البلدان ( ٢/٦٤٣ ) ،  
Shorter Ency. of Islam, p. 657.

٤ البلدان ( ١٤٧/٣ ) ، الصحاح ( ١٩٤٥/٥ ) ، اللسان ( ٢٧٥/١٢ ) ، البكري ،  
معجم ( ٧٠٠/٢ ) ، عمدة القاري ( ٢٧٧/٩ ) ، البلدان ( ٢/٩٤٠ وما بعدها ) .

وكان حرم ( الكعبة ) كما يظهر من روايات أهل الاخبار واسعاً شاسعاً ذا نبت وشجر . ولم يجرؤ أحد على احتطاب شجره او قطعه لحرمة المكان والحرمة ما فيه ، فبقيت أشجاره على ما هي عليه ، حتى إذا ما كانت أيام ( قصي ) ، ضاقت مكة بمن وفد عليها من قريش ، ممن جاء بهم ( قصي ) اليها ، وقطعها ( قصي ) رباعاً ، وأرادوا البنيان ، ولكنهم هابوا قطع شجر الحرم للبنيان ، وتذكر رواية أنهم قالوا لقصي : كيف نصنع من شجر الحرم ؟ فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك . فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله<sup>١</sup> . وتذكر روايات أخرى العكس . تذكر أن قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعانوه<sup>٢</sup> . وبذلك تقلصت أرض الحرم وقلت أشجاره بالتدريج .

وتذكر رواية ان أهل مكة كانوا يهابون حتى في الإسلام قطع شجر الحرم . وقطع كل شجرة دخلت من أرض الحرم في دور أهل مكة . وان ( عمر ) لما قطع ( دوحة ) كانت في دار ( اسد بن عبد العزى ) ، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين بالكعبة ، وذلك قبل ان يوسع المسجد ، ودأها بقرة . وتذكر أيضاً ان ( عبدالله بن الزبير ) حين ابثنى دوراً ب ( قعيقعان ) ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان ، وجعل دية كل شجرة بقرة . وذكر ان ( أبا حنيفة ) ، قال إن كانت الشجرة التي في الحرم مما يغرستها الناس ويستنبتونها فلا فدية على من قطع شيئاً منها ، وإن كان من غيرها ففيه القيمة بالغاً ما بلغت<sup>٣</sup> . وفي الحديث ان الله حرم مكة ، وحرم شجر الحرم في جملة ما حرمه على الناس<sup>٤</sup> .

ويظهر ان أرض مكة كانت كلها في الأصل قبل أيام ( قصي ) حى للكعبة ، على عادة الجاهليين في تخصيص (حى) لأربابهم تكون حول بيوتها ، ولهذا كانت أشجار هذا الحى أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها ، سوى أخذ بعض أغصانها أو لحائها لعمل قلائد منها للاحتماء منها . فلما استباح أهل مكة لأنفسهم

- 
- ١ الروض الانف ( ٨٧/١ وما بعدها ) .
  - ٢ الطبري ( ٢٥٨/٢ ) « دار المعارف » .
  - ٣ الروض الانف ( ٨٧/١ وما بعدها ) .
  - ٤ الروض الانف ( ١٢٨/١ ) .

التطاول على الحرم ، أي على هذا الحمى ، بقطع شجره وتحويل أرضه الى بناء ، أو ببقاء بعض أشجاره في داخل الدور ، بقوا ينظرون الى ذلك الشجر الباقي في البيوت نظرة هية وتقدير ، باعتبار انه من بقايا الحرم القديم . وبذلك صغرت مساحة الحرم ، وقلّت مساحته ، حتى اضطر الخليفة ( عمر ) الى توسيعه بشراء البيوت التي أقامها الناس عليه وادخالها في الحرم من جديد ، وذلك حين ضيق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها ، فقال : « إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، وانكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم » ، فاشترى بعض الدور من أهلها وهدمها وبني المسجد المحيط بها ، ثم اشترى عثمان دوراً أخرى وأغلى في ثمنها<sup>١</sup> ثم زاد في المسجد من جاء بعدهما حتى وصل الى النحو الذي هو عليه الآن .

ولم يكن للحرم في الجاهلية سور ، إنما كانت تحدد معالمه وحدوده أنصاب نصبت على أطرافه . لتكون علامة على ابتدائه وانتهائه . أما ما نراه في الوقت الحاضر من وجود سور مرتفع له ، أي حائط به غرف ، فإنه مما حدث في الاسلام . وذكر أهل الاخبار ان الحرم قد ضرب على حدوده بالمنار القديمة التي بين ابراهيم مشاعرها ، وكانت قريش تعرفها في الجاهلية والاسلام ، لانهم كانوا سكان الحرم ، ويعلمون ان ما دون المنار الى مكة من الحرم ، وما وراءها ليس من الحرم . فما كان دون المنار، فهو حرم لا يحل صيده ولا يقطع شجره ، وما كان وراء المنار ، فهو من الحل يحل صيده ، إذا لم يكن صائده محرماً<sup>٢</sup> .

### الكسوة :

وكسوة البيت عادة قديمة ، كان يقوم بها الجاهليون . ينسبها الاخباريون الى ( تبع أسعد الحميري ) ، فيذكرون انه كساها بالأنطاع ، ثم كساها بثياب جدة من عصب اليمن ، أغلى ثياب معروفة في تلك الأوقات<sup>٣</sup> . ولا يستبعد ان يكون الإكساء من بقايا المنشأ القديم للبيت ، حيث كان خيمة في الأصل . وقد

١ الروض الانف ( ١٢٩/١ وما بعدها ) .  
٢ تاج العروس ( ٢٣٩/٨ ) ، ( حرم ) ، اللسان ( ١٢٢/١٢ ) ، ( حرم ) .  
٣ الازرقعي ( ١٦٥/١ ) ، الروض الانف ( ٢٤/١ ) .

ورد في الأخبار أنه كان في موضع البيت خيمة قبل أن تكون الكعبة<sup>١</sup> . وكذلك كان معبد بني اسرائيل خيمة في الأصل قبل أن يبني الهيكل .

ويذكرون أن التبع الذي كسا البيت ، هو التبع الذي أتى به (مالك بن عجلان) الى يثرب لطرد اليهود عنها . وذكروا أن ذلك التبع هو (أسعد ابو كرب الحميري)<sup>٢</sup> . وقد كساها الوصايل ، ثياب حبرة من عصب اليمن . وكانت الكعبة تكسى بالحبرة والبرود وغيرها من عصب اليمن ، تكسى بها ويوضع ما يفضل منها في خزانة الكعبة . فإذا تمزقت الكسوة ، تستبدل بكسوة أخرى تؤخذ من الخزانة . تكسى من الداخل والخارج ، وتطيب بالخلوق وتبخر بالمجامر<sup>٣</sup> .

وقد سبق لي أن تحدثت عن (التبع أسعد) ، وذكرت ما قاله رواة الأخبار عنه ، وما جاء عنه في نصوص المسند . وكان قد علق في ذاكرة أهل الأخبار أشياء عنه وعن بعض من جاء بعده ، زوقت ونمقت على طريقتهم في رواية أكثر أخبار اليمن . ولعل ما ذكروه عن اكسائه البيت ، هو من مصنوعاتهم التي وضعوها في الاسلام ليجعلوا لأهل اليمن فضلاً على الكعبة ، فضل يسبق فضل العدنانيين عليها ، وقد رأينا أنهم أوجدوا لهم جملة أنبياء نسبهم الى قحطان ، ووضعوا أشياء أخرى كثيرة ، في اظهار فضل القحطانيين على الاسماعيليين المتعربين يوم فات الحكم من قحطان وصار في أهل مكة في الإسلام . فكان النزاع القحطاني العدناني المعروف .

ولو جارينا أهل الأخبار ، وأخذنا بروايتهم في ان التبع (أسعد أبو كرب الحميري) ، كان أول من كسا الكعبة ، نكون قد رجعنا بمبدأ تأريخ اكساء الكعبة الى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد . وقد سبق ان تحدثت عن هذا الملك في الجزء الثاني من هذا الكتاب<sup>٤</sup> .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحدة ، ولا من نسيج واحد ، بل كانت انطاعاً ، أي أسطحة من آدم ، وحبرة وبروداً ، وغيرها من عصب اليمن . وهي برود يمنية يعصب غزلها ثم يصبغ وينسج ، فيأتي

١ الازرقفي (٦/١) « ذكر هبوط آدم الى الارض » .  
٢ البلدان (٤٦٣/٤) .  
٣ أخبار مكة ، للازرقفي (١٧٣/١) وما بعدها) .  
٤ (ص ٥٦٩ فما بعدها) .

موشى<sup>١</sup> ، وقيل هي برود مخططة<sup>١</sup> . وذكر ان النبي كساها الثياب اليازية ، وان عمر وعثمان كساها بالقباطي<sup>٢</sup> .

وذكر ان أول من كسا البيت الحرير ( نثيلة بنت جناب بن كليب ) وهي من ( بني عامر ) المعروف بالضحيان ، وكان من ملوك ربيعة . وكان العباس ابن عبد المطلب ابنها ، قد ضاع وهو صغير ، فنذرت امه ان وجدته ان تكسو البيت الحرير ، فحسبته ، فهي أول من كساه ذلك<sup>٣</sup> . وقيل أول من كسا البيت اللديباج خالد بن جعفر بن كلاب . أخذ لطيمة من البر وأخذ فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة<sup>٤</sup> .

وروي أنهم كانوا يكسون الكعبة يوم ( عاشوراء ) ، وذكر ان ( بني هاشم ) كانوا يكسونها يوم التروية باللديباج ، لتظهر في أحسن حال ، ويراهم الناس على ذلك . أما اذا حلّ يوم عاشوراء ، فإنهم يعلقون الازار عليها . وورد أنهم كانوا يكسون الكعبة باللديباج يوم التروية ، فيعلق عليها القميص ولا يخاط ، حتى اذا ما انصرف الناس من ( منى ) خيط وترك الازار ، ثم تكسى بالقباطي يوم عاشوراء ، ويعلق عليها الازار ، ويوصل باللديباج<sup>٥</sup> .

ولا نستبعد احتمال كون يوم ( عاشوراء ) من الأيام التي كانت لها حرمة و قدسية عند أهل الجاهلية ، وإن كنا نجعل كل شيء عنه وعن سبب احتفال أهل مكة به ، وصومهم فيه . وقد ذهب بعض المستشرقين الى احتمال تأثر قريش بعاشوراء اليهود ، كأن يكون أحد سادة مكة قد أخذ ذلك اليوم عنهم فعظمه ، فأخذه أهل مكة عنه وجعلوه سنة لهم . غير ان من الجائز ألا يكون لهذا اليوم صلة بعاشوراء اليهود ، وانما كان من تقاليد أهل مكة القديمة المعروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا صلة له بيوم يهود<sup>٦</sup> .

ويظهر أنهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة ، فلا يرفعونها

- ١ اللسان ( ٦٠٤/١ ) ، ( عصب ) .
- ٢ الازرقى ، أخبار مكة ( ١٧٣/١ ) وما بعدها .
- ٣ الاصابة ( ٢٦٣/٢ ) ، ( رقم ٤٥٠٧ ) ، كتاب نسب قريش ( ١٨ ) ، الروض الانف ( ٧٧/١ ) .
- ٤ الروض الانف ( ٧٧/١ ) .
- ٥ الازرقى ، أخبار مكة ( ١٧٣/١ ) وما بعدها .
- ٦ Shorter Ency., p. 47.

عنها ، فكانت تترام بعضها فوق بعض ، فلما جاء الاسلام ، استمروا على ذلك  
أمدأ ، ثم رأى ( شيبه بن عثمان ) سادن البيت ، تجريدها من أكسية الجاهلية ،  
لأنها رجس من عمل الجاهلين فأزيلت . ثم رأى الخليفة المهدي ، أن الأكسية  
قد أثقلت الكعبة ، فأمر بتجريدها ، تخفيفاً عنها ، واكتفى بثلاث كسي من  
القباطي والخز والديباج<sup>١</sup> .

وذكر أهل الأخبار أن اول من حلل البيت ( عبد المطلب ) ، جد النبي ،  
لما حفر ( بئر زمزم ) ، وأصاب فيه من دفن جرهم غزالين من ذهب ، فصر بهما  
في باب الكعبة<sup>٢</sup> .

### المال الحلال :

وقد تجنب أهل الجاهلية بناء معابدهم بمال حرام ، فلما أرادت قريش بنيان  
الكعبة نادى مناديهم : لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيه  
مهر بنغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس<sup>٣</sup> . هذا ما يذكره أهل  
الأخبار ويروونه عن بناء البيت الحرام .

### بقية محجات العرب :

ومن محجات العرب وبيوتها المعظمة : بيت عرف بـ ( بس ) لغطفان ،  
كانت تعبده . بناه ( ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف ) ،  
لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت ، وأخذ  
حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع الى قومه ، فبنى بيتاً على قدر البيت  
ووضع الحجرين ، فقال : هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحج ، فأغار  
( زهير بن جناب الكلبي ) ، فقتل ظالماً وهدم بناءه . وورد في رواية أخرى ان  
( العزى ) سمرة عبدتها غطفان . أول من اتخذها ( ظالم بن أسعد ) ، فوق ذات

١ الأزرقى ، أخبار مكة ( ١٧٣/١ وما بعدها ) ، الاصابة ( ١٥٧/٢ ) ، ( شيبه بن عثمان ) .  
٢ البلدان ( ٤٦٣/٤ وما بعدها ) .  
٣ الروض الانف ( ١٣٠/١ وما بعدها ) .

عرق الى البستان بتسعة أميال ، بنى عليها بيتاً وسمّاه بسّاً ، وأقام لها سدنة ، فبعث اليها رسول الله ( خالد بن الوليد ) ، فهدم البيت وأحرق السمرة<sup>١</sup> .

وفي أخبار أهل الأخبار عن بيت (العزى) ، أوهام وتناقض . فتراهم يجعلون ( العزى ) صنماً مرة ويجعلونها ( سمرة ) أو ( شجرة ) أو ثلاث سمرة مرة أخرى ، ثم تراهم يخلطون بين البيت وبين الحرم الذي كان حوله ، كما بينت ذلك في اثناء حديثي عن ( العزى )<sup>٢</sup> . والذي أراه ، انه كان للعزى بيت هو ( بس ) ، فيه صنم العزى ، وكان حوله حرم ، كحرم مكة ، به ( سمرة ) أو ثلاث سمرة ، كان الناس يقدسونها أيضاً ويتقربون اليها بالنذور . وهي جزء متمم لبيت العزى . فلما أمر الرسول خالد بن الوليد ، بهدم العزى ، هدم البيت وحطّم الصنم ، فرجع ، فلما سأله الرسول عنه ، واستفسر منه عن السمرة أو السمرة الثلاث ، وعلم منه انه لم يقطعها ، أمره بالعودة اليها وقطعها اجتناباً لكل علامة من علائم عبادة هذا الصنم . فقطعها . فقطع عن عبادها كل صلة لهم كانت تربطهم بذلك الصنم .

ومن محجّات الجاهليين ، بيت الصنم ( ذو الخلصة ) ، ذكر أنه كان بتبالة ، وكان يسمى ب ( الكعبة اليمانية ) ، تمييزاً له عن الكعبة التي عرفت ب ( الكعبة الشامية ) . وذكر أنه نفسه عرف ب ( الكعبة الشامية ) ، كما دعي ب ( كعبة اليمامة ) ، وقد تحدثت عنه في أثناء كلامي على هذا الصنم . ولما هدم البيت والصنم بأمر الرسول ، صار مكانه موضع عتبة باب مسجد تبالة . وذكر أن البيت هو ( ذو الخلصة ) ، والصنم ( الخلصة ) ، وقيل ( ذو الخلصة : الصنم نفسه )<sup>٣</sup> وقد عرف البيت ب ( الكعبة ) كذلك ، لأنه كان بناءً مكعباً . وكان بيتاً في خثعم باليمن ، وكانت بجيلة تعظمه كذلك . به صنم ، هو ( ذو الخلصة ) ونصب يندجون عليه<sup>٤</sup> . ويظهر أنه كان من البيوت المعظمة الكبيرة ، بدليل ما ذكره العلماء ممن أن الرسول قال لجرير بن عبدالله البجلي : « ألا تريحي من ذي الخلصة » ؟ فذهب اليه وأحرق البيت وهدم الصنم وكسر النصب . وذكر

١ تاج العروس ( ١٠٩/٤ ) ، ( بس ) ، مرصد الاطلاع ( ٩٢٧ ) .  
٢ البلدان ( ٤١٢/١ ) ، ( بساء ) .  
٣ تاج العروس ( ٣٨٩/٤ ) ، ( خلص ) .  
٤ ارشاد الساري ( ٤٢٤/٦ ) وما بعدها .

أن موضع ( دي الخليفة ) . صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها . العبلات من أرض خثعم<sup>١</sup> .

وقد ذكر ( أبو العلاء المعري ) أن فذك كانت في الجاهلية ذات أصنام . وكانوا يقصدونها للحج ، وذكر تلبيتهم لها<sup>٢</sup> .

وكان بيت ( اللات ) من البيوت المعظمة عند ثقيف . كانوا إذا عاد أحدهم من سفر ، فأول ما يفعله أن يأتي ( الربة ) ، وهي اللات ليتبرك بها . وهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف . ولما أسلم ( عروة بن مسعود الثقفي ) ، وعاد إلى قومه دخل منزله ، فأنكر قومه عليه دخوله قبل أن يأتي الربة ، يعني اللات . وفي حديث وفد ثقيف : كان لهم بيت يسمونه الربة . يضاؤون بيت الله<sup>٣</sup> . وكانت ثقيف تضاهي أهل مكة ، وتنافسهم على الزعامة . وكان لبيت اللات أستاذ وسدنة وحوله فداء معظم ، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب<sup>٤</sup> . ولأهل اليمن بيوت تعبدوا لها ، وبقيت معظمة عندهم إلى الإسلام . من ذلك بيت عرف بـ ( بيت رثام ) . ذكر ( ابن اسحاق ) أن أهل اليمن كانوا يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون . وكانوا يعتقدون أن رثاماً كان فيه شيطان ، وكانوا يملأون له حياضاً من دماء القربان ، فيخرج فيصيب منها ، ويكلمهم ، وكانوا يعبدونه<sup>٥</sup> . وبيت غمدان ، وقد ذكروا أن الضحاك بناه باليمن على اسم الزهرة<sup>٦</sup> ، فجعلوه بيتاً ، أي موضع عمادة ، بينما هو دار حكم وبيت الملوك بصنعاء ، كما سبق أن تحدثت عنه .

وذكر بعض أهل الأخبار أن ( ريام ) بيت بصنعاء كان لحمير ، وكان به كلب أسود . وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهما البيت<sup>٧</sup> . وكان ( ذو الكعبات ) لبكر ولتغلب ابني وائل وإياد بسنداد ، وله يقول الأعشى :

- ١ ارشاد الساري ( ٤٢٣/٦ وما بعدها ) .
- ٢ رسالة الغفران ( ٥٢٥ ) ، ( بنت النساطي ) .
- ٣ ناج العروس ( ٢٦٢/١ ) ، ( ديب ) .
- ٤ نسير ابن كثير ( ٢٥٣/٤ ) .
- ٥ الروص الأنف ( ٢٨/١ ) .
- ٦ بهايه الأرب ( ٦٢/١ ) .
- ٧ نسير ابن كثير ( ٢٥٤/٤ ) .

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد<sup>١</sup>  
وذكر انه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به ، وقد ذكره الأسود بن يعفر  
في شعره ، فقال :

والبيت ذي الكعبات من سنداد<sup>٢</sup>

فالبيت للأسود لا للأعشى على هذه الرواية .

وقد تعرض ( ابن كثير ) لموضوع بيوت الأصنام : اللات والعزى ومناة ،  
فقال : « وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظمها العرب كتعظيم  
الكعبة ، غير ان هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ... قال ابن اسحاق  
في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها  
كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها  
كطوافها بها وتنحر عندها »<sup>٣</sup> . وما فات من أسماء المحجات في العربية الجنوبية  
والشرقية وفي نجد ، قد يزيد عدده على ما ذكرنا . فات عنا ، لأن أهل الأخبار  
لم يذكروا شيئاً عنها ، لانصراف اهتمامهم الى الحجاز وما كان له صلة بالاسلام ،  
من أرضين ، فحرمانا بذلك من الوقوف على أخبار المحجات في المواضع الأخرى  
من جزيرة العرب .

ويحج الناس الى هذه البيوت في أشهر معينة من السنة ، هي الأشهر الحرم ،  
وهي أشهر مقدسة لا يحل فيها قتال ولا اعتداء على أحد، فهي أشهر هدنة وسلام ،  
أشهر خصصت بالآلهة ، فلا يجوز انتهاك حرمتها . وفي شهر الحج الذي يحج فيه  
الناس الى أصنامهم ، يجتمع الناس في المعبد لأداء الفروض المكتوبة المعينة ، فيكون  
الاجتماع اجتماعاً دينياً وسياسياً وتجارياً يتعامل فيه الناس . ويتبادلون به السلع ،  
 ويعود على أهل الموضع الذي فيه المعبد بأرباح كبيرة ولا شك . وقد ذكرت أن  
هذه الحرمة لم تكن عامة ، فقد كان من العرب من لا يراعيها ولا يحترمها ،  
تم إننا لا ندرى إذا كان أهل العربية الجنوبية أو العربية الشرقية كانوا يعرفونها  
أم لا !

١ تفسير ابن كثير ( ٢٥٤/٤ ) .  
٢ تاج العروس ( ٤٥٧/١ ) ، ( كعب ) ، اللسان ( ٧١٨/١ ) ، ( كعب ) .  
٣ تفسير ابن كثير ( ٢٥٣/٤ ) وما بعدها .

ولست كل المعابد مخصصة للناس ، يقصدونها في الأيام أو في المواسم . فقد كان في الموضوع الواحد جملة معابد في بعض الأحيان ، ولا يحج إليها ، بل كانت المعابد التي يحج إليها معدودة معينة . لا بد أن تكون لها ميزة شرفتها على سائر دور العبادة الأخرى . ولهذا الميزة قصدت في المواسم من أماكن بعيدة . وإذا استثنينا ما ورد عن مكة ، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المعابد الكبيرة الأخرى . ثم إن في أكثر ما ذكره أهل الأخبار عن مكة غموض ومجال واسع للنفذ ، لأنه منقول عن أفواه رجال يظهر أنهم نقلوا ما قيل لهم دون تحفظ أو تمحيص .

### المزارات :

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون إليها ويتبركون بها ، وقد بلغ من بعضهم أن جعلها حرم وملاذاً من دخل إليها أمن ، ومن لجأ إليها وكان محتاجاً أغيث ، ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث ، حتى صارت في منزلة المعابد . ومنها أضرحة السدنة والكهان وسادات القبائل ، فقد كان قبر ( تميم ) جد قبيلة ( تميم ) مزاراً معظماً عند أبناء القبيلة من احتفى به من ( بني تميم ) ومن غيرهم صار آمناً . ولم أجد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد بوجود أضرحة في مكة ، اتخذت مزاراً وموضعاً يتبرك به . يعظمونه ويتقربون إليه بالندور والذبايح . لقد كان قبر قصي معروفاً عند أهل مكة ، ولكنهم لم يتخذوه مزاراً ومصلى على ما يتبين من روايات الأخباريين .

## الفصل الخامس والسبعون

### الحنفاء

وقد أشار القرآن الكريم الى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا النصرى ، وانما اعتقدت بوجود لآله واحد عبده<sup>١</sup>. وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء ، غير ان ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم ، ولا يوضح رأيهم في الدين ، فلم يذكروا عقيدتهم في التوحيد ، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون .

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف ، ونبهوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ، ولم يكونوا يهوداً ولا نصرارى ، ولم يشركوا بربهم أحداً . سفهوا عبادة الأصنام، وسفهوا رأي القائلين بها<sup>٢</sup> .

١ « وقالوا : كونوا هودا أو نصرارى تهتدوا . قل : بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » ، البقرة ، رقم ٢ ، الآية ١٢٥ ، تفسير الطبري ( ٤٠٤/١ ) ، روح المعاني ( ٣٥٢/١ ) ، تفسير المنار ( ٢٧٩/١ وما بعدها ) ، بلوغ الارب ( ١٩٦/٢ ) ، اللسان ( ٤٠٢/١٠ وما بعدها ) ، النهاية في غريب الحديث ، لابن الاثير ( ٢٦٥/١ ) الطبرسي ، مجمع البيان ( ٤٦٧/١ ) ، ( ٢١٥/١ وما بعدها ) ، ( طبعة طهران ) ، تفسير القرطبي ، الجامع ( ١٢٨/٢ ) ، الطبري ، جامع البيان ( ١٧٧/١ ) ، ( ٤٠/٢١ ) ، البيضاوي ( ١٥٩/١ ، ٢١٥ ) ، تفسير القرطبي ( ١٩٨/١٠ ) ، الكشاف ، للزمخشري ( ٢٣٦/١ ) ، اللسان ( ٥٦/٩ ) « صادر » ، تاريخ الخميس ، للديار بكرى ( ١٧٧/٢ ) ، الكامل ، لابن الاثير ( ٢٤٤/١ ) ، تفسير القرطبي ، الجامع ( ١٩٨/١٠ ) ، ( حنيفا ) ، سورة النحل ، رقم ١٦ ، الآية ١٢٠ .

٢ النهاية ( ٢٩٩/١ ) .

وقد أشير الى (الحنيفية) و (الحنفاء) في كتب الحديث<sup>١</sup> . وقد بحث عنها شرّاح هذه الكتب . ومما نسب اليه حديث : « لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ، ولكنني بعثت بالحنيفية السمحة »<sup>٢</sup> . وحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة »<sup>٣</sup> . وحديث « أحب الأديان الى الله تعالى الحنيفية السمحة »<sup>٤</sup> .

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهلين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعيّ على دين ابراهيم . كانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده ، لا يشركون به ولا ينتقصونه . فلما جاء عمرو بن لحيّ ، أفسد العرب ، ونشر بينهم أضراباً من عبادة الأصنام ، بما تعلمه من وثنيي بلاد الشام حين زارهم ، وحل بينهم ، فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلتهم الأول . وهو على رأيهم موزع الاصنام بين القبائل ، ومقسّمها عليها . فكان من دعوته تلك عبادة الاوثان ، الى أن جاء الاسلام فأعاد العرب الى سواء السبيل ، الى دين ابراهيم حنيفاً ، وما كان ابراهيم من المشركين<sup>٥</sup> .

ولقد فشت دعوة عمرو بن لحي وانتشرت ، حتى دخل فيها أكثرهم ، والضلال سريع الانتشار ، وقلّ عدد من حافظ على دين ابراهيم والمراعي لأحكام دين التوحيد الحنيف : من اعتقاد بوجود إله واحد أحد ، وطواف بالبيت ، وحج اليه ، وعمرة ، ووقوف على عرفة وهدي للبدن ، واهلال بالحج والعمرة ، وغير ذلك . فلم يبق منهم إلا عدد محدود في كل عصر الى زمن البعثة المحمدية<sup>٦</sup> .

ولسنا نملك ويا للأسف شيئاً من الجاهلية يعيننا في الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم ، فليس في كتابات المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى ، بل ولا في كتب اليونان واللاتين شيء عن عقيدتهم وعن آرائهم ، لذلك اقتصر علمنا بأحوالهم على ما جاء في المؤلفات الاسلامية وحدها ، والفضل في حفظ أخبارهم للقرآن

- ١ راجع ونسك : المعجم المفهرست لالفاظ الحديث النبوي الشريف ، حيث تجد الاشارة الى تلك الاحاديث .
- ٢ مسند أحمد بن حنبل ( ١١٦/٤ ) ، ( ٣٣/٦ ) .
- ٣ اللسان ( ٥٦/٩ وما بعدها ) .
- ٤ مجمع البيان ، للطبرسي ( ٢١٥/١ وما بعدها ) ، « أحب الدين الي الحنيفيه السمحة » ، الاصابة ( ٥١/١ ) ، ( رقم ١١٤ ) .
- ٥ اللسان ( ٤٠٣/١٠ ) ، بلوغ الارب ( ١٩٥/٢ ) .
- ٦ بلوغ الارب ( ١٩٦/٢ ) .

الكريم ، فلولا اشارته اليهم وذكره لهم ، لما اهتم المفسرون وأصحاب الأخبار بجمع ما كان عالقاً في ذهن الناس عنهم . وللحديث وكتب السير والأدب فضل في جمع أخبارهم يجب ألا ينسى كذلك .

وللعلماء الاسلاميين آراء وتفسيرات في أصل لفظة ( حنيف ) وحنفاء وأحناف وفي معانيها . فهم يقولون ان الأصل ( حنف ) ، وحنف بمعنى مال . وحنف القدمين ميل ال واحدة منها نحو الأخرى . والحنف هو ميل عن الضلال الى الاستقامة ، والحنف ميل عن الاستقامة الى الضلال . والحنيف هو المائل . ومن هذا المعنى أخذ الحنف . وأما الحنيف ، فالذي يميل الى الحق، وقيل الذي يستقبل البيت الحرام ، أو الحاج أو من يختن، والحنيف من أسلم في أمر الله فلم يلتو في شيء ، والحنيف المستقيم الذي لا يلتو في شيء<sup>١</sup> .

وقد وردت لفظه ( حنيفاً ) في عشر مواضع من القرآن الكريم<sup>٢</sup> . ووردت لفظة ( حنفاء ) في موضعين منه<sup>٣</sup> . وبعض الآيات التي وردت فيها آيات مكية، وبعضها آيات مدنية . وقد نص في بعض منها على ابراهيم ، وهو على الحنيفية، ولم ينص في مواضع منها على اسمه . وقد وردت لفظة ( حنفاء ) في سورتين فقط . هما : سورة الحج وسورة البينة ، وهما من السور المدنية .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الحنيف عند أهل الجاهلية من اختن وحج البيت فكل من اختن وحج البيت هو حنيف<sup>٤</sup> . وقد رأى الطبري ان ذلك لا يكفي ،

- 
- ١ المبررات ، للاصمغاني ( ص ١٣٣ ) ، اللسان ( ٤٤/١٠ ) ، ( ٥٦/٩ وما بعدها )  
 وصادر ، باج العروس ( ٧٧/٦ وما بعدها ) ، النهاية في غريب الحديث والاثار ، لابن الاثير ( ٢٦٥/١٠ ) ، تفسير الطبري ( ٢٥٨/١ وما بعدها ) ، القاموس المحيط ، المرور آبادي ( ١٣٠/٣ ) ، تفسير الطبري ( ٥٦٣/١ ) ، « ١٩٥٤ » ، ( ١٠٥/٣ ) « دار المعارف » ، الملل والنحل ، ( ٥٢/٢ ) ، الاغانى ( ١١٣/٣ ) وما بعدها ) « دار المعادى بيروت ١٩٥٥ م » ، روح المعاني للالوسي ( ١٧٣/٣ ) وما بعدها ) ، تفسير الحازن ( ٩٨/١ ) .
  - ٢ الدهر ، روم ٢ الآية ١٣٥ ، آل عمران ، ٣ الآية ٦٧ ، ٩٥ ، النساء ، الرقم ٤ ، الزه ١٢٥ ، الانعام ٦ ، الابه ٧٩ ، بونس ، الرقم ١٠ ، الآية ١٠٥ ، النحل ، ١٦ ، الابه ١٢٠ ، الروم ، الابه ٣٠ .
  - ٣ الحج ، الابه ٣١ ، البينة ، الابه ٥ .
  - ٤ اللسان ( ٤٠٢/١٠ وما بعدها ) ، الكشاف ( ١٧٨/١ ، ٢٣٦ ، ٤٠٧ ) ، الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن ( ٤٦٧/١ وما بعدها ) ، ( ١٠٩/٣ وما بعدها ) ، تفسير العنبر الراري ( ٥٧/١٣ وما بعدها ) ، ( ١٠/١٤ وما بعدها ) ، ( ١٧١/١٧ وما بعدها ) ، تفسير الطبري ( ١٠٤/٣ وما بعدها ) .

بل لا بد من الاستقامة على ملة ابراهيم واتباعه عليها<sup>١</sup>. والذين يذكرون أن الحنيف هو من اختن وحج البيت ، يذكرون أن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، ولهذا فكل من اختن وحج البيت ، قيل له حنيف . وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والإغتسال من الجنابة الى ما ذكرت ، وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن المشركين<sup>٢</sup>، لأن الحنيفية على حد قولهم لو كانت حج البيت والاختن لوجب أن يكون الذين كانوا يحجّون ويختنون في الجاهلية من أهل الشرك حنفاء، وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله : « ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »<sup>٣</sup>.

وينسب أهل الأخبار الى الأحناف بالإضافة الى ما ذكرت ، امتناعهم عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهل الى غير الله . فقد ذكروا عن كل واحد من الأحناف أنه كان قد امتنع عن أكل الذبائح التي تذبح للأوثان والأصنام ، لأنها ذبحت لغير الله . كما نسبوا اليهم تحريم الخمر على أنفسهم ، والنظر والتأمل في خلق الله ، ونسبوا اليهم أداء شعائر الحج وغير ذلك<sup>٤</sup>.

وقد لخص ( الفخر الرازي ) و ( الطبرسي ) ، آراء العلماء في ( الحنيفية ) واجملاها في تفسيرهما للآية : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كنت من المشركين » . فقالا : « وفي الحنيفية أربعة أقوال : احدها أنها حج البيت ، عن ابن عباس والحسن ومجاهد . وثانيها أنها اتباع الحق ، عن مجاهد ، وثالثها أنها اتباع ابراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان وغير ذلك من شرائع الاسلام ،

- ١ تفسير الطبري ( ١٠٥/٣ وما بعدها ) ، ( ٣٠٦/٣ ) ، ( ٢٩٧/٥ ) ، ( ٢٥١/٧ ) ، تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ( ١٢٨/٢ ) .
- ٢ اللسان ( ٥٦/٩ ) « صادر » ، القاموس ( ١٣٠/٣ ) ، تاج العروس ( ٧٧/٦ ) وما بعدها ) ، ( حنف ) .
- ٣ الطبري ، جامع البيان ( ٥٦٤/١ ) وما بعدها ) .
- ٤ الاصنام ( ٦ ) « ١٩١٤ م » ، القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ( ١٠٩/٤ ) « ١٩٣٧ م » « مطبعة دار الكتب المصرية » ، ابن خلدون ( القسم الاول من المجلد الثاني ) ( ص ٧٠٧ وما بعدها ) « بيروت ١٩٥٦ م » الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل ( ٢٣٨/١ ) وما بعدها ، ( ٢٥١ ) ، تفسير الرازي ( ١٥٠/٨ ) وما بعدها ) .

والرابع أنها الاخلاص لله وحده والاقرار بالربوبية والإذعان للعبودية<sup>١</sup> .  
 ترى مما تقدم ، وسترى فيما بعد ان أهل الأخبار لم يكونوا على بينة تامة وعلم واضح بأحوال الحنيفية وآرائها وقواعد أحكامها وأصولها ، وأنهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهينة ، ولا سيما رهينة النصرانية . فأدخلوا فيها من يجب اخراجهم عنها ، لأنهم كانوا نصارى على ما يذكره نفس أهل الأخبار في أثناء تحديثهم عنهم ، ومن هؤلاء : قيس بن ساعدة الأيادي وورقة بن نوفل ، وعثمان ابن الحويرث ، فقد نصوا نصاً صريحاً على انهم كانوا من العرب المنتصرة ، ثم نجدهم مع ذلك يدخلونهم في جملة الأحناف .

وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الاسلام . ومنهم من يرى ان اللفظة من أصل إرمي ، وقد كانت معروفة عند النصارى ، وأخذها الجاهليون منهم ، وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب ، على أولئك الذين ظهروا في اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمان . وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية ، غير ان أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وإنما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين<sup>٢</sup> .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان اللفظة من أصل عبراني ، هو : (تخينوت) tchinoth ، أو من ( حنف ) Hnêf ، ومعناه التحنث في العربية ، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهاد<sup>٣</sup> . وقال (نولدكه) انها من أصل عربي هو ( تحنّف ) ، على وزن تبرر ، وهي من الكلمات التي لها معانٍ دينية . ويلاحظ ان السريان يطلقون لفظة (حنفه) Hanfa على الصابئة<sup>٤</sup> . وقد وردت لفظة (حنف) في النصوص العربية الجنوبية ، وردت بمعنى (صبأ) ، أي مال وتأثر بشيء ما<sup>٥</sup> .

١ مجمع البيان ( ٢١٥/١ وما بعدها ) ، التفسير الكبير ، للفخر الرازي ( ٨٩/٤ وما بعدها ) .  
 ٢ Ency., II, p. 259.  
 ٣ Abraham I. Katsh., Judaism in Islam, New York, 1954, p. 108, f., J.A. Montgomery, Ascetic Strains in early Judaism, in, JBL., Vol., LI, (1932), pp. 183, Tar Andrae, Der ursprung der Islam und das Christentum, uppala, 1926, p. 40, Charles Lyall, The Ward Hanf and Muslim, in JRAS, 1903, p. 772, Sprenger, Das Leben, Bd. I, S. 45. ff.  
 ٤ Ency., II, 259, Barhebraeus, Chronic., p. 176.  
 ٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 40.

أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة. فاللفظة اذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنوبيين .

عندي أن لفظة ( حنيف ) ، هي في الأصل بمعنى ( صابىء ) أي خارج عن ملة قوم ، تارك لعبادتهم . ويؤيد رأسي هذا ما ذهب اليه علماء اللغة ، من أنها من الميل عن الشيء وتركه ، ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية الجنوبية . وبمعنى ( الملحد ) ، و ( المنافق ) ، و ( الكافر ) في لغة بني لأم ، ومن اطلاق ( المسعودي ) و ( ابن العربي ) لهذه اللفظة على ( الصابئة ) . ومن ذهاب ( المسعودي ) الى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة . وقد اطلقت على ( المنشقين ) على عبادة قومهم الخارجين عليها ، كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى أتباعه ( الصابىء ) و ( الصباة ) ، فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه ، وخرج على الأصنام . ولهذا نجد الإسلام يطلقها في بادىء الأمر على نابذي عبادة الأصنام ، وهم الذين دعاهم بأنهم على ( دين ابراهيم ) . ولما كان التنكر للأصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت مدحاً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً<sup>١</sup> .

ولست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية . فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله ، وكيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسرون عليها . نعم ، إن نفرأ منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها ، وما أسماؤها . وهل هي انتوراة والانجيل ؟ ولكن أي توراة وإنجيل ؟ التوراة والانجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاء كانوا يرون تحريفاً في الكتابين ، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية الى دين ابراهيم الحنيف ، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة ابراهيم . ولكن ما هي كتب ابراهيم وما هي عبادته ؟

١ راجع أيضاً : Ency., II, p. 259.

وليس في امكاننا في الوقت الحاضر وضع حد صريح واضح لمفهوم الأحناف و ( الدين الحنيف ) عند الجاهليين ، لما ذكرته من عدم وجود موارد واضحة صريحة عن الأحناف ، ولعدم ورود أي شيء عنهم في نصوص جاهلية ، ولأن في الكثير من الذي يذكره المفسرون وأهل الأخبار عنهم غموض وإبهام أو صنعة وتكلف ، لذلك فليس أمامنا سوى الانصراف الى البحث عن جمع كل ما ورد عن الحنيفية في الشعر وفي النثر وتنقيته وغربلته لاستخراج المادة الصافية منه التي تفيدنا في الوقوف على تلك الحركة الدينية التي كانت بارزة عند المذكورين قبيل ظهور الاسلام . والوقوف عليها يفيدنا كثيراً ولا شك في فهم الاسلام الذي أنشئ على الحنيفية وأرجعها الى ديانة ابراهيم ، وفي فهم اتجاهات الأحناف ودعوتهم التي وجهوها الى قومهم في نبذ عبادة الأصنام والأحجار والمعبودات المادية الأخرى ، والالتجاء الى عبادة إله أعلى لا يشبه المادة ، هو إله واحد لطيف خبير .

والحنفاء ، كما يفهم من روايات أهل الأخبار ، كانوا طرازاً من النسك ، نسكوا في الحياة الدنيا ، وانصرفوا الى التعبد للإله الواحد الأحد إله ابراهيم واسماعيل ، ساحوا في البلاد على نحو ما يفعله السياح الزهاد بحثاً عن الدين الصحيح دين ابراهيم ، فوصل زيد بن عمرو بن نفيل الى الشام والبقاء ووقف على اليهودية والنصرانية ، فلم يرد في الديانتين ما يريد . ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحشمتهم على ترك عبادة الأصنام ، لذلك لا قوا منهم غشاً ونصباً شديداً . ومنهم من كان يتأمل في هذا الكون ، لذلك تجنب الناس واعتزلهم ، والتجأ الى الكهوف والمغاور البعيدة ابتعاداً عن الناس للتأمل والتفكير ، وقد تجنبوا الحمرة والأعمال المنكرة ، وقول الفحش ، وساروا على مثل الاسلام ، وان عاشوا قبل الاسلام ، لأن الإسلام دين ابراهيم .

والذي يفهم من القرآن الكريم ، هو ان الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام ، فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص ، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى ، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، و « وما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من

١ بلوغ الارب ( ٢٤٧/٢ وما بعدها ) ، الطبرسي ، مجمع البيان ( ١١٠/٣ )  
( ٢٥٢/٧ ) ، ( ١٠٧/١١ ) ( ١٣٧/١٤ ) .

المشركين ،<sup>١</sup> ، وان قدوتهم في ذلك ابراهيم . ويلاحظ ان لفظه (مسلم) استعملت في مرادف ومعنى لفظه (الحنيف) ، وان ابراهيم هو أبو وأول المسلمين . وقد وصف الاسلام بأنه دين الله الحنيف ، والدين الحنيف ، وان الشريعة الاسلامية ، هي الحنيفية السمحة السهلة ، وذلك تمييزاً لها عن الرهبانية المتعصبة<sup>٢</sup> .

وقد عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية ، وعدّوهم نصارى عرباً زهاداً كيتفوا النصرانية بعض التكييف ؛ وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها . وقد استدلوا على ذلك بما ورد من تنصر بعضهم ، وبما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم ان المراد بهم شيعة من شيع النصرانية<sup>٣</sup> . غير ان القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على ان الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وانهم ينتمون في عقيدتهم الى ابراهيم . ثم إن الأخباريين وإن أدخلوا في الأحناف أناساً نصوا على انهم كانوا نصارى ، إلا انهم نصوا في الوقت نفسه نصاً صريحاً على ان البقية الباقية ، كانت واقفة ، لم تدخل في يهودية ولا نصرانية ، إذ وجدت في كل ديانة من الديانتين أموراً جعلتها تراثاً ، فلم تدخل في احدهما ، وبقيت مخصصة لسنة ابراهيم ، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلصاً ، أو شيعة من الشيع النصرانية .

وقد كان من الحنفاء نفر من النصارى ، أخلصوا لنصرانيتهم وماتوا عليها . فهؤلاء هم نصارى من غير شك ، ويجب اخراجهم من طائفة الحنفاء ، وادخالهم في النصارى ، مثل (بحيرا) الراهب ، وأمثاله ممن سأحدث عنهم فيما بعد . ويلاحظ أن جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفية ، كانوا من القارئين ، الكاتبين . وكانوا يشتركون الكتب ويراجعونها ويتسقطون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات . ولبعض منهم - كما يروي أهل الأخبار - علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية ، كما كان لهم علم ووقوف على تيارات الفكر في ذلك الوقت . وقد أضافوا الى علمهم الذي أخذوه من الكتب ، علماً حصلوا عليه من

١ آل عمران ، الآية ٦٧ وما بعدها ، البقرة ، الآية ٣٥ ، آل عمران ، الآية ٩٥ ، النساء ، الآية ١٢٤ ، الانعام ، الآية ٧٩ ، ١٦٢ ، يونس ١٠٥ .  
٢ ابن سعد ( ١٢٨/١ ) ، قال عبد الله بن أنيس :  
فقلت له خذها بضرية ماجد حنيف على دين النبي محمد  
٣ Reste, S. 238, J.A. Montgomery, Ascetic Strains in Early Judaism, JBL., Vol., LI, 1932, p. 183, Abraham J. Katsch, Judaism in Islam, p. 108.

أسفارهم الى الخارج مثل العراق وبلاد الشام ومن اتصلهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهود . فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة من الجاهليين نادت بالاصلاح وبرفع مستوى العقل وبنبذ الأساطير والخرافات وبتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد فيه ، وذلك بالدراسات والتأمل وبقراءة الكتب وبالرجوع الى دين الفطرة ، الذي لا يقر عبادة الشرك ولا عبادة الناس .

لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً من النوع الذي نطلق عليهم كلمة (مصلحين) في الوقت الحاضر . من هذا الطراز الذي يريد اصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل . فهم جماعة ضد الأوضاع الاجتماعية السائدة في أيامهم . لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن ادراك الواقع . وقد رأت أن العقل لا يقر التقرب الى أحجار والى التبرك بها والذبح لها ، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إمكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها . ومنهم من آمن بدين كالنصرانية ، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه ، لأن عقله لا يقر التقرب الى المادة مثل الصليب والصور والتماثيل ، ومنهم من أبعده مثل هذه العبادة عن النصرانية ، فصيرته حائراً في أمره من الديانات ، يعتقد بآله ، ولكنه لم يستقر على دين . عائب على قومه من المشركين ما هم عليه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب اليها .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر ذكروا أنهم كرهوا عبادة الأوثان وسخفوا أحلام المتعبدين لها ، إذ وجدوا ان من الحقم التقرب الى حجر لا يضر ولا ينفع ، وهو جماد ، فلما سمع بعضهم بالاسلام أسلموا . ولكنهم لم يدخلوهم في عداد الأحناف . وقد رأينا ان من أهل الأخبار من جعل ( مسيلمة ) يدعو الى عبادة (الرحمن) قبل مبعث النبي . وقد ذكروا ان « عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد » السلمي ، كان قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية ، رأى أنها باطلة ، وان الناس في ضلال إذ يعبدون الحجارة ، والحجارة لا تضر ولا تنفع ، فكان حائراً ، حتى اهتدى إلى الاسلام<sup>١</sup> .

وليس في أيدينا اليوم مورد يفيد بوجود تكتل وتنظيم لمن أطلق الأخباريون

١ الاصابة ( ٥/٣ وما بعدها ) ، رقم ( ٥٩٠٥ ) ، الاستيعاب ( ٤٩١/٢ وما بعدها ) ،  
حاشية على الاصابة .

عليهم لفظة : (الحنفاء) ، تكتل وتنظيم مع مظاهر خارجية وداخلية تميزهم عن غيرهم من أهل الأديان . لذلك ، فنحن لا نستطيع أن نقول إن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين ، كدين اليهودية أو النصرانية ، لها أحكام وشريعة تستمد أحكامها من كتب منزلة مقدسة ومن وحي نزل من السماء ، على نحو ما نفهمه من الأديان السماوية . لذلك ، فأنا لا أستطيع إقرار رأي من ذهب الى أنهم كانوا جماعة دينية منظمة ، كرأي المستشرق ( شبرنكر ) ، الذي ذهب الى هذا المذهب<sup>١</sup> .

وجلّ هؤلاء الأحناف ، هم من أسر معروفة ، وبيوت يظهر أنها كانت مرفهة أو فوق مستوى الوسط بالنسبة الى تلك الأيام ، ولهذا صار في امكانهم الحصول على ثقافة وعلى شراء الكتب ، وقد كانت غالبية الثمن إذ ذاك ، لنيل العلم منها . كما صار في امكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتناع المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة الى تلك الأوقات ، مثل العراق وبلاد الشام . وقد اتصلوا كما يزعم أهل الأخبار فعلاً برجال العلم والدين فيها ، وتحادثوا معهم وأخذوا الرأي منهم . ومن يدري فلعلهم قرأوا عليهم الكتب وفي جملتها كتب اليونان ، أو ترجحات كتبهم بالسريانية ، فحصلوا نتيجة لذلك على علم بمقالات اليونان وبآرائهم في الفلسفة والدين والحياة . وقد تكون بعض الآراء المنسوبة اليهم ، والتي ترجع الى أصل يوناني ، قد قالوها من أخذهم لها من تلك الكتب ومن دراستهم على من اتصلوا بهم من العلماء في أثناء وجودهم في العراق وفي بلاد الشام .

ونجد في الأخبار أن الرسول كان يعدّ الرهبانية مخالفة للحنيفية ، إذ ورد أن أبا عامر بن صيفي - المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح - قدم المدينة ورأى الرسول ، وسأله : ما هذا الذي جئت به ؟ - فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين ابراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال الرسول : لست عليها ، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . وقد سماه الرسول الفاسق . فذهب مغاضباً للرسول كما تقول الروايات ، متوجهاً الى قيصر ، ليحمله على توجيه جيش الى المدينة للقضاء على الإسلام ، غير أنه مات وهو في بلاد الشام<sup>٢</sup> .

1 Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4, Ency., II, S. 259.

2 مجمع البيان ( ٦٤/٩ وما بعدها ) ، ( ٥٠٠/٣ ) ، ( طبعة طهران ) .

وقد خرج ( أبو عامر ) واسمه ( عيد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان ابن أمة )<sup>١</sup> الراهب أحد ( بني ضبيعة ) الى مكة مباعداً لرسول الله ، معه خمسون غلاماً من الأوس ، منهم ( عثمان بن حنيف ) . « فكان يعد قريشاً ان لو قد لقي محمداً لم يختلف عليه منهم رجلاً ، فلما كان يوم أحد ، كان أول من لقي أهل المدينة أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ، وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية ( الراهب ) فسماه رسول الله الفاسق ، فلما سمع ردهم عليه ، قاتلهم ثم راضخهم بالحجارة » . ثم رجع مع قريش الى مكة ثم خرج الى الروم يوم فتحت مكة فمات بها سنة تسع ، ويقال سنة عشر . وأعطى ( هرقل ) ميراثه لكنانة بن عبد ياليل الثقفي<sup>٢</sup> ، وكان قد اختصم مع علقمة بن علاثة في ميراثه ، فدفع هرقل ميراثه لكنانة قائلاً لعلقمة : هما من أهل المدر وأنت من أهل الوبر . وكان له ولد اسمه ( حنظلة ) أسلم ، واستأذن رسول الله في قتل أبيه ، فنهاه عن ذلك . فلما كان يوم أحد شهده ، والتقى هو وأبو سفيان ، فلما استعلى حنظلة رآه ( شداد بن شعوب ) فعلاه بالسيف حتى قتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان . فقال النبي : « إن صاحبكم تغسله الملائكة »<sup>٣</sup> ، فعرف بـ ( غسيل الملائكة )<sup>٤</sup> . فكان الابن مع المسلمين في هذا اليوم ، وكان الأب مع المشركين .

وروي أنه كان يتزهّد في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام خرج الى الشام وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار ، وأتى قيصر فاستنجده على النبي<sup>٥</sup> . وروي أنه هو الذي حذب الأحزاب لقتال الرسول : فلما خذل لحق بالروم يطلب النصر منهم ، وقال لأناس من الأنصار ابنو مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ،

- 
- ١ تاريخ الطبري ( ٥١٢/٢ ) ، ( معركة أحد ) ، المحبر ( ٤٧٠ ) ، سيرة ابن هشام ( ١٢٩/٢ ) ، ( حاشية على الروض ) ، أبو عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، الأوسي ، الاصابة ( ٣٦٠/١ ) ، ( رقم ١٨٦٣ ) ، مروج الذهب ( ٨٨/١ ) ، ( دار الاندلس ) .
  - ٢ الاصابة ( ٣٦٠/١ ) ، ( رقم ١٨٦٣ ) .
  - ٣ الاستيعاب ( ٢٧٩/١ ) وما بعدها ، ( حاشية على الاصابة ) .
  - ٤ الاصابة ( ٣٦٠/١ ) ، ( رقم ١٨٦٣ ) ، الاستيعاب ( ٢٧٩/١ ) وما بعدها ، ( حاشية على الاصابة ) .
  - ٥ تفسير النيسابوري ( ٧٦/٩ ) ، ( حاشية على تفسير الطبري ) ، روح المعاني ( ١١١/٩ ) .

فلما ذهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه ، وكان قد خرج معه كنانة بن عبد ياليل الثقفي وعلقمة بن علاثة . فأما علقمة وابن ياليل ( ابن بالين ) ، فرجعا فبايعا النبي وأسلما ، وأما ( أبو عامر ) فتنصر وأقام<sup>١</sup> .

ويظهر أن ( أبا عامر الراهب ) ، كان قد وضع مع جماعة من الأنصار الحاقدين على الرسول وعلى المهاجرين الذين صاروا يزاحمونهم في أعمالهم ، واستحوذوا على التجارة واستغلوا أرض يثرب فقام قوم منهم بزراعتها ، خطة لعمل مكيدة يخرجون بها الرسول من المدينة ، يساعدهم في ذلك الروم . غير أنها لم تنجح ، وهدم المسجد ، الذي تواعدوا على أن يكون موضع التآمر وملتقى الحاقدين على الرسول ، وقضي على المؤامرة ، وبقي ( أبو عامر ) عند الروم . فلما مات عاد ( كنانة بن عبد ياليل ) الثقفي ، وكان رئيس ثقيف في زمانه ، وكان يقول : « لا يرثي رجل من قريش ) ، مما يدل على أنه كان من الكارهين لقريش المتحاملين عليها وعلى الاسلام ، ففر الى ( نجران ) ثم توجه الى الروم . فلما مات ( أبو عامر ) عاد فأسلم<sup>٢</sup> . وعاد ( علقمة ) أيضاً . وهناك روايات أخرى ، تذكر أنه ارتد في أيام ( عمر ) ، والتحق بالروم ، ثم عاد الى الإسلام<sup>٣</sup> .

ولاشتهار أبي عامر بالراهب ، ولما ورد في بعض الأخبار من انه كان حنيفاً ، ذهب ( ولهوزن ) الى ان الأحناف هم من النصارى ، وان حركتهم حركة نصرانية ، وانهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والاسلام<sup>٤</sup> . غير ان ما لدينا من معارف عن الأحناف ، لا يكفي لابتداء رأي كهذا الرأي ، وللتسليم بمثل هذا القول ينبغي لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً ومقارنة ما لدينا بما نعرفه من النصرانية لنتمكن من التوصل الى رأي علمي في هذا الشأن .

وفي بيت منسوب إلى أمية إشارة إلى الحنيفية ، ذكر فيه ان كل دين زور عند الله إلا دين الحنيفية . وقد رأينا ان أهل الأخبار يدخلون أمية في جملة

---

١ تفسير الطبري ( ١٧/١١ وما بعدها ) ، تفسير القرطبي ( ٧/٣٢٠ ) ، ( ٨/٢٥٣ وما بعدها ) .  
٢ الاصابة ( ٣/٣٠٥ ) ، ( رقم ٧٥٣٢ ) .  
٣ الاصابة ( ٢/٤٩٦ ) ، ( ٥٦٧٧ ) .  
٤ Wellhausen, Reste, S. 239. f.

الحنفاء ، ويقولون : انه لبس المسوح تعبداً ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل وحرّم الحمر<sup>١</sup> . ويلاحظ ان الأخباريين ينسبون الى عدد من هؤلاء الأحناف لبس المسوح ، مما يشير الى أنهم كانوا قد تأثروا بالرهبان المتقشفين وبالزهاد النصارى الناسكين، فأخذوا عنهم هذه الطريقة التي أشير اليها في القرآن الكريم وفي الحديث ، والتي تعدت من البدع الممقوتة في الاسلام .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا ان الأحناف قالوه ، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السجع ، أوردوه بنصه على ما ذكروه . غير ان من الصعب تصور صدور ذلك الكلام المنمق من أناس عاشوا قبل الاسلام ، ومحافظه الناس عليه محافظة تامة إلى ما بعد الاسلام . ويظهر على كسل حال من دراسة روايات أهل الأخبار عن الكهان والأحناف ان كلام رجال الدين قبل الاسلام كان على هذا النمط من السجع ، ومن جمل مكررة معادة عامة . وقد ظل السجع الطريقة المحببة في الكتابة الى ايامنا هذه عند بعض الكتاب .

ويفهم من كلام الرواة ان بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل ، أي على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنّبوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة ابراهيم<sup>٢</sup> . والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر، فخلطوا في بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد .

ولدينا أمثلة أخرى على هذا الوهم . وسنرى من تراجم عدد من الاحناف ان منهم من يجب ادخاله في عداد النصارى ، لا الاحناف . وقد نص أهل الاخبار أنفسهم على تنصرهم ، غير انهم ادخلوهم مع ذلك في جملة الاحناف حين تكلموا عنهم . فكأنهم عنوا بالاحناف من كان على حياة الرهبنة والتقشف . وقد أدخل ( المسعودي ) بعض الاحناف في جماعة اهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد ، ومن أهل التوحيد ، ممن يقر بالبعث . ثم قال : « وقد اختلف الناس فيهم ، فمن الناس من رأى انهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك »<sup>٣</sup> .

١ كل دين يوم القيامة عند الله - الادين الحنيفية زور  
الايغاني ( ١٢٢/٤ ) « طبعة دار الكتب المصرية » .  
٢ بلوغ الارب ( ٢٧٠/٢ ) .  
٣ مروج ( ٧٨/١ ) ، ( دار الاندلس ) .

وقد ذكر من بينهم ( حنظلة بن صفوان ) ، و ( خالد بن سنان العبسي ) ، و ( رثاب الشني ) ، و ( أسعد أبو كرب الحميري ) ، و ( قس بن ساعدة الإيادي ) ، و ( أمية بن أبي السلط الثقفي ) ، و ( ورقة بن نوفل ) ، و ( عداس ) مولى ( عتيبة بن ربيعة الثقفي ) ، و ( أبو قيس ) ( صرمة بن أبي انس ) الانصاري ، و ( أبو عامر الأوسي ) ، و ( عبدالله بن جحش الاسدي ) ، و ( بجيرا الراهب )<sup>١</sup> . ومن هؤلاء من كان على النصرانية ، وقد نص ( المسعودي ) نفسه على ذلك .

والذين ذكر الرواة أسماءهم من الحنفاء هم أناس عاشوا في الجاهلية المتصلة بالاسلام ، ومنهم من أدرك الرسول ، ولا عبرة بالطبع لما زعمه الأخباريون من طول عمر أولئك الأشخاص وبلوغ بعضهم مئين عدة من السنين ، وادخالهم في المعمرين<sup>٢</sup> ، فان من عادة الأخباريين إطالة عمر هؤلاء وأمثالهم من الرجال البارزين الظاهرين ، ليكون ذلك مناسباً لما يجيء في أخبارهم من الحكم المنسوبة اليهم ، وهي فكرة عامة نجدها عند غير العرب أيضاً ، ولذلك نجد صور الحكماء والفلاسفة في الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورأس جلله الشيب أو قضى على شعره الزمن والتفكير ، فصليح ، لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير .

وعندي ان الحنفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام ، وثارت عليها وعلى المثل الأخلاقية التي كانت سائدة في ذلك الزمن ، ودعت إلى إصلاحات واسعة في الحياة وإلى محاربة الأمراض الاجتماعية العديدة التي كانت متفشية في ذلك العهد ، دعاها إلى ذلك ما رآته في قومها من إغراق في عبادة الأصنام ومن اسفاف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة ، فرفعت صوتها كما يرفع المصلحون صوتهم في كل زمن يتادون بالإصلاح ، وقد أثارت دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الاوثان شأن كل دعوة إصلاحية . ويجوز ان يكون من بين هؤلاء من مال إلى النصرانية ، غير اننا لا نستطيع ان نقول انهم كانوا نصارى أو يهوداً ، انما أستطيع ان أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإله رب السماء ( ذو سموى ) أو عبادة الرحمن في اليمن ،

١ مروج ( ٧٨/١ وما بعدها ) .

٢ جعل السجستاني عمر قس بن ساعدة الايادي ، وهو من الحنفاء ، ثمانين وثلاث مئة سنة ، بلوغ الارب ( ٢٤٦/٢ ) .

متأثرين بمبادئ التوحيد التي حملتها اليهودية والنصرانية إلى اليمن . ولكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى ، انما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد .

ولا يعني قولي هذا ان الحنفاء كانوا على رأي واحد ودين واحد كالذي يفهم مثلاً من قولنا يهودي ونصراني ويهود ونصاري ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة كالذي ذهب (شبرنكر) اليه<sup>١</sup> . انما كان أولئك الاحناف نفراً من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة ، انما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الاصنام وفي الدعوة الى الاصلاح . وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت الى الحنفاء .

والرجال الذين قال أهل الاخبار عنهم أنهم كانوا على دين ، وكانوا من الاحناف ، هم : قس بن ساعدة الإيادي ، وزيد بن عمرو بن نُفيل ، وأمّية ابن أبي الصلت : وارياب بن رثاب ، وسويد بن عامر المصطلق ، وأسعد ابو كرب الحميري ، ووكيع بن زهير الإيادي ، وعمير بن جندب الجهني ، وعدي بن زيد العبّادي ، وأبو قيس صرمة بن أبي انس ، وسيف بن ذي يزن ، وورقة بن نوفل القرشي ، وعامر بن الظرب العدواني ، وعبد الطائحة بن ثعلب ابن وبرة بن قضاة ، وعلاف بن شهاب التميمي ، والمتمس بن أمية الكناني ، وزهير بن أبي سلمى ، وخالد بن سنان العبّسي ، وعبدالله القضاعي ، وعبيد ابن الابرص الاسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب<sup>٢</sup> .

وبعض هؤلاء مثل : ( قس بن ساعدة الإيادي ) و ( عثمان بن الحويرث ) و ( عدي بن زيد العبّادي ) نصارى ، وبعض منهم مثل ( أسعد ابو كرب الحميري ) ، ( ابو كرب اسعد الحميري )<sup>٣</sup> و ( عبيد بن الابرص ) ، و ( زهير ابن أبي سلمى ) ، مشكوك في أمرهم ، لا نستطيع أن نذكر شيئاً عن دينهم . ولهذا فأنا اذكرهم هنا بحذر ، مجازة لمن أدخلهم في اهل الدين من الجاهليين . ولا أعني أنهم كانوا على الحنيفية ، اي على شريعة التوحيد التي ينص عليها أهل الاخبار .

1 Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4.

2 بلوغ الارب ( ٢٤٤/٢ وما بعدها ) ، مروج الذهب ( ٧٨/١ ) ، ( دار الاندلس ) .  
3 بلوغ الارب ( ٢٤٤/٢ ) ، مروج ( ٥٢/١ وما بعدها ) .

وقد اقتصر ( محمد بن حبيب ) على ذكر بعض من تقدم ، حين تكلم عن ( أسماء الذين رفضوا عبادة الاصنام ) : فذكرهم على هذا النحو : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ابن رثاب الاسدي . وذكر ان منهم من تنصر ومات على النصرانية ، مثل : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش بن رثاب الاسدي<sup>١</sup> .

فأما قُس بن ساعدة الايادي ، فقد رفعه الاخباريون من مصاف أسوياء البشر ، ووضعوه في صف المعمرين الذين عاشوا مئتين من السنين قيل سبع مئة سنة ، وقيل ست مئة سنة ، أو أقل من ذلك بكثير ، غير أنه لا يقل عن ثلاث مئة سنة على كل حال<sup>٢</sup> .

وأما مولده ، فجهول . وأما وفاته ، فيكاد يحصل الاتفاق على انه كان قبيل البعثة . وقد ورد في رواية ان الرسول أدركه ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة ، غير انه لم يحفظها ، وان أبا بكر ، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة ، كان قد حفظها ، فأعادها على الرسول . وهي الخطبة الشهيرة المتداولة بين الناس والمحافظة في الكتب . وهناك رواية تذكر ان الرسول كان يحفظها ، وقد تلاها على من حضر عنده ، وتلا بعضاً منها على وفد عبد القيس<sup>٣</sup> .

١ المحبر ( ١٧١ وما بعدها ) .

٢ وقيل : قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر ، وقيل : حذافة بن زهر بن نزار . وقيل : قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر الخ . . . . وقيل : هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك ، وهكذا . بلوغ الارب ( ٢٤٦/٢ ) ، البيان والتبيين ( ٥٠/١ ) « طبعة السندوبي » ، ( ١٩٢٦ ) ، شعراء النصرانية ( ٢١١/٢ ) ، « قس بن ساعدة الايادي بن عمرو بن عدي بن مالك بن أبدطان « ايدعان » بن النمر بن وائلة بن الطمنان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفضى » المحبر ( ص ١٣٦ ) ، الاغانى ( ٤٠/١٤ ) ، البداية والنهاية ، لابن كثير ( ٢٣٠/٢ ) الميداني ، مجمع الامثال ( ١١٧/١ ) .

٣ وفي نصها بعض الاختلاف ، راجع : الإصابة ( ٢٨٥/٥ ) ، « وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟ فقال رسول الله : ليس هو منكم . هذا رجل من اياد ، تحنف في الجاهلية ، فوافى عكاظ والناس مجتمعون ، فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه » ، طبقات ابن سعد : الجزء الاول : القسم الثاني ( ص ٥٥ ) ، « وقد بكر بن وائل » ، محاضر الابرار ( ص ٤٨ وما بعدها ) ، البداية والنهاية ( ٢٣٠/٢ ) .

ومما يلفت النظر في الروايات الواردة عن حفظ الرسول لخطبة ( قس ) ، هو اشارتها الى أن النبي كان يحفظ نص الخطبة ، ولم يكن يحفظ الشعر الملحق بها . مع ان حفظ الشعر أيسر من حفظ النثر . ولعل الرواة رَووا ذلك لإظهار أن الرسول كان لا يقول الشعر ، وإنما كان يسمعه . ولكننا نجدهم من ناحية أخرى يروون أنه كان يتلو من الشعر المناسب ما شاء ان يتلو ، وأنه كان يستشهد به في كلامه ، وأنه كان يحفظ شيئاً من شعر الماضين والحاضرين . ولن يضير النبوة من حفظ الشعر شيئاً .

والنص المحفوظ لخطبة ( قس ) نص مختلف لم يتفق الرواة عليه . مما يدل على أنه لم يكن مدوناً ، وإنما روي بروايات مختلفة ، ثم دونت فيما بعد .

وأوصل بعض الاخباريين قساً الى القيصر ، فزعموا انه ذهب اليه واتصل به ، وان القيصر أكرمه وعظمه . وأنه سأله عن العلم قائلاً له : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فما افضل الادب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء في اخلاف وعده . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق . وهو كلام يثبتك أسلوبه وطبيعته عن أصله وفصله ، وله أصل يرجع الى الفلاسفة اليونان . ونسبوا له قبراً جعلوه في موضع ( رَوْحِينَ ) على مقربة من حلب في لحف جبل ينذر له <sup>٢</sup> .

ونجد حديث قيصر المزعوم مع ( قس ) ، في رواية أخرى على شكل آخر . وقد أهملت هذه الرواية اسم قيصر ، فلم تشر اليه ، واكتفت بلفظة ( قيل ) ، فقالت : « قيل لقس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ! قيل له : فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه » <sup>٣</sup> .

وقس هو مخترع أوجد للعرب أشياء عديدة على زعم أهل الاخبار ، أحدث لهم أموراً كثيرة . فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكل

١ شعراء النصرانية ( ٢ / ٢١١ ) ، الامالي ، للقالبي ( ٣ / ٣٧ ) « دار الكتب » ، العقد الفرید ( ٢ / ٢٥٤ وما بعدها ، ٢٩٠ وما بعدها ) .  
٢ شعراء النصرانية ( ٢ / ٢١٦ ) ، الاغانى ( ١٤ / ٤٠ وما بعدها ) .  
٣ العقد الفرید ( ٢ / ٢٩٠ وما بعدها ) .

عند خطبته على سيف أو عصا وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال : « أما بعد » ، وأول من كتب « إلى فلان بن فلان »<sup>١</sup> . وأول من قال : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ، فكل ما عرفه العرب من هذه الامور ، هو من صنعة قس وعمله . ثم انه كان أحد حكماء العرب ، وكان أسقف نجران ، وخطيب العرب كافة<sup>٢</sup> . وذكروا ان له ولقومه فضيلة ليست لاحد من العرب ، لان الرسول روى كلامه وموقفه على جملة الاورق بعكاظ وموعظته ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه<sup>٣</sup> ، وانه قال فيه : « يحشر أمة وحده »<sup>٤</sup> .

وجاء في رواية في تفسير قول الرسول : « يحشر أمة وحده » ، أو « يرحم الله قساً ، اني لأرجو ان يبعث يوم القيامة أمة واحدة » ، ان وفداً من إباد قدم على النبي : فسألهم عن قس ، فقالوا : هلك . فقال : رحمه الله ، كأنني أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق (أحمر) وهو يتكلم بكلام عليه حلابة ما أوجدني أحفظه . فقال رجل من القوم ، أنا أحفظه يا رسول الله . سمعته يقول : ايها الناس اسمعوا وعوا ... إلى آخر الخطبة ، وما جاء بعدها من شعر ، فقال رسول الله عندئذ قوله المذكور فيه<sup>٥</sup> .

ويختلف هذا الخبر بعض الاختلاف مع خبر آخر أشرت اليه قبل قليل ، فقد ورد في ذلك الخبر أن رسول الله كان يحفظ تلك الخطبة ، غير أنه لم يكن يحفظ الايات الملحقة بها ، وكان ( أبو بكر ) يحفظها ، فأعادها على مسامحة<sup>٦</sup> . كما يختلف عن رواية أخرى ، جاء فيها ان الوفد الذي قدم على الرسول كان وفد ( عبد القيس ) ، وأن الذي قرأ الشعر عليه هو أحد بني عبد القيس<sup>٧</sup> .

- 
- ١ المؤلف والمختلف ، للمرزباني (٣٣٨) ، بلسوغ الارب (٢/٢٤٦) ، الاغاني (٤٠/١٤ وما بعدها) مروج الذهب (١/٨٢) ، (٢/١٠٢) ، (دار الاندلس) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .
  - ٢ اللسان (٥٨/٨) ، شعراء النصرانية (٢/٢١١) .
  - ٣ بلوغ الارب (٢/٢٤٦) .
  - ٤ الاغاني (٤٠/١٤) .
  - ٥ الاغاني (٤٠/١٤ وما بعدها) ، المعارف (٦١) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .
  - ٦ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) ، مجمع الامثال ، للميداني (١/١١٧) .
  - ٧ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .

ويذكر بعض أهل الاخبار ، ان ( الجارود ) ، وكان في ضمن رجال وفد ( عبد القيس ) ، قال للرسول حين سأل عن ( قس ) : « فذاك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يارسول الله سيّطاً من أسباط العمر عمر ستمائة سنة، تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار» . ثم أخذ في وصفه وفي ذكر عقائده ، وفي لقياه لـ ( سمعان ) رأس الحواريين . وخلص بعد ذلك الى ذكر نص خطبته بسوق عكاظ، ومطلعها : « شرق وغرب» ، حتى انتهى منها ، ثم ألحق بها شعراً<sup>١</sup> . وهي خطبة تختلف تماماً عن الخطبة المعروفة التي تنسب اليه ، وان كانت على نمطها من حيث الاسلوب والافكار ، وفيها مصطلحات اسلامية ترد في القرآن الكريم . ولا استبعد ان تكون من وضع شخص آخر غير الجارود . وضعها في العصور العباسية ، للحث على الزهد .

والجارود من سادات عبد القيس ، وكان نصرانياً ، قدم على النبي سنة عشر في وفد عبد القيس الاخير ، وسرّ الرسول بإسلامه ، وكان حسن الإسلام صلماً على دينه ، وقتل بأرض فارس في خلافة عمر ، وقيل بقي الى خلافة عثمان<sup>٢</sup> .

ولو صح ما ذكروه من انه كان أسقفاً على نجران ، لوجب اخراجه اذن من الحنيفية وإدخاله في عداد النصارى . ولكن ليس مؤكداً انه كان اسقفاً على ذلك الموضع ، ويرى الاب (لامانس) احتمال كونه نصرانياً ، لان ما نسب اليه يبعث على هذا الظن<sup>٣</sup> . وقد أدخل الاب ( لويش شيخو ) قساً في جملة النصارى الجاهليين، وأورد أكثر ما نسب اليه في ترجمته<sup>٤</sup> . غير ان كثيراً من هذا المنسوب اليه منسوب إلى غيره . وقد اشار إلى من نسب اليهم العلماء .

وذهب ( شبرنكر ) إلى ان قساً كان من ( الركوسية ) ، وهم فرقة عرفهم اهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين ، شملت جاعة من الحائرین في امر دينهم ، ولذلك عمدوا إلى السياحة والترهب والانزواء<sup>٥</sup> . وقد حَسِبَهم العرب نصارى ، فأدخلوهم فيهم في اثناء كلامهم على هؤلاء<sup>٦</sup> .

- ١ البداية والنهاية ( ٢ / ٢٣٠ وما بعدها ) .
- ٢ الاصابة ( ١ / ٢١٧ وما بعدها ) ، ( رقم ١٠٤٢ ) .
- ٣ Ency., II, p. 1161, Sprenger, Leben, I, S. 45.
- ٤ شعراء النصرانية ( ٢ / ٢١١ وما بعدها ) .
- ٥ تاج العروس ( ٤ / ١٦٣ ) .
- ٦ Sprenger, Leben, I, S. 43.

ويرى (لامانس) انه لو كان قس شخصية تاريخية حقاً ، فإن زمانه لا يمكن ان يكون في ايام الرسول او في ايام مقارنة من ايامه . إذ لا يعقل عنده ان يتكون هذا القمص الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافية ، لو كان من المعاصرين او المقاربين له . ثم إن ايداً لم تكن في ايام الرسول كتلة واحدة ، حتى ينسب قس اليها . فلا بد اذن ان تكون ايام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن ايام الرسول<sup>١</sup> .

غير ان حجج (لامانس) المذكورة لا يمكن ان تكون سنداً يؤيد ادعائه في ان قساً كان شخصية خرافية ، او انه كان رجلاً حقاً ، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول . فقد روى الاخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غير سلمان من الصحابة ، لا يقل نسيجاً عن نسيج قصص قس ، فهل يتخذ هذا القمص حجة لانكار شخصية سلمان وغيره ممن ورد هذا القمص عنهم ؟ وهل يجوز ان نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب ان تكون ايامه بعيدة عن ايام الرسول .

ولدى الرواة أبيات ينسبونها الى بعض الشعراء الجاهليين ، هم : الاعشى ، والخطباء ، ولييد ، ذكر فيها اسم قس . وقد أشيد فيها بفصاحته وببلاغته وحكمته ، حتى جعل لييد لقمان دون قس في الحكم<sup>٢</sup> .

وورد اسم ( قس ) في هذا الشعر وفي أمثاله إن صح انه من شعر الجاهليين حقاً ، وورود اسمه في الحديث وفي الاخبار ، هو تعبير عن رأي اهل الجاهلية في خطيب مفوه عدت في نظرهم المثل الاعلى في الخطابة ومثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء عند اللاتين .

Ency., II, p. 1161.

١ قال لييد :

وأخلف قساً ليتنى ولعني وأعيى على لقمان حكم التدبر  
الإصابة ( ٢٨٥/٥ ) « قس » ، قال الاعشى :

وأحلم من قس وأجرى من الذي بنى الغيل من خفان أصبح حاردا  
وفي رواية أخرى :

وأحلم من قيس وأجرء مقديما  
لدى الدرع من ليث اذا راح حاردا  
ديون الاعشى ( ص ٤٩ ) « تحقيق R. Geyer » . المؤلف والمختلف ( ص ٣٣٨ ) ، وقال الخطباء :

وأقول من قس وأمضى اذا مضى من الرمح اذ مس النفوس نكالها  
المؤلف والمختلف ( ص ٣٣٨ ) .

وجميع هذا القصص المروي عن قس ، هو من النوع الذي يحتاج الى تمحيص . وقد نسبوا اليه شعراً ، زعموا انه قاله وهو يبكي بين قبرين بنى بينهما مسجداً ، هما قبراً أخويه ، على حين ان أكثر الرواة يقولون إن هذا الشعر لغيره ، وان قصة القبرين لا تخص قساً ، بل تخص أناساً آخرين ، وقد كانا في ايران وأصحابهما قبراً فيها في الاسلام . ورواة هذا الخبر ، هم رواة خطبة قس الشهيرة ، وهم محمد بن السائب الكلبي عن ابي صالح ابن عباس وجماعة آخرون أشار ( ابن حجر ) الى بعضهم في كتابه : « الإصابة في تمييز الصحابة » ، وقد ضعف ابن حجر هذه الطرق ، فقال : « وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس ، وفيه شعره وخطبته ، وهو في الطوال للطراني وغيرها . وطرقه كلها ضعيفة »<sup>١</sup> . ثم عرج بعد ذلك الى ذكر بعض الطرق التي وردت فيها خطبة قس .

واما ( زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبدالله بن قرط ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ) ، فهو من قريش من بني عدي ، لم تعجبه عبادة قومه ، فانتقدها وسخفها وهزىء منها ووقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الاوثان ، ونهى عن قتل المؤودة ، وامتنع من الذبح للأنساب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام . فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش منهم : ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيدالله بن جحش ، لاموا قومهم على عبادتهم الاصنام ، واتخاذ الانصاب وعبادة ما لا يضر ولا ينفع<sup>٢</sup> . وهم طائفة من المفكرين ، رأى بعضهم بلاد الشام ، واتصل ببعض المبشرين النصارى ، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج ، ولعله كان يقرأ ويكتب ، وله اطلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين . وترجع احدى الروايات سبب خروج ( زيد ) على عبادة قومه ، انه حضر يوماً وحضر معه في ذلك اليوم ( ورقة بن نوفل ) ، و ( عبدالله بن جحش ) و ( عثمان بن الحويرث ) ، عيداً من أعياد قريش ، عند صنم من أصنامهم ،

١ الاغانى ( ٤٠/١٤ وما بعدها ) ، الاصابة ( ٢٨٦/٥ ) .  
٢ ابن هشام ( ٢٤٤/١ وما بعدها ) ، ارشاد الساري ( ١٩٠/٦ ) ، أسد الغابة ( ٢٣٦/٢ ) ، طبقات الشعراء ( ص ٦٦ ) « طبعة ليدن » ، البداية والنهاية ( ٢٣٧/٢ ) ، ابن خلدون ، القسم الاول ، المجلد الثاني ( ص ٧٠٧ ) ، المسعودي ، مروج ( ٧٠/١ ) « محمد محيي الدين عبد الحميدي » الاعيانى ( ١١٣/٣ ) ، البخاري ( ٥٠/٥ ) ، المعارف ( ٢٧ ) .

كانوا يعظمونه ، ويعكفون عنده ، او يديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، وكانوا ينحرون له ، فلما خلد بعضهم إلى بعض وتصادقوا ، قالوا ليكنم بعضكم على بعض ، وانفقوا على ذلك ، ثم قال قائلهم : تعلمون والله ما قولكم على شيء ، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه . ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء . فخرجوا يطلبون ويسيرون في الارض يلتمسون اهل الكتاب «<sup>١</sup> .

وقد زار زيد الشام والبلقاء ، وعاش الى خمس سنين قبل البعث ، فهو من أولئك الرهط الثائرين على قومهم ، والذين أدركوا أيام الرسول . وقد نسبوا اليه شعراً في تسفيه عبادة قومه ، وفي فراقه دينهم وما لقيه منهم . وكان قد أوذى لمقاتله هذه في دين قومه ، حتى اكره على ترك مكة والنزول بـ ( حراء ) ، وكان ( الخطّاب بن نفيل ) عمه ، وقد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفائهم كلفهم ألاّ يسمحوا له بدخول البلدة وبمنعه من الإتصال بأهلها ، مخافة ان يفسد عليهم دينهم وان يتابعه احد منهم على فراق ما هم عليه . واضطر زيد الى المعيشة في هذا المحل ، معتزلاً قومه ، إلا فترات ، كان يهرب خلالها سراً ، لينذهب الى موطنه ومسكنه ، فكانوا اذا أحسوا بوجوده هناك ، ألموه وآذوه<sup>٢</sup> .

وورد في رواية ، يرجع روايتها سندها الى ( هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل ) ، اي الى حفيد ( زيد ) ، تذكر أن ( زيد ) خرج مع ( ورقة ابن نوفل ) يلتمسان الدين ، حتى انتهيا الى راهب بالموصل ، فسأله عن الدين ، فلم يقتنع بالنصرانية ، اما ( ورقة ) ، فافتنع بها وتنصر<sup>٣</sup> . وتذكر رواية أخرى ان ( زيد بن عمرو ) خرج الى الشام ومعه : ( ورقة بن نوفل ) ، و ( عثمان ابن الحويرث ) ، و ( عبيد الله بن جحش )<sup>٤</sup> . ويسذكر الرواة أن زيدا كان

- 
- ١ البداية ( ٢٣٨/٢ ) ، ابن هشام ، سيرة ( ٢٤٢/١ ) .
  - ٢ ابن هشام ( ٢٤٠/١ ) وما بعدها ( البيهقي ) ، بلوغ الارب ( ٢٥١/٢ ) وما بعدها ، ابن سعد ، الطبقات ( ١٦٢/١ ) « طبعة دار صادر » ، مروج الذهب ( ٧٠/١ ) « القاهرة ١٩٥٨ م » ، البداية ( ٢٣٨/٢ ) .
  - ٣ البداية ( ٢٣٨/٢ ) .
  - ٤ البداية ( ٢٤٣/٢ ) .

نديماً لورقة بن نوفل ، فات ورقة ، وخرج زيد الى الشام ، فقتله لحم وجدام<sup>١</sup> .  
ويذكر أهل الاخبار ان حرصه على الحنيفية وتمسكه الشديد بها ، حمله على  
السفر الى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة ، مبادئ ابراهيم الاصيله  
الحالية من كل درن وشائبة . فذهب إلى الموصل والجزيرة ، ثم طاف في بلاد  
الشام حتى انتهى إلى راهب بـ (ميفعة)<sup>٢</sup> ( بيعة )<sup>٣</sup> من أرض البلقاء أو (أيلة) ،  
فسأله عما قدم من أجله ، فأرشده إلى ان ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية ،  
فغادره وتركه ، وعاد يريد مكة موطنه . فلما توسط بلاد لحم أو جذام ، عدوا  
عليه وقتلوه . وقالوا أيضاً انه التقى في اثناء أسفاره هذه بأخبار اليهود وبعلماء من  
النصارى ، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه ، وما يرى فيه التوحيد  
الحالص ، ومبادئ ابراهيم ، لذلك لم يدخل في ديانة ما من تلك الديانتين ،  
حتى قتل<sup>٤</sup> .

وتذكر رواية من الروايات ، أن ( زيد بن عمرو بن نفيل ) مات بالسّم  
في بلاد الشام ، سمّه بعض ملوك غسان<sup>٥</sup> . وتجعل رواية أخرى مقتله بمكان يقال  
له ( ميفعة ) من أرض البلقاء بالشام ، وتذكر ان قتلته هم من بني لحم<sup>٦</sup> .  
وتذكر رواية ان ( ورقة بن نوفل ) ، لما سمع بخبر وفاته بكاه في شعر له<sup>٧</sup> .  
وهناك روايات أخرى تفيد رجوع زيد الى قومه بعد عودته من الشام، ووفاته  
وفاة طبيعية لا قتلاً بيد إنسان . « توفي وقريش تبني الكعبة قبل ان ينزل الوحي  
على رسول الله بخمس سنين » ، ودفن بأصل حراء<sup>٨</sup> .

- 
- ١ المعبّر (١٧٥) .
  - ٢ ابن هشام ( ٢٤٩/١ ) .
  - ٣ « بيعة » ، البداية ( ٢٣٨/٢ ) .
  - ٤ ابن هشام ( ٢٤٩/١ وما بعدها ) ، طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول  
( ص ٢٧٦ وما بعدها ) ، بلوغ الارب ( ٢٥١/٢ وما بعدها ) ، « فلما توسط أرض  
جذام عدوا عليه فقتلوه » المعبر ( ص ١٧٢ ) ، سير أعلام النبلاء ، للذهبي  
( ٩٠/١ وما بعدها ) ، ابن خلدون ( ٧٠٧/٢ وما بعدها ) ، المسعودي ، مروج  
( ٧٠/١ ) ، ارشاد الساري ( ١٧٢/٦ وما بعدها ) .
  - ٥ المسعودي ، مروج ( ٥٦/٢ ) .
  - ٦ البداية ( ٢٤١/٢ ) .
  - ٧ ابن هشام ( ٢٤٩/١ وما بعدها ) .
  - ٨ طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول ( ص ٢٧٧ ) ، البداية ( ٢٤١/٢ ) .

وفي رواية تظهر عليها سياء الصنعة ، أن الذي أرشد ( زيد بن عمرو ) الى الحنيفية ، حبر التقى به في بلاد الشام ، وعالم نصراني ، وذلك أنه كان قد سألها عن دين صحيح قويم ، فأرشداه الى الحنيفية دين ابراهيم . فدخل فيها وصار يرفع يديه الى الله ويقول : اللهم لاني أشهدك اني على دين ابراهيم<sup>١</sup> . ونجد في هذه الرواية أسئلة وجهها ( زيد ) الى الحبر في البحث عن الله وعن دينه الحق ، وأجوبة الحبر عليها . كما نجد أسئلة أخرى ذكر أنه وجهها الى العالم النصراني ، ونجد أجوبة ذلك العالم عليها . وكيف أنهما دللاه على الحنيفية<sup>٢</sup> .

وذكر ( ابن حبيب ) ان زيدا ( أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان )<sup>٣</sup> . وقال عنه ( ابن دريد ) ، وكان قد « ترك دين العرب في الجاهلية وقلاه »<sup>٤</sup> . وقصد بـ ( دين العرب ) الوثنية ولا شك . وزعم انه « كان يحبي المؤودة . يقول للرجل اذا أراد ان يقتل ابنته مهلاً : لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها اليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها »<sup>٥</sup> . وقيل انه كان يقول : « اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب اليك سجدت اليه . ولكني لا أعلمه . ثم يسجد على راحته »<sup>٦</sup> . وانه كان « يقول : إلهي إله ابراهيم ، وديني دين ابراهيم . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى ! انكاراً لذلك واعظاماً له »<sup>٧</sup> . أو « يا معشر قريش : أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى فيه ، وتذبحوها لغيره ! والله ما أعلم على تظهر الأرض أحداً على دين ابراهيم غيري »<sup>٨</sup> . ويستقبل القبلة ثم يقول :

- ١ الطبري ، تفسير ( ٣٠٦/٣ ) ، صحيح البخاري ( ٥٠/٥ ) ، « مطبعة الازهر بمصر » ،
- ٢ الاغانى ( ١٢٦/٣ ) وما بعدها ( « دار الكتب المصرية » ، البداية ( ٢٣٨/٢ ) .
- ٣ المحبر ( ص ١٧١ ) .
- ٤ الاشتقاق ( ص ١٠٣ ) .
- ٥ طبقات ابن سعد ، الجزء الثالث : القسم الاول ( ص ٢٧٦ وما بعدها ) .
- ٦ المحبر ( ص ١٧١ ) .
- ٧ أسد الغابة ( ٢٣٦/٢ ) ، طبقات الشعراء ( ٦٦ ) « طبعة ليدن » ، بلسوغ الارب ( ٢٤٨/٢ ) ، البداية والنهاية ( ٢٣٧/٢ ) ، ارشاد الساري ( ١٧١/٦ ) وما بعدها (
- ٨ الاغانى ( ١١٩/٣ ) وما بعدها (

أنفي لرب البيت عان راغم مها يُجشمني فإني جاشم  
عدت بما عاذ به إبراهيم مستقبل القبلة وهو قائم<sup>١</sup>

وروى ان أسماء بنت أبي بكر « قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري . ثم يقول : اللهم اني لو أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به . ولكني لا أعلم . ثم يسجد على راحته »<sup>٢</sup> . ثم يصلي الى الكعبة ويقول : إلهي إله ابراهيم ، وديني دين ابراهيم<sup>٣</sup> .

وذكر ( ابن دريد ) أن ( زيد بن عمرو بن نفيل ) ، أدرك أيام الرسول ، ثم قال : « وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الوحي قد حجب اليه الانفراد ، فكان يخلو في شعاب مكة ، قال : فرأيت زيد بن عمرو بن نفيل في بعض المشاعب ، وكان قد تفرّد أيضاً ، فجلست اليه وقربت اليه طعاماً فيه لحم ، فقال لي يا ابن أخي اني لا آكل من هذه الذبائح »<sup>٤</sup> .

وذكر ( ابن دريد ) ، أن زيد بن عمرو قال شعراً في تجنبه الأصنام، هو :

فلا عزى أدين ولا ابنتها ولا صنمي بني عمرو أزور  
أرباً واحداً أم ألف ربّ أدين اذا تقسمت الأمور<sup>٥</sup>

وفهم من هذا الشعر أن (عزى) ، إلهة ، أي انثى ، وان لها ابنتين اثنتين . ولم يشر ( ابن دريد ) الى اسميهما .

وقد صيغت الرواية المتقدمة التي تشير الى التقاء الرسول بزید في شكل آخر . صيغت بهذه الصورة : « أتى زيد بن عمرو بن نفيل على رسول الله صلى الله

- 
- ١ كتاب نسب قريش ، للزبيري ( ص ٣٦٤ ) .
  - ٢ البداية ( ٢٣٧/٢ ) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام ( ٥٤/١ ) . البغدادي ، خزانة ( ٩٩/٣ ) .
  - ٣ المصدر نفسه .
  - ٤ الاشتقاق ( ٨٤ ) ، ارشاد الساري ( ١٧١/٦ ) وما بعدها .
  - ٥ الاشتقاق ( ٨٤ ) ، وورد :  
أرباً واحداً أم ألف رب  
عزلت اللات والعزى جميعاً  
فلا عزى أدين ولا ابنتيهما  
أدين اذا تقسمت الامور  
كذلك يعقل الجلد الصبور  
ولا صنمي بني عمرو أزور

عليه وسلم ، ومعه زيد بن حارثة ، وهما يأكلان من سفره لهما ، فدعواه لطمعهما ، فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي : أنا لا آكل مما ذبح على النصب<sup>١</sup> .  
 وورد خبر التقاء ( زيد ) مع رسول الله في رواية أخرى . يرجع روايتها سندها الى ( زيد بن حارثة ) . يذكرون أنه قال : خرجت مع رسول الله في يوم حار من أيام مكة ، وهو مردفي ، فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل ، فحيسا كل منا صاحبه . فقال النبي : يا زيد مالي أرى قومك قد شفقوك ؟ فأجابته زيد ، بأنه لا يهتم بذلك ، وأنه خرج يبتغي دين الله ، حتى قدم على أحبار خيبر ، فوجدهم يعبدون الله ويشركون به . ثم سأل أحد الأخبار ، وهو شيخ منهم عن الدين الذي يبتغيه ، فقال له : ما نعلم أحد يعبد الله به إلا شيخاً بالحيرة ، فخرج اليه . فلما كلمه قال له : إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك قد بعث نبي ، قد طلع نجمه . فعاد الى مكة<sup>٢</sup> . ولو صح هذا الخبر لوجب أن يكون زيد قد أدرك مبعث الرسول . ولكن أهل الأخبار مجمعون على أنه توفي قبل المبعث . وإن الرسول نفسه قال عنه : يبعث يوم القيامة أمة واحدة . وعلى الخبر سياء الصنعة والتزيق .

وروي عنه ان قومه كانوا اذا دعوه الى وليمة ، كان يأبى ان يأكل منها قائلاً : « اني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه »<sup>٣</sup> . وهكذا كان يقاطع أكل لحوم الحيوانات التي تذبح للأصنام . ويشاركه في الامتناع عن أكل لحوم هذه الذبائح الأحناف الآخرون ، فقد روي ان ورقة بن نوفل كان لا يأكل من لحوم هذه الذبائح أيضاً للسبب المذكور<sup>٤</sup> .  
 ويذكر أهل الأخبار ان ( زيد بن عمرو بن نفيل ) كان اذا خلص الى البيت استقبله ثم قال : لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، البر أرجو لا الخال ، وهى مهجر لمن قال . ثم يقول :

عدت بما عاذ به ابراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم<sup>٥</sup>

- ١ البداية ( ٢٣٨/٢ ، ٢٤٠ ) .
- ٢ أسد الغابة ( ٢٣١/٢ ) .
- ٣ البخاري ( ٥٠/٥ ) .
- ٤ الاغانى ( ١١٩/٣ ) .
- ٥ الاغانى ( ١١٧/٣ ) .

أو « لبيك حقاً ، تعبداً ورقاً ، عدت بما عاذ به ابراهيم »<sup>١</sup> .  
وذكر انه كان يأمر بالتوحيد وعبادة إلهه واحد . من ذلك قوله :

لا تعبدنّ إلهاً غير خالقكم وإن دعيتم فقولوا دونه حدداً<sup>٢</sup>

وزعم انه كان يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة ، فصلى وسجد سجدةً ، ثم يقول : هذه قبلة ابراهيم واسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له ولا آكل ما ذبح له ، ولا أستقسم بالأزلام ، وانما أصلي لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي ، فيقول : لبيك لا شريك لك ، ولا ندّاً لك . ثم يدفع من عرفة ماشياً ، وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقاً<sup>٣</sup> .

ويروي أهل الأخبار أقوالاً أخرى لزيد ، كما رووا له أشعاراً زعموا أنه قالها ، وهي في هذه الأمور التي ينسبونها الى الأحناف من ذكر لديانة ابراهيم وللتوحيد ومن ذمّ الى الأصنام ومن اصلاح لحال مجتمع ذلك اليوم<sup>٤</sup> . كما رووا له أبياتاً من شعر زعموا أنه نظمها يعاتب فيه زوجته ( صفية بنت الحضرمي ) ، لأنها كانت تمنع في خروجه عن مكة وفي سفره الى الخارج النّاساً لهذا الدين<sup>٥</sup> .

وتفيد رواية من روايات أهل الأخبار بأن ( زيد بن عمرو بن نفيل ) ، كان في جملة من اشترك في ( حرب الفجار ) ، تقول إنه كان على رأس ( بني عدي ) وذلك في يوم شمطة<sup>٦</sup> .

وروي أن رسول الله سئل عن ( زيد بن عمرو ) ، فقال : « يبعث أمة وحده يوم القيامة »<sup>٧</sup> . بل روي أنه ترجم عليه ، وأنه قال : « رأيت في الجنة يسحب ذبولاً »<sup>٨</sup> .

- 
- ١ الاغانى ( ٢٣٨/٢ ) .
  - ٢ تاج العروس ( ٣٣١/٢ ) ، ( حدد ) .
  - ٣ البداية ( ٢٣٩/٢ ) .
  - ٤ الاغانى ( ١١٧/٣ ) .
  - ٥ ابن هشام ، سيرة ( ٢٤٧/١ ) .
  - ٦ البلاذري ، أنساب ( ١٠٢/١ ) .
  - ٧ البخاري ( ٥٠/٥ ) ، المعارف ( ٢٧ ) ، البغدادي ، خزانة ( ١٠٠/٣ ) .
  - ٨ ابن سعد ، طبقات ( ٢٧٣/٣ ) .

وينسب أهل الأخبار لزيد شعراً، هو من هذا الشعر الذي ينسبونه الى الأحناف ،  
 ذي الطابع الديني ، من بحث عن توحيد ، وحث على عبادة إله واحد ، وقرار  
 بحساب وكتاب . وأمثال ذلك<sup>١</sup> . وقد نسب بعض من منه الى (أمية بن أبي الصلت) ،  
 ونسب بعض منه الى شعراء آخرين . كما ان الرواة يروون هذا الشعر بقراءات  
 مختلفة .

ومن ولد زيد رجل كان له سبق وقدم في الاسلام ، هو سعيد بن زيد بن  
 عمرو بن نفيل . كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين ، شهد المشاهد والأحداث  
 المهمة ، إلا بدرأ ، فإنه لم يكن حاضراً بالمدينة إذ ذاك . وهو أحد العشرة  
 المبشرة . ذكر انه أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم . ولا بد ان يكون  
 لرأي والده في دين قومه وما أبداه من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم أثر في  
 نشوء هذا الابن وفي اقدمه مع السابقين على الدخول في الاسلام ، بعد ان كان  
 والده قد سبق لإسلامه برحيله الى الآخرة بسنين . وأمه ( فاطمة بنت بعجة بن  
 أمية بن خويلد بن خالد بن اليعمر ) من خزاعة . ولسعيد أخت اسمها عاتكة  
 بنت زيد<sup>٢</sup> .

وذكر ( ابن هشام ) ان زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ،  
 وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، اتفقوا في الرأي والعقيدة ،  
 وتعاهدوا على نبد عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال ، وتصادقوا ، وكونوا  
 عصابة خرجت على عبادة قريش ، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم ، ولم يشاركوهم  
 في عبادتهم ، وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابئين<sup>٣</sup> .

أما عبيد الله بن جحش بن رثاب بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، فقد  
 بقي مرتاباً في دين قومه ، بعيداً عنهم وعن عبادتهم ، حتى اذا ظهر الإسلام  
 دخل فيه ، ثم هاجر مع من هاجر الى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت  
 أبي سفيان ، وكانت مسلمة كذلك . فلما صار في الحبشة ، فارق الإسلام

١ البداية ( ٢٤١/٢ ) وما بعدها ) .

٢ كتاب نسب قريش ( ٣٦٥ ) ، الاستيعاب ( ٣٦٥/٤ ) ، الاصابة ( ٤٤/٢ ) ، ( رقم  
 ٣٢٦١ ) .

٣ ابن هشام ( ٢٤٢/١ ) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، المحبر ( ١٧١ ) ،  
 ( ١٧٥ ، ٢٣٧ ) ، الروض الانف ( ١٤٥/١ ) .

وتنصر ، وهلك هناك <sup>١</sup> .

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم ، ثم رأى الذهاب الى الروم ، فذهب اليهم ، وتقرب الى قيصر ، وحسنت منزلته عنده ، وتنصر ومنحه لقب (بطريق) ، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة ، ولكن قومه أبوا عليه ذلك ، فلم يتم له مراده ، ومات بالشأم مسموماً ، سمّاه عمرو بن جفنة الغساني <sup>٢</sup> .

وذكر (الزبيري) ، أن والده (عثمان بن الحويرث) ، هي (تماضر بنت عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح) <sup>٣</sup> . وأنه خرج الى (قيصر فسأله أن يملكه على قريش ، وقال : أحلهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل . وكتب له عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش قيصر ، وهمتوا أن يدينوا له ، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : إن قريشاً لقاح ، لا تملك ولا تملك . فاتسعت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ، فمات عند ابن جفنة ، فاتهمت بنو أسد ابن جفنة بقتله <sup>٤</sup> . وكان ابن جفنة حبس أباً ذئب عنده ، وأباً أحيحة بسبب عثمان بن الحويرث <sup>٥</sup> . ويقصدون بابن جفنة : عمرو بن جفنة الغساني <sup>٥</sup> .

وتذكر إحدى الروايات ، ان وفاة (عثمان بن الحويرث) كانت بالشأم ، وقد مات عند قيصر ، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاثين سنة ، أو نحوها . وقد رثاه (زيد بن عمرو بن نفيل) <sup>٦</sup> ، وورقة بن نوفل <sup>٧</sup> .

ويعد (عثمان بن الحويرث) من أشرف (بني أسد) من قريش <sup>٨</sup> . وقد كان مع (خويلد بن أسد) على رأس (بني أسد) في (حرب الفجار) <sup>٩</sup> .

- ١ ابن هشام (٢٤٣/١) ، المحبر ٧٦ ، ٨٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، البداية (٢٤٣/٢) .  
L. Krehl, Das Leben Muhammad, S. 14.
- ٢ ابن هشام (٢٤٣/١) ، الاشتقاق (ص ٥٩) ، المحبر (١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١) ،  
١٧٥ ، ٣٠٧) ، الروض الانف (١٤٦/١) .
- ٣ كتاب نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، وذكر صاحب «المحبر» أن أمه مسن  
الجبشيات (٣٠٧) .
- ٤ كتاب نسب قريش (٢١٠) .
- ٥ جمهرة ابن حزم (١٩٠) .
- ٦ البداية (٢٤٣/٢) .
- ٧ كتاب نسب قريش (٢١٠) .
- ٨ المحبر (١٦٥) .
- ٩ المحبر (١٧٠) .

وكان ينادمه ( شيبه بن ربيعة بن عبد شمس). وقد تنصرا جميعاً ، وقتل شيبه يوم بدر كافراً<sup>١</sup>.

وأما ( أمية بن أبي الصلت ) ، فهو أحسن الخنفاء حظاً في بقاء الذكر ، بقي كثيراً من شعره ، وربما وضع كثير منه على لسانه ، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره . وسبب ذلك بقاءه الى ما بعد البعث ، واتصاله بتاريخ النبوة والاسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الاسلام . لم يكن مسلماً ولم يرض أن يدخّل في الإسلام ، لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن ينزل الوحي عليه ، فيكون نبي العرب والعالم أجمعين . فلما رأى النبوة في الرسول ، حسده ، وأثار المشركين عليه ، ورثى قتلاهم في معركة بدر ، وحرص قريشاً عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه القحفيون . لم يمت مسلماً ، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه : بل مات كافراً بالديانتين<sup>٢</sup>.

وقد جاء في بعض الروايات ، ان وفاة ( أمية ) ، كانت في السنة الثانية من الهجرة<sup>٣</sup> . وورد في روايات أخرى أنه توفي سنة تسع للهجرة ، كافراً قبل أن يسلم القحفيون<sup>٤</sup> .

ورثاؤه قتلى معركة بدر ، محفوظ في قصيدة حائية ، مطلعها :

الآن بكيت على الكرام م بني الكرام أولى المادح  
كبكا الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الصوادح

- ١ المحبر (١٧٥) .
- ٢ الاغانى (١٢٠/٤ وما بعدها) ، « طبعة دار الكتب المصرية » ، ابن هشام (١١/١) ، ٤٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨ ، (١٦٠/٢) ، ٣٢١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، (٦٥/٣) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، شرح السيرة النبوية ، لابي ذر بن محمد بن مسعود الخشني (١/٢٣ ، ٢٤) ، « تحقيق بولس بروفله » نسب قريش (٩٨) ، جمهرة الانساب (٢٥٧) ، ابن قتيبة ، الشعراء (٤٢٩) ، شعراء النصرانية (٢/٢١٩ وما بعدها) ، الاغانى (٦٩/١٦) ، الحيوان للجاحظ (٢/٣٢٠) ، خزانة الادب (١١٩/١) ، الشعر والسعراء (١٧٦) ، النووي ، تهذيب الاسماء (١/١٢٦) ، Ency. IV, p. 997.
- ٣ تاريخ الخميس (١/٤١٢) ، الاغانى (٤/١٢٤ ، ١٢٩) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٩) .
- ٤ الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين ، ودفنهم بالقليب، وفيهم ( عتبة ) و ( شيبه ) ابنا ( ربيعة بن عبد شمس ) ، وهما ابنا خالة أمية . وقد ذكر بعض الرواة ان الذي حمله على قول هذا الشعر ، هو انه لما وصل الى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر ، وكان ذاهباً الى المدينة يريد الدخول في الاسلام ، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين : هل تدري ما في هذا القليب ؟ قال : لا . قيل : فيه شيبه وربيعة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته ، وشق ثوبه ، وبكى ، وعاد الى الطائف<sup>١</sup> .

وذكر ان أمية نال في بيتين من هذه القصيدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملها ( ابن هشام ) صاحب السيرة<sup>٢</sup> . وذكر أيضاً ان النبي نهى عن روايتها<sup>٣</sup> . ولكن الرواة رووها وحفظوها ودوتوها في الكتب ، فكيف تجرؤوا على حفظها وتدوينها لو صح ان النبي نهى عن روايتها على نحو ما يزعمه أهل الأخبار .

وأمية مثل سائر المتألمين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر الى الشام ، واتصل بأهلها ، وأوى الى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهجه من مشكلات دينية وعما كان يجول في خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم . وكان تاجراً ، يذهب مع التجار في قوافلهم الى تلك السديار التي كانت في أيدي الروم . ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات التي وردت في ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً ، قرأ الكتب ، ووقف عليها ، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين، وشكته في عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات. وقد بدا هذا التأثير في الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة في شعره وفي الأمثلة والقصص المترج من الكتابين : للعهد القديم والعهد الجديد ومن موارد

- ١ ابن هشام ( ٤٠١/٢ وما بعدها ) ، راجع القصيدة في ( ص ٢٠ ) من ديوان أمية ، بيروت ١٩٣٤ ، بلوغ الأرب ( ٢٥٦/٢ ) ، خزانة الادب ( ١١٩/١ ) ، الحيوان ، للجاحظ ( ٣٢٠/٢ ) ، الشعر والشعراء ( ١٧٦ ) ، البيان والتبيين ( ٢٩١/١ ) ، المسعودي ، مروج ( ٧٣/١ ) « محمد محيي الدين عبد الحميد » « ١٩٥٨ م » ، الاغانى ( ١١٩/٣ وما بعدها ) ، خزانة الادب ( ٣٩/٢ وما بعدها ) ، الاغانى ( ٤/١٢٢ ) ، الاصابة ( ١٣٤/١ ) ، ( رقم ٥٥٢ ) .
- ٢ ابن هشام ( ٤٠٥/٢ ) .
- ٣ الاغانى ( ١٢٣/٤ ) « ذكر أمية بن أبي الصلت ونسبه وخبره » ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ( ١١٣/١ ) .

أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب<sup>١</sup> .  
وقد ورد في بعض الأخبار ان أمية سافر مرة مع أبي سفيان والد معاوية في  
تجارة الى بلاد الشام ، فكسان كلما نزل منزلاً أخذ فيه سفراً له يقرأه على من  
معه ، كما كان يزور علماء النصارى ويتباحث معهم ، وكان يلبس ثوبين أسودين  
حيناً يقابلهم<sup>٢</sup> . ولم تذكر الرواية شيئاً عن السفر أو الأسفار التي كان يقرأ منها  
أمية ويشرحها لمن معه من التجار . وتذكر رواية أخرى انه كان قد بلغ مع  
( أبي سفيان ) غزاة أو ( ايلياء )<sup>٣</sup> .

ولأمية في هذا اليوم ديوان ضم أكثر ما نسب اليه من شعر . كما ان في بطون  
كتب الأدب والأخبار أشعاراً أخرى لم يرد لها ذكر في هذا الديوان . ومعظم  
شعره هو عن الدين والآخرة وعن الجنة والنار والحساب والكتاب ، وقد تضمن  
إشارات الى حوادث وقعت في ايامه ، أو في ايام قريبة من ايامه مثل قصة الفيل ،  
كما تضمن بعض قصص الأنبياء ، ولتعرض شعره الى هذه النواحي نعت بشاعر  
الآخرة<sup>٤</sup> .

ومما ذكره الأخباريون ورواة شعر أمية من أمثلة على استعماله للكلم الغريب ،  
انه استعمل ( الساهور ) للقمر ، وهي كلمة لا تعرفها العرب ، وانه ذكر  
( السلطيط ) ، اسماً لله تعالى . وانه أطلق كلمة ( التفرور ) على الله تعالى في  
موضع آخر من شعره ، وانه سمى السماء ( صاقورة ) و ( حاقورة ) وانه استعمل  
أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولعه هذا باستعمال الغريب ، رفض علماء اللغة  
الاحتجاج بشعره<sup>٥</sup> .

- ١ الاغانى ( ١٢١/٤ وما بعدها ) « طبعة دار الكتب المصرية » ، « وكان يحكى في  
شعره قصص الانبياء ، ويأتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، يأخذها من الكتب  
المتقدمة ، أو بأحاديث من أحاديث أهل الكتاب « الشعر والشعراء ( ٣٦٩/١ ) .
- ٢ البداية والنهاية ، لابن كثير ( ٢٢٠/٢ ) ، الاغانى ( ١٢٣/٤ وما بعدها ) ، دار  
الكتب المصرية .
- ٣ البداية والنهاية ( ٢٢٤/٢ ) .
- ٤ تاريخ الادب العربي ، لبروكلمن ( ١١٣/١ ) « الترجمة العربية » ، عيون الاخبار ،  
لابن قتيبة ( ٣٧٤/٦ ) ، الحيوان ( ٣٢١/٧ ) « عبد السلام محمد هارون » ،  
البيان والتبيين ( ٢٩١/١ ) .
- ٥ الاغانى ( ١٢١/٤ وما بعدها ) ، شعراء النصرانية ( ٢١٩/٢ ) ، ديوان أمية  
فحول الشعراء ، « جمع بشير يموت » « بيروت ١٩٣٤ م » ( ص ٥ وما بعدها ) ،  
سيرة ابن هشام ( ٤٨/١ ) .

والساحور ، كلمة آرامية الأصل من أصل (سهرو) Sahro ، بمعنى القمر ، أي تماماً بالمعنى الوارد في شعر أمية<sup>١</sup> .

وهذا الشعر المنسوب الى أمية وغريبه خاصة مادة مهمة جداً تجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء في أخبار الرواة عن هذه الكلمات وعن أصولها ومواردها الأولى ، إن صح أنها من أشعار تلك الأيام حقاً ، إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات الى معرفة منابع التي استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ومدى تأثيره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التي كانت في مكة وفي خارج جزيرة العرب قبيل الاسلام .

وقد روى الأخباريون قصصاً عن التقاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معالم النبوة فيه ، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظرهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة ، يقولون له : كادت النبوة تكون فيه ، لولا بعض النقص في علاماتها عنده ، كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر ، لتنظيفه ، وتهيئة النبوة فيه . ولكنها عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له<sup>٢</sup> . وقد حاكى أهل الأخبار في قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول<sup>٣</sup> . كذلك رووا أنه كان يتفرد في لغات الحيوانات ، فيعرف ما تقوله وما تريده ويقصه على الناس وانه كان يسخر الجن ، وكانت تطيعه ، وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب<sup>٤</sup> . فجعلوه بأخبارهم هذه في مرتبة تضاهي سليمان في علمه بمنطق الطير وبقية الحيوانات<sup>٥</sup> . وذكر ( ابن دريد ) : « كان بعض العلماء يقول له لولا النبي صلى الله عليه وسلم ، لادعت ثقيف أن أمية نبي ، لأنه قد دارس النصرارى وقرأ معهم ، ودارس اليهود وكل الكتب قرأ<sup>٦</sup> » .

وتشبه قصة تنظيف الطيرين لقلب أمية ، وهي القصة التي أشرت اليها قبيل

- ١ غرائب اللغة العربية ( ص ١٨٩ ) .
- ٢ الاغانى ( ١٢٣/٤ وما بعدها ) ، شعراء النصرانية ، الجزء الثاني ( ص ٢١٩ ) .
- ٣ ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ( ٢٢٠ وما بعدها ) « دار المعارف » .  
Sprenger, Leben, I, S. 119, M. cl. Huart, Le Livre de la Création et de L'histoire, I, pp. 55, 153, 155, 156, 190, 191, 195.
- ٤ البداية والنهاية ( ٢٢٧/٢ وما بعدها ) .
- ٥ النمل ، الآية ١٥ وما بعدها .
- ٦ الاشتقاق ( ص ١٨٤ ) .

قليل ، خبر ( حليلة السعدية ) مرضعة الرسول لصدر النبي . ورواة قصة شق صدر أمية وتنظيف قلبه هم من أهل الطائف ، ويرجعون سند قصتهم الى أخت أمية المسماة ( الفارعة ) ، « وكانت ذات لُبّ وعقل وجمال ، وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بها معجباً »<sup>١</sup> ، وقد وفدت عليه ، فلما سألها عن شعر أخيها كما يقول الرواة ، قصت عليه قصة الطيرين ، كما قصت عليه قصة وفاته ، فقال رسول الله : « ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها »<sup>٢</sup> .

ويشير القصص الوارد عن التقاء ( أمية ) بالأخبار وبالرهبان وباتصاله بهم ، الى أن أمية كان يرجو ان يكون نبياً ، وأنه كان يعتقد بقرب ظهور نبي وتأمله أن يكون هو ذلك النبي المرتجى :

ألا نبيّ منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا<sup>٣</sup>

وقد كسف وتألم كثيراً وأكل الحسد قلبه ، حين فلت الأمر منه ، اذ سمع بإعلان الرسول رسالته ، ودعوة الناس الى دين الله ، الذي كان أمية نفسه يدعو اليه . وقد ورد أنه لما سمع بنبوة الرسول قال : « إنما كنت أرجو ان اكونه »<sup>٤</sup> .

ويروي أهل الأخبار أن أمية كان قد مات وهو معتقد بأن الحنيفة حق إذ روى أنه قال في مرض موته ، « قد دنا أجلي ، وهذه المرضة فيها منيتي وأنا أعلم ان الحنيفة حق ، ولكن الشك يداخلني في محمد . وقال : لا برىء فأعتذر ولا قوي فأنتصر » .

وفي جملة ما روه عنه ، انه عرف مجيء يومه من نعيب غراب ، نعب على مقربة منه . فحدث القوم بما سمعه من الغراب ، وكان يعرف منطقهم ، وقال لهم

- ١ البداية والنهاية ( ٢٢٤/٢ وما بعدها ) .
- ٢ البداية والنهاية ( ٢٢٤/٢ وما بعدها ) ، نهذيب ابن عساكر ( ١٢٧/٣ ) ، مروج ( ٥٧/١ وما بعدها ) ، الطبرسي ، مجمع ( ٦٣/٧ وما بعدها ) ، الطبري ، تفسير ( ١٢١/٩ ) « طبعة الباني » ، تفسير ابن كثير ( ٢٦٤/٢ ) ، شرح الشهاب على البيضاوي ( ٢٣٦/٤ ) .
- ٣ البداية والنهاية ( ٢٢٧/٢ ) تهذيب ابن عساكر ( ١٢٧/٣ ) ، تاريخ الخميس ، ( ٤١٢/١ ) .
- ٤ الاغاني ( ١٢٣/٤ وما بعدها ) .

انه سيموت وذكر علامة ذلك ، فكان ان مات على نحو ما قال للقوم<sup>١</sup> . وذكر أيضاً انه لما كان على فراش الموت محتضراً أفاق عدة مرات ، وكان يتلو في كل مرة : « لبيكما لبيكما ، ها أنذا لديكما » ، ثم يتلو هذا الكلام بكلام آخر فيه توسل وتضرع الى الإله ، الى ان أفاق للمرة الأخيرة ، فقال شعراً يبين فيه ان الموت أمر لا بد منه ، وانه هالك في هذه المرة لا محالة ، ثم هلك ، دون ان يؤمن بالرسول<sup>٢</sup> .

وهذا القمص الزارد عن أمية ، هو - بالطبع - من القصص المصنوع الموضوع ، مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوي القلوب الطيبة من الرواة والأخباريين ، فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الاسرائيليات والأساطير ، وروي على انه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب .

ولا أستبعد ان يكون هذا القمص قد ظهر في ايام الحجاج عصبية وتقرباً اليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف ، وكان أمية من ثقيف كذلك . وقد أنتج الموضوعون في ايامه شيئاً كثيراً من الأخبار في قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا شيئاً في ذمها وفي ذم رجالها نكايه به .

وقد يكون في قول ( الحجاج ) حين سئل عن شعر أمية ، شيء من التوجع والتألم أو المبالغة في تقديره حين قال : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراسُ الكلام » . وقد يكون كلام الحجاج غير ذلك ، لو كان أمية من قبيلة أخرى .

ونحن نستطيع ادخال قول من قال عن ( أمية ) « قيل انه كان نبياً »<sup>٣</sup> في جملة هذه الدعاوى التي وضعت في هذا العهد ، للرفع من شأن ( ثقيف ) ومن الرد على المتهجمين عليها الطاعنين حتى في نسبها الذين جعلوا ( ثقيفاً ) من بقية ( ثمود ) ، وأيدوا قولهم هذا بحديث زعموا ان الرسول قاله : « ثقيف من

١ البداية والنهاية ( ٢٢٧/٢ ) .  
٢ الاغانى ( ١٢٥/٤ ) وما بعدها ، ابن سلام ، طبقات فحول ( ص ٢٢٠ وما بعدها ) ،  
الاصابة ( ١٣٤/١ ) ، ( رقم ٥٥٢ ) .  
٣ تهذيب ابن عساكر ( ١١٥/٣ ) .

ثمود « ١ ، وجعلوه من عبد لأبي رغال ، وأبو رغال نفسه الذي نسب عبده  
إليه ، أي جد ثقيف ، هو في نظر العرب وقريش خاصة سبّة ٢ .

ويذكرون عنه انه بعد ان صبأ عن قومه وتحنف ، لبس المسوح على زي  
المترهبين الزاهدين في هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ، ليستلهم منها العلم  
والحكمة والرأي الصحيح ، ثم حرّم الحمر على نفسه مثل بقية المتألهين ، وتجنب  
الأصنام ، وصام ، والتمس الدين ، وذكر ابراهيم واسماعيل ، وانه كان أول  
من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : «باسمك اللهم» ،  
وهي الجملة التي نسخت في الاسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم » ٣ .

ويذكر أهل الأخبار ان أمية أخذ جملة : « باسمك اللهم » من شيخ كان  
منطويلاً على نفسه في بركة نائية ، وذلك حينما ألح عليه قوم كانوا معه من قريش  
في غير لهم ، كانت قد نفرت ، بأن يجد طريقة لطرد حيّة كانت تظهر بين  
أبلمهم فتنفرها ، فذهب الى ذلك الشيخ واستشاره في طريقة تبعد عنهم أذى تلك  
الحيّة ، فأشار عليه باستعمال تلك الجملة ، فهربت الحيّة ونفرت منهم ، وقد  
كان سبب ظهور تلك الحيّة كما يذكر أهل الأخبار ، هو أن رجلاً من القوم  
هو : (حرب بن أمية بن عبد شمس) كان قد قتل حيّة فقررت زميلتها الانتقام  
من قتلها ، فقتلته الجن انتقاماً منه بثأر تلك الحيّة . وهربت الجن عند سماعها  
تلك الجملة . وإليه أشير كما يقول أهل الأخبار بقولهم :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فحرب هذا المذكور في هذا البيت ، هو حرب بن أمية ، وأما الشيخ فكان  
رجلاً من الجن .

- 
- ١ الاغاني ( ٣٠٧/٤ ) « دار الكتب » .
  - ٢ الاغاني ( ٣٠٢/٤ ) « دار الكتب » .
  - ٣ المسعودي ، مروج ( ٥٧/١ وما بعدها ) ، ديوان ، أمية « المقدمة » لبشير يموت  
« بيروت ١٩٣٤ » ، ابن خلدون ( ١٧٧/١ وما بعدها ) ، ( بيروت ١٩٦١ م ) ،  
التنبيه والاشراف ( ٣٥٩ ) ، ( مكتبة الخياط ) .
  - ٤ الحيوان للدميري ( ١٩٥/٢ ) ، الاغاني ( ١٢٢/٤ وما بعدها ) ، ( دار الكتب  
المصرية ) .

ويُذكر أنه لم يكن يرتضي من الأديان غير دين الحنيفة ديناً . وأنه قال ذلك في شعر له :

كل دين يوم القيامة عند الله ، إلاّ دين الحنيفة ، زوراً<sup>١</sup>

وأنه كان يعظم الله في شعره ويكبره ويحمده ، ويرى أنه إلّاه واحد لا شريك له ، وأن من يشرك به أحداً فقد ظلم نفسه :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلماً<sup>٢</sup>

وهناك من يروي أن ( النابغة الجعدي ) ، كان يدعي أن هذا البيت وما بعده هو من نظمه . قال ذلك أمام ( الحسن بن علي بن أبي طالب )<sup>٣</sup> .

ويروى ان النبي كان يسمع شعر أمية ، وان ( الشريد بن سويد ) ( الشريد ابن عمرو ) الثقيفي ، كان ينشد له شيئاً منه ، في اثناء أحد أسفاره . فكان كلما أنشد له شيئاً منه ، طلب منه المزيد ، حتى اذا ما أنشده مئة بيت ، قال النبي له : كاد ليسلم ، أو كاد ليسلم في شعره . وذكر ان الرسول قال في حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه<sup>٤</sup> . وانه لما سمع شعره في الدين والحنيفية ومطلعه :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربّي ومسّانا

قال : « إن كاد أمية ليسلم »<sup>٥</sup> .

- ١ الاغاني ( ١١٢/٣ ) ، البغدادي ، خزانة الادب ( ٣٩/٢ ) ، شيخوخ ، شعراء النصرانية ، الجزء الثاني ( ص ٢١٩ ) ، ابن هشام ، السيرة ( ٤٠/١ ) ، ( ٩٨٢/٢ ) ، الاغاني ( ١٢٣/٤ ) « دار الكتب » ، الاصابة ( ١٣٠/١ ) « مطبعة السعادة » .
- ٢ المسعودي ، مروج ( ٧٠/١ ) .
- ٣ طبقات ابن سلام ( ١٠٦ وما بعدها ) ، الاغاني ( ١٠/٥ ) .
- ٤ صحيح مسلم « كتاب الشعر » ، ( ٤٨/٧ ) « طبعة محمد علي صبيح » ، طبقات ابن سعد : ( ٣٧٦/٥ ) ، « الشريد بن سويد » « الرشيد بن سويد » ، بلوغ الارب ( ٢٥٣/٢ وما بعدها ) ، المعارف ، لابن قتيبة ( ٢٨ ) ، المزهر ( ٣٠٩/٢ ) ، خزانة الادب ( ٢٢٧/١ ) ، ابن سعد ( ٣٧٦/٥ ) ، الشعر والشعراء ( ٣٦٩/١ ) ، الاصابة ( ١٣٤/١ ) ، ( رقم ٥٥٢ ) .
- ٥ الاغاني ( ١٣٢/٤ وما بعدها ) « دار الثقافة » ، شرح الشهاب علي البيضاوي ( ٢٣٦/٤ ) ، تفسير ابن كثير ( ٢٦٤/٢ ) ، ديوان المعاني ، لابي هلال العسكري ( ٢٦/١ ) .

وروي عن ( ابن عباس ) ، ان الرسول لما سمع شعر ( أمية ) :

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصدا

قال: صدق أمية .

وفي رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج الى البحرين ، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام هناك ثمانين سنين . ثم قدم ، فلقني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في جماعة من أصحابه ، فدعاه الى الاسلام ، وقرأ عليه سورة يس ، حتى اذا فرغ منها ، وثب أمية يجر رجله ، فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد انه على الحق . قالوا : فهل نتبعه ؟ قال : حتى انظر في امره . فخرج الى الشام ، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ، ترك الاسلام . وقال : لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته فذهب الى الطائف ومات » ٢ .

وفي هذه الرواية المنسوبة الى الزهري ، عن سماع أمية بن أبي الصلت بنبوة النبي وهو في البحرين ، ثم مجيئه الى مكة والتقاءه بالرسول ومحاجته له في ظل الكعبة ، ثم انكسافه وتراجعته وذهابه الى الشام ، ثم عودته منها ٣ ، تكلف ظاهر ، وفي تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضاً .

وورد في رواية أخرى ، ان أمية بن أبي الصلت قدم المدينة فقال للنبي : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال الرسول : الحنيفية دين ابراهيم . قال : فأنا عليها . فقال عليه الصلاة والسلام لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . فقال : أمت الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً ، ثم خرج الى الشام ، وأرسل الى المنافقين أن استعدوا للسلاح . ثم أتى قيصر ، وطلب منه جنداً ، ليخرج النبي

- 
- ١ الاصابة ( ١٢٩/١ ) ، الاصابة ( ١٣٤/١ ) ، ( رقم ٥٥٢ ) . ( القاهرة ١٩٣٩ م ) .
  - ٢ روح المعاني ( ١١٢/٩ وما بعدها ) ، تاريخ الخميس ، للديار بكرى ( ٤١٢/١ ) ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي ( ٦٣/٧ وما بعدها ) ، ( بيروت ١٩٥٧ م ) .
  - ٣ راجع البداية والنهاية ( ٢٢٠/٢ ) .

من المدينة ، فمات بالشأم طريداً وحيداً . وهي قصة ينسب وقوعها الى ( أبي عامر ) الراهب ، كما سبق أن تحدثت عن ذلك <sup>١</sup> .

وتخالف هذه الرواية الروايات المألوفة الواردة اليها عن وفاة ( أمية ) بالطائف . وتزعم إحدى الروايات ، ان أمية كان قد أخذ ابنتيه وهرب بهما الى أقصى اليمن ، وذلك حين بعث النبي . ثم عاد الى الطائف ، فبينما هو يشرب مع اخوان له في قصر بالطائف ، إذ سقط غراب على شرفة في القصر فنعب، وأدرك أمية انه ميت ، لأنه عرف منطق الغراب ، وحدثت القوم بذلك في قصة مفصلة تجدها في الكتب ثم مات <sup>٢</sup> . وقصة الشرب هذه تناقض ما يذكر عنه أهل الأخبار من انه كان لا يقترب من الخمر ، ومن انه كان قد حرّمها على نفسه، شأنه في ذلك شأن بقية الأحناف . كذلك يناقض خبر تحريمه الخمر على نفسه، خبر آخر ، خلاصته انه كان يشرب يوماً مع عبدالله بن جدعان ، فأخذ الشراب برأس ( ابن جدعان ) ، وأصاب عين أمية ، فلما كان اليوم الثاني وجلس أيضاً للشرب معه ، سأل ( عبدالله ) أمية عن سبب الألم البادي على عينه ، فلما أخبره بأنه كان هو سببه ، ترك ( ابن جدعان ) الخمر استحياء مما فعله وقال شعراً في سبب تركه الخمر . ويقول أهل الأخبار : « ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية ، إلا ترك الخمر استحياء مما فيه من الدنس » <sup>٣</sup> .

وتؤيد قصة ذهاب ( أمية ) الى اليمن وسكنه أمداً هناك قصة ينهي سندها بـ ( أبي سفيان ) ، خلاصتها انه كان قد ذهب في ركب من قريش الى اليمن في تجارة ، فرآه بأمية ، وقال له كالمستهزئ به : يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته ؟ فأجابه أمية : اما انه حق فاتبعه . وقال له قولاً يتنبأ فيه بمصير أبي سفيان وكيف سيؤتى به الى الرسول ، فيحكم فيه كما يريد . ففي هذه القصة توكيد بخروج أمية الى اليمن حين بعث الرسول وبمكوثه زماناً هناك .

وذكر أنه الشخص الذي نزلت في حقه الآية : « واتلّ عليهم نبأ الذي آتيناه

- ١ روح المعاني ( ١١١/٩ ) ، تفسير الطبرسي ( ٥٠٠/٣ ) ، ( طبعة طهران ) .
- ٢ الاغانى ( ١٣٠/٤ ) وما بعدها ، الاصابة ( ١٢٩/١ ) .
- ٣ الاغانى ( ٣٣٢/٨ ) .
- ٤ البداية والنهاية ( ٢٢٤/٢ ) .

آياتنا ، فانسلخ منها »<sup>١</sup> . وهي آية قيل أيضاً إنها نزلت في ( بلعام بن باعور )  
( بلعم بن ابر ) ، ( بلعام بن باعرا ) ، أو في زوج البسوس ، أو في ( النعمان  
ابن صيفي الراهب )<sup>٢</sup> .

وأمية كأكثر الشعراء له شعر في المدح وله تعريض . وأكثر مدحه في ( ابن  
جدعان ) من أجواد العرب المعروفين المشهورين في الجاهلية<sup>٣</sup> . وهو في المدح أو  
في الرثاء أو في كل مناسبة أخرى ، مستعمل للكلمات ذات صلة بالدين وبالأفكار  
الدينية ومصطلحات لا ترد إلا نادراً في الأشعار المنسوبة الى الشعراء الجاهليين ، مما  
يدل على غلبة التفكير الديني عليه ، وتأثير ما قرأه أو أخذه من غير العرب فيه .  
سئل الأصمعي عن شعر أمية ، فقال : « ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة  
وذهب عنرة بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب »<sup>٤</sup> .

ووالد ( أمية ) ، هو ( عبدالله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي ) أو ( ربيعة  
ابن وهب بن علاج بن أبي سلمة ) الثقفي على رواية ( الزبيري )<sup>٥</sup> . أما امه  
فهي ( ربيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف ) . وقد كان والده شاعراً . ذكر  
انه مدح ( سيف بن ذي يزن )<sup>٦</sup> .

ومن الرواة من ينسب القصيدة التي تنسب الى والد أمية ، والتي هي في مدح  
( سيف بن ذي يزن ) ، الى أمية نفسه . وفي هذه القصيدة إشارة الى ذهاب  
( سيف بن ذي يزن ) الى هرقل ، فلما لم يجد منه أية مساعدة أو اهتمام ،  
عافه ، وذهب الى كسرى ، حيث وجد منه مساعدة ، فجاءت اليه بعد سنين

- ١ . الاعراف ، الآية ١٧٥ ، الاغاني ( ١٢٥/٤ وما بعدها ) « بيروت » ، تفسير الطبري ( ٨٢/٩ وما بعدها ) .
- ٢ . روح المعاني ( ١١١/٩ ) ، تفسير الطبرسي ( ٤٩٩/٣ وما بعدها ) .
- ٣ . المحبر ( ص ١٣٨ ) ، ديوان أمية بن أبي الصلت : تحقيق « فريدريش شولتس »  
(Friedrich Schulthetz) ، المطبوع بمدينة « لايبزك » سنة ١٩١١ ،  
وكذلك ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٩٣٤ م . جمع بشير يموت ، التبريزي ، شرح  
ديوان الحماسة ( ١٤٥/٤ ) ، الاغاني ( ٣٢٧/٨ ) ، تهذيب ابن عساكر ( ٣/١٢٣ ) ، ابن هشام ، ( ١٤١/٣ ) .
- ٤ . الاصابة ( ١٢٩/١ ) ، الاغاني ( ١٣٠/٤ وما بعدها ) .
- ٥ . نسب قريش ( ٩٨ ) .
- ٦ . الاغاني ( ١٢٠/٤ وما بعدها ) ، الشعر والشعراء ( ٣٦٩/١ ) ، ( بيروت ) ،  
تهذيب ابن عساكر ( ١١٥/٣ ) ، اليعقوبي ( ٢٢/١ ) ، الاغاني ( ١٢٠/٤ وما  
بعدها ) ، الأزرقى ، تاريخ مكة ( ٩٣/١ ) ، جهرة الانساب ( ٢٥٧ ) .

من تعب ومواظبة<sup>١</sup> .

وينسب الى أمية شعر ، ذكر انه افتخر فيه ب ( نزار ) وب ( معد ) .  
وبقبيلة ( إباد ) ، حيث نعتهم ب ( قومي إباد )<sup>٢</sup> .

ويتلخص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء في الاعتقاد بوجود إله واحد ، خلق الكون وسواه وعدله ، وأرسى الجبال على الأرض ، وأنبت النبات فيها ، وهو الذي يحيي ويميت ، ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم ، وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق في الجنة وفريق في النار ، يساق المجرمون عراة الى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال ، ثم يلقي بهم في النار يصلونها يوم الدين ، يبقون فيها معذبين بها ، ليسوا بميتين ، لأن في الموت راحة لهم ، بل قضى الله ان يمكثوا فيها خالدين أبداً<sup>٣</sup> .

أما المتقون ، فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون ، فيها غسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفتح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم ، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وحوار لا يرين الشمس فيها ، نواعم في الأرائك قاصرات ، على سرر ترى متقابلات ، عليهم سندس وجياد ريط وديباج ، حلتوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم ، لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولا غول ولا فيها ملهم ، وكأس لا تصدع شاربها ، يلدن بحسن رؤيتها النديم ، تحتهم نمارق من دمقس ، فلا أحد يرى فيهم سئيم .

وللوقوف على آراء ( أمية ) ، وعلى معتقداته الدينية يجب الرجوع بالطبع الى أشعاره وما نسب اليه من كلام . ففي هذا التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية ، تتمثل آراء ذلك الشاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل المبعث ، وهي آراء قريبة جداً من الاسلام ، وبعضها يكاد يكون قولاً اسلامياً في لفظه وفي معناه مسبوكة في شعر . وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبياء : آدم ونوح وقصة

- ١ كتاب التيجان ، لوهب ، ( ٣٠٧ ) ، الشعراء والشعراء ، لابن قتيبة ( ٣٦٩/١ ) ، بروكلمان ( ١١٤/١ ) ، Schultheso Orient. Studien, I, 73.
- ٢ الاغانى ( ١٢٠/٤ ) ، ( ٣٢٧/٨ وما بعدها ) ، شعراء النصرانية ( ٢٣٤/٢ ) .
- ٣ وسبق المجرمون وهم عراة الى ذات المقامع والنكال ديوان أمية ( ٤٩ ) .  
جهنم تلك لا تبقى بغيا وعدن لا يطالها رجيم  
ديوان أمية ( ٥٣ ) ، ( بنسیر يموت ) .

طوفانه ، والغراب والحمامة <sup>١</sup> ، وقصة ذي القرنين وبلقيس وحكاية الهدهد <sup>٢</sup> ، وقصة ابراهيم وتقديم ابنه للذبح، وداوود ، وفرعون ، وموسى ، وابن عاد <sup>٣</sup> . وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانياً وصفه على نحو ما جاء في القرآن الكريم عن تكوّن عيسى ، مضيفاً الى ذلك زيادات في حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها <sup>٤</sup> . كما أورد في الشعر قصة (لوط أخي سدوم) <sup>٥</sup> . وهي من القصص المذكور في التوراة ، وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل <sup>٦</sup> .

وفي أكثر ما نسب الى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم . بل نجد في شعر أمية استخداماً للألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي ، فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق او ان امية اخذ مادته من القرآن الكريم ، او كان العكس ، اي ان القرآن الكريم هو الذي أخذ من شعر امية فظهرت الأفكار والألفاظ التي استعملها امية في آيات الله وسوره ؟ فكتاب الله اذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله ، او ان هذا التشابه مرده شيء آخر هو تشابه الدعوتين واتفاقها في العقيدة والرأي ، او اعتماد الاثنين على مورد أقدم ، هما الكتابان المقدسان : التوراة والانجيل ، وما لهما من شروح وتفسير ، او كتب او موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرها في القرآن الكريم وفي شعر أمية بن ابي الصلت ، او ان كسل شيء من هذا الذي نذكره ونفترضه

- 
- ١ جزى الله الاجل المرء نوحاً  
ديوان أمية ( ١٨ وما بعدها ، ٥٨ ) ، ( بشير يموت ) الحيوان ، للجاحظ ( ٢ / ١١٧ ) ، البدء والتاريخ ( ٢٤ / ١ ) .
  - ٢ قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً  
من قبله بلقيس كانت عمتي  
ديوان أمية ( ص ٢٦ ) ، ( بشير يموت ) .
  - ٣ حي داوود وابن عاد وموسى  
انني زارد الحديد على النسا  
ديوان أمية ( ٥٠ وما بعدها ) ، ( بشير يموت ) .
  - ٤ وفي دينكم من رب مريم آية  
ديوان أمية ( ٥٨ ) ، ( بشير يموت ) .
  - ٥ ثم لوط أخو سدوم أناها  
ديوان أمية ( ٦٩ ) ، ( بشير يموت ) .
  - ٦ راجع التوراة ، ومادة (Lot) في معجمات التوراة .

افتراضاً لم يقع ، وان ما وقع ونشأه ، سببه ان هذا الشعر وضع على لسان امية في الاسلام ، وان واضعيه حاكوا في ذلك ما جاء في القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول ، وهو فرض أخذ امية من القرآن ، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه ، وجب حصر هذا الجواز في مدة معينة ، وفي فترة محدودة تتبدى بمبعث الرسول ، وتنتهي في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي سنة وفاة امية بن أبي الصلت . اما ما قبل المبعث ، فلا يمكن بالطبع ان يكون امية قد اقتبس من القرآن ، لأنه لم يكن منزلاً يومئذ ، وأما ما بعد السنة التاسعة ، فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً ، لأنه لم يكن حياً ، فلم يشهد بقية الوحي . ولن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً في هذه الحالة ، إلا اذا أثبتنا بصورة جازمة ان شعر امية الموافق لمبادئ الاسلام ولما جاء في القرآن قد نظم في هذه المدة المذكورة ، اي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وأن امية كان يتتبع نزول الوحي ، ويجمعه ، وانه كان يملك نسخة مما نزل على الرسول ، رجع اليها واقتبس منها ، وإلا سقط العرض . فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر ، أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر امية وما جاء في معناه وفي موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة ، فلا تكون شاهداً على أخذ امية منها : لأنه كان قد توفي في السنة التاسعة ، فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من في استطاعته تثبيت تواريخ شعر امية وتعيينه ، وتعيين أوقات نظمه؟ إن في استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله في مدح عبدالله بن جُدعان او معركة بدر . ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه ، وهي غالبية لم يتطرق الرواة الى ذكر المناسبات التي قيلت فيها . ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه ، مروى لغيره ، وبعضه إسلامي ، فيه مصطلحات لم تعرف إلا في الإسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء امية الممثلة في شعره هذا بهذه الطريقة . ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر ان امية كان يتتبع معاني القرآن الكريم ، وينسبها الى نفسه . ولو كان قد فعل ، لما سكت المسلمون عن ذلك ، وكان الرسول أول الفاضحين له .

بقي لدينا افتراض آخر . هو أخذ القرآن الكريم من أمية . وهو افتراض ليس من الممكن تصوره ، فعلى قائله اثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم ، وتلك قضية لا يمكن اثباتها أبداً . ثم إن قريشاً ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه ، لما سكتوا عنه ، ولقالوا له انك تأخذ من أمية ، كما قالوا له : انك تتعلم من غلام نصراني كان مقيماً بمكة ، واليه اشرف في القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعلم أنهم يقولون : انما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »<sup>١</sup> . ولقد أشار المفسرون الى اسم الغلام ، كما سأحدث عن ذلك في الفصل الخاص بالنصرانية عند العرب قبل الاسلام ، ولم يشيروا الى أمية بن أبي الصلت<sup>٢</sup> . ثم إن أمية نفسه لو كان يعلم ذلك او يظن ان محمداً انما اخذ منه ، لما سكت عنه وهو خصم له ، منافس عنيد ، أراد ان تكون النبوة له ، وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليه ، ثم يتبعه الناس فيؤمنون بدعوته . أما هو فلا يتبعه أحد . هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد اي ظن وإن كان بعيداً يفيد ان الرسول قد اخذ فكرة منه ، او من المورد الذي اخذ أمية نفسه منه ؟ لو كان شعّر بذلك ، لنادى به حمياً ، ولأعلن للناس انه هو ومحمد أخذاً من منبع واحد ، وان محمداً أخذ منه ، فليس له من الدعوة شيء ، ولكانت قريش وثقيف اول القائلين بهذا القول والمنادين به .

نعم ، لقد ورد في الحديث ، كما قلت قبل قليل ، ان الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وانه كان كلما أنشده شيئاً منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مئة بيت ، قال له الرسول : آمن شعره وكفر قلبه ، او آمن لسانه وكفر قلبه ، ولكننا هنا بحاجة الى تثبيت تأريخ هذا الإنشاد ، وإثبات صحة الرواية وتاقيق رجال السند ، لاثبات ان ما أنشد لم يكن قد نزل في مثله الوحي .

ومن ذهب الى افتراض أخذ الرسول من أمية من المستشرقين ( كليمان هوار ) و ( بور ) Power . زعم ( بور ) انه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن

١ النحل ، الآية ١٠٣ .

٢ سيرة ابن هشام ( ١ / ٤٢٠ ) .

الكريم ، فإن ذلك يدل على ان الرسول أخذ من ( أمية ) ، لأن أمية أقدم من الرسول<sup>١</sup> . وهذا الافتراض مقبول كما لو أثبتنا ان هذا النظم شعر أصيل صحيح ، وانه نظم قبل نزول مشابهه في القرآن الكريم ، وانه لم يضاف اليه في الاسلام . فإن أثبتنا انه له ، جاز لها مثل هذا الادعاء .

وأما الرأي الثالث - وأعني به رأي من يرجع التشابه بين شعر أمية وما ورد من مثل معانيه في القرآن الكريم الى أخذ الاثنيين من التوراة والانجيل وتفسيرهما ، والى بعض ( الصحف ) و ( المجلات ) التي أشير الى وجودها عند العرب - فهو رأي قديم ، وليس بجديد . رأي قيل عن الوحي كله ، لا عن القرآن وشعر أمية او غير أمية ، قبل ان يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد زُعم « ان النبي يتعلم من غلام نصراني اسمه جبر !! » . وقد أشير الى هذا الزعم في كتاب الله ، وجاء الرد عليه في قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون ، إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » . فلم يُخف القرآن الكريم ذلك الطعن والمغز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يعلمه ، فذكروا جبراً هذا ، وكان غلاماً مقيماً بمكة ، وقال بعضهم بل هو رجل رومي اسمه غير ذلك .

ولو كان الرسول وأميه قد أخذنا من منهل واحد ، واستقيا من مورد واحد ، لما سكنت قريش عن القول به ، ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقدا على الرسول عن الجهر به . وكيف يعقل سكوته عن هذا ، وهو أمر مهم جداً بالنسبة اليه . وسيف يحارب به الإسلام؟ ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المنتهين من الإشارة اليه في أثناء حروب الردة ، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة . ولما سكت ( يوحنا الدمشقي ) وأمثاله من التلميح الى ذلك ، وقد لمح بأمر كثيرة في طعنه على الإسلام .

ثم إن هذ التشابه ، على ما يتبين من نقده وتمحيصه ، ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين ، إنما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور في القرآن الكريم ،

١ ديوان أمية ( ص ٧ ) ، « المقدمة الالمانية » « بحقيق فردرش شولثيس » ، بروكلمن Cl. Huart, JA. X, Vol., IV, 1904, p. 125. • ( ١١٣/١ )

لم ترد في التوراة ولا في الانجيل ، ولكنها وردت في شعر أمية ، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل إسلامي ، لا على النحو الوارد عند أهل الكتاب . واستعمال هذا الشعر لجمل وألفاظ وتراكيب اسلامية واردة في القرآن الكريم وفي الحديث لا في الكتب السماوية المذكورة . فلو كان مردّ هذا التشابه الأخذ من مورد واحد ، لوجب انحصار هذا التشابه في الأمور المشتركة التي ترد في الكتب المقدسة : التوراة والانجيل والقرآن ، وفي شعر أمية حسب ، لا في المسائل التي ترد في شعر أمية وفي القرآن الكريم ، ولا ترد في الكتابين المقدسين أو في الكتب الأخرى .

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة صلة احدهما بالآخر، وأخذ احدهما من الآخر ، تستوجب التأكد من صحة نسبة هذا الشعر الى أمية . ففسي هذا الشعر مقدار لا يمكن ان يشك في وضعه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصاً على انه لغيره ، وهم انما ذكروه في شعر أمية ، لأن بعض اهل الأخبار نسبته اليه . ولذلك استدركوا هذا الخبر ، بالاشارة الى اسم قائله الصحيح . فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه ، وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين . وهذا القليل هو ، في الغالب ايضاً ، تبع لما ورد في القرآن وحده ، لا لما ورد في الكتابين المقدسين . ولما كان القرآن محفوظاً ثابتاً ، فلم يرتق اليه الشك . اما شعر أمية ، فليس كذلك ، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم . فهذه المقابلة إن جازت ، فانها تكون حجة على القائلين بالرأي المذكور ، لا لهم . وقد كان عليهم ان يثبتوا أولاً اثباتاً قاطعاً صحة رأيهم في أصالة هذا الشعر ، لا ان يفترضوا مقدماً انه شعر أصيل صحيح ، وان يذهبوا رأساً الى انه هو والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل انه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب الله منتزع منه .

ومن قال باحتمال أخذ القرآن وأميه من مورد مشترك واحد، (فردرش شولثيس) Friedrich Schulthetz ناشر ديوان أمية. وقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التي كانت مُنزلة يومئذ ، ونظمها في شعره . استند في زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك الى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير ، يفهم منها على زعمه ان الرسول كان قارئاً كاتباً ، ولكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة ، بل ذهب الى انها

( مجلة ) و ( صحيفة ) ، تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصاً دينياً قديماً<sup>١</sup> . أما دليله ، فافتراض واحتمال ، وليس له غير هذين . ولا يقوم علم إلا على دليل ملموس .

أما أنا ، فأرى ان مردّ هذا التشابه والاتفاق الى الصنعة والافتعال . لقد كان أمية شاعراً ، ما في ذلك شك ، لاجماع الرواة على القول به . وقد كان ثائراً على قومه ، ناقماً عليهم ، لتعبدتهم للأوثان . وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكني لا أظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث من العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذي أذكره شيء إسلامي خالص ، لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ، ولا عند الأحناف . فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الاسلامية ، هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام : وضعت على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على أسنة غيره من الشعراء والخطباء ، لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الاسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه ، وأنه لم يكن لذلك غريباً ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب ، يعلمون بقرب ظهور نبيّ عربي ، وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا في أيامه ، أو لو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا ، وأمثال ذلك من قصص راج وانتشر ، كما راج أمثاله في كل دين من الأديان .

ولا بد وأن يكون هذا الوضع قد صنع في القرن الأول للإسلام ، لأن أهل الأخبار القدامى يذكرون بعض هذا الشعر<sup>٢</sup> . وقد يكون قد وضع أكثره في عهد الحجاج تقريباً اليه ، لأنه من ثقيف ، وفي ذلك العهد وضع الوضاع أخباراً كثيرة في الغرض من شأن قوم الحجاج ، نكاية به فتقدم قوم آخرون اليه بالرفع من شأنها وبإضافة ذلك الشعر انى أمية وغيره ، ليكون ردّاً على كارهي ومبغضي الحجاج .

وتبين آية الوضع في شعر أمية في عدم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه .

1 Ency., IV, p. 998, Tar Andrae, Die Entstehung des Islams und das Christentums, upsale, 1926, S. 48.

2 بروكلمان ( ١١٣/١ ) .

فبينما نجد شعره المنسوب اليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين ، في ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب الى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريباً من شعر الفقهاء والصوفيين المتزمطين ، ونسآك النصارى ، فهو بعيد جداً من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل (عدي بن زيد) العبادي والأعشى وبقية من نسب الى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الاسلام<sup>١</sup> . يضاف الى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر الى غيره من الشعراء .

وقد يقال إن أسلوب (أمية) في نظم الشعر الديني والحكمي ، هو أسلوب صحيح لا يمكن إلا ان يكون على هذا الحال ، هو أسلوب بعيد عن أسلوب الجاهليين في النظم ، لأن الشعر الجاهلي المعروف نظم في أغراض أخرى لا صلة لها بالحكم وبالدين ، وما جاء منه إلينا في الحكم وفي الدين هو على أسلوب آخر أيضاً ، بدليل ان بعض الشعراء منهم حين نظموا في الحكم ، رق شعرهم وبان عن نظمهم المألوف . وبدليل ان نظم (حسان بن ثابت) في الاسلام ، هو دون نظمه في الجاهلية من حيث الجزالة والفخامة في النظم ، وان شعر (ليد) في الاسلام ، هو دون ما نظمه في الجاهلية ، بسبب تغير الظروف واختلاف الموضوع . وهو اعتذار صحيح ، ولكن أسلوب أمية في تعبيره عن الجنة والنار والبعث والحساب ، أسلوب آخر ، لا يفصح عن عقلية دينية جاهلية ، وانما عن عقلية إسلامية . ومن هنا جاء شكنا في صحة هذا الشعر وفي أصالته ، وليس من أسلوب النظم .

ولكن من الذي وضع هذا الشعر ، ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية ؟ ومن الذي رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ، ولكنها أبيات إسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر في ديوان نسبه اليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ، ولكن أجوبتها كتاب يؤلف في حياة هذا الشاعر وفي شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال للتقريب عن هذه الأمور ، روي ان الحجاج قال ، وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية »<sup>٢</sup> . فهل ذهب العالمون

Ency., IV, p. 998. ١

الاغاني (١٢٣/٤) . ٢

به حقاً قبل أيام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخماً واسعاً ؟ أو هو قول من أقوال الحجاج ، وهو ثقيفي من قوم أمية ، أو هو قول وزعم من زعم الرواة . وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً . فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمن ربّ العبا د أنت المليك وأنت الحكم

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعرٍ لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلاً :

محمدأ أرسله بالهدى فعاش غنياً ولم يُهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطاء من الله أعطيته وخصّ به الله أهلَ الحرم  
وقد علموا انه خيرهم وفي بيتهم ذي الندى والكرم  
يتعيبون ما قال لما دعا وقد فرج الله احدى البهائم  
به وهو يدعو بصدق الحديد ث الى الله من قبل زيغ القدم  
أطيعوا الرسول عبادَ الإلّـه سه تنجون من شرّ يومِ ألم  
تنجون من ظلمات العذاب ومن حر نارِ على من ظلم  
دعانا النبيّ به خاتم فمن لم يُجيبه أسر الندم  
نبي هدى صادق طيب رحيم رؤوف بوصل الرحم  
به ختم الله من قبله ومن بعده من نبي ختم  
يموت كما مات من قد مضى يردّ الى الله بارى النسم  
مع الأنبياء في جنان الخلود هم أهلها غير حلّ القسم  
وقدس فينا بحب الصلاة جميعاً وعلم خط القلم  
كتاباً من الله نقرأ به فمن يعتره فقدماً أتم

اقرأ هذه المنظومة ، ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع ان تقول انه كان

شاعراً مغاضباً للرسول ، وإنه مات كافراً ، وإن صاحبها رثى كفار قريش في معركة بدر وأنه قال ما قال في الإسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الإيمان ، هو واعظ مبشر ، مخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول . إنه مؤمن قلباً ولساناً ، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وإنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول ، ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية ، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلاً على وجود أيدٍ لصناع الشعر ومنتجيه في شعر أمية . نحمد الله على أن صنّاعها لم يتقنوا صنعها ، ففضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مقاتل النظم .

ثم نخذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية ، وهي في وصف الجنة والنار استهلت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقي بغيثاً وعدنٌ لا يطالها رجمٌ

ثم استمر في قراءتها ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم انعم النظر في هذه الأبيات :

فذا غسل وذا لبن وخرمٌ	وقح في منابته صريمٌ
ونخل ساقط الأكتاف عد	خلال أصوله رطب قيمٌ
وتفاح ورمّان وموز	وماء بارد عذب سليمٌ
وفيها لحم ساهرة وبجر	وما فاهوا به طمٌ مقيمٌ
وحورٌ لا يرين الشمس فيها	على صور الدمى فيها سهومٌ
نواعم في الأرائك قاصرات	فهنّ عقائل وهنّ قرومٌ
على سررٍ ترى متقابلات	ألا ، ثمّ النضارة والنعيمٌ
عليهم سندس وجياد ريطٌ	وديباج يرى فيها قنومٌ
وحلّوا من أساور من بلجين	ومن ذهب . وعسجده كريمٌ
ولا لغوٌ ولا تأثيمٌ فيها	ولا غولٌ ولا فيها ملّيمٌ

وكأس لا تصدع شاريبها يلدُ بحسن رؤيتها النديم  
تصفقُ في صحافٍ من بلجين ومن ذهب مباركة رذوم<sup>١</sup>

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الآيات . لقد حاول ناظمها ادخال بعض الكلمات الجاهلية فيها ، لإلباسها ثوباً جاهلياً ، ولاظهارها بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الاسلام . وما بقي حاجة الى ان أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن الكريم .

ومن الغريب ان بعض الأخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلاً ان العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وان منهم من نظر في الكتب وكان مقرراً بالجنة والنار . وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية<sup>٢</sup> . وقد نسي ان ما قاله على سبيل التعميم او التغليب ، يناقض ما جاء في القرآن الكريم وما أورده الأخباريون عن الجاهليين .

ثم خذ قصيدته في عيسى بن مريم وحمل أمه به<sup>٣</sup> ، وسائر قصائده الأخرى ، تجد عليها هذه المسحة الاسلامية بارزة ظاهرة ، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من القول بوجود أبيات قد تكون من نظم أمية حقاً ، في هذا المنظوم الديني ، غير ان هذا الموجود ، هو على كل حال مما لا يتعارض مع عقائد الاسلام . ومن الممكن ادراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره، وبهذه الطريقة تتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين .

ولأمية بن أبي الصلت أخت ، اسمها ( فارعة )<sup>٤</sup> . قدمت على النبي بعد فتح الطائف . وكانت ذات لبّ وعفاف وجمال ، وكان يعجب بها . وقال لها يوماً : هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فأخبرته خبره وقصت قصته في شق جوفه

١ تجد اختلافاً في كلمات هذه القصيدة وأبياتها ، وكذلك في قصائد هذا الشاعر الأخرى ، فارجع في ذلك الى طبقات ديوانه والى كتب الادب لمعرفة مواضع الاختلاف : كتاب البدء والتاريخ ( ٢٠٢/١ وما بعدها ) ، ديوان أمية « طبعة بشير يموت » ، ( ص ٥٣ ) ، ديوان أمية ( ص ٥١ وما بعدها ) ، « طبعة فريدرش شولثيس » .  
٢ كتاب البدء والتاريخ ( ٢٠٢/١ ) ، ( طبعة كليمان هوار ) ، « النص العربي » .  
٣ ديوان أمية ( ص ٥٨ ) ، « طبعة بشير يموت » .  
٤ اللسان ( ٧٩٢/١ ) ، ( وثب ) .

واخراج قلبه وردّه مكانه وهو نائم وأنشدته شعره<sup>١</sup> ، على ما يزعمه أهل الأخبار .  
 وذكر أهل الأخبار أسماء أربعة بنين لأمية ، هم : القاسم ، ووهب ، وعمرو  
 ( عمر ) ، وربيعة . فأما ( القاسم ) ، فكان شاعراً ، وله مرثية في عثمان بن  
 عفّان<sup>٢</sup> . وأسلم ( وهب بن أمية ) كذلك . وذكر أن رجلاً من ثقيف مات  
 في عهد النبي عن غير ولد ، فاختصموا في ميراثه ، فأعطى النبي ميراثه لوهب<sup>٣</sup> .  
 وأما ( ربيعة ) ، فأسلم كذلك ، وله شعر<sup>٤</sup> . وقد ذكر أهل الأخبار أن ( حقة )  
 بنت ( وهب بن أمية بن أبي الصلت ) ، تزوجت ( عبدالله بن صفوان الأكبر ) ،  
 فولدت له صفوان بن عبدالله بن صفوان<sup>٥</sup> . وذكر أن ( ربيعة ) ، قد ولي  
 بعض الوظائف في الإسلام . وأنه صاحب ( ربيعتان ) ، نهر بقرب الابلّة . وأن  
 من ولده ( كلدة بن ربيعة ) ، وكان شريفاً شاعراً . وقد ذكر أن بغلاً قتل  
 ( ربيعة ) على باب دار ( عبدالله بن عباس )<sup>٦</sup> .

وكل ما يعرف عن سويد بن عامر المصطلقي أنه كان على دين الحنيفية وملة  
 ابراهيم ، وأنه قال شعراً ، وصلت منه بضعة أبيات في ( المنايا ) وفي المصدر  
 على الإنسان ، وان المنايا محتومة لا مفرّ منها ، وأن الخير والشر مكتوبان على  
 النواصي ، وليس لامرئ يدٌ فيما يصيبه من مقدور . فهي في هذه المشكلة المعضلة  
 التي شغلت بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة : ( الجبر والاختيار ) ، أو  
 ( القدر ) ، المشكلة التي احتلت منزلة الصدارة في ( علم الكلام ) . والتي صارت  
 من أهم موضوعات الجدل في الاسلام . ويقال انها أنشئت للرسول ، فلما سمعها ،  
 قال : « لو أدركته لأسلم »<sup>٧</sup> .

وأما ورقة بن نوفل ، فهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ،  
 يلتحم نسبه بنسب الرسول في جد جده . ذكروا انه ساح على شاكلة من شك في

- ١ الاصابة ( ٣٦٣/٤ ) ، ( رقم ٨٢٤ ) .
- ٢ الاصابة ( ٢١٣/٣ ) ، ( رقم ٧٠٥٢ ) .
- ٣ الاصابة ( ٦٠٤/٣ ) ، ( رقم ٩١٥٧ ) .
- ٤ الاصابة ( ٤٩٣/١ ) ، ( رقم ٢٥٩٠ ) .
- ٥ الاصابة ( ٦٠٤/٣ ) ، ( رقم ٩١٥٧ ) .
- ٦ كتاب البغال ، للجاحظ ( ٢٥٨/٢ ) ، ( من رسائل الجاحظ ) ، الاغاني ( ١٧٩/٣ ) ،  
 الاشتقاق ( ٣٠٤ وما بعدها ) ، ( ١٢٠/٤ ) ، الشعر والشعراء ( ٣٦٩/١ ) ،  
 الاصابة ( ١٩٧/٢ ) أنساب العرب ( ٢٦٩ ) .
- ٧ بلوغ الارب ( ٢٥٩/٢ ) .

دين قومه ، وتتبع اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب ، وعدّ في جملة المنتصرين في أغلب الروايات ، فقد ذكر انه « تنصر واستحکم في النصرانية ، وقرأ الكتب ومات عليها »<sup>١</sup> . وهذا هو رأي اكثر اهل الأخبار .

ونسب اليه شعر ذكر انه قاله في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وفيه إشارة الى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت والى فكرة التوحيد والايان برب ليس رب كمثلته والى التنديد بالأوثان<sup>٢</sup> .

وله أبيات من الشعر يحث فيها على مساعدة الضعيف ونصر المظلوم ، وعلى فعل الخير للناس<sup>٣</sup> .

ولا نعلم عن حياة ورقة في ايام شبابه شيئاً ، ولعله كان يعين اهله او اقربائه في اتجارهم مع بلاد الشام او اليمن شأن اكثر شبان أسر مكة المعروفة في ذلك الوقت . فنعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة الى العراق او بلاد الشام ، ومن هنا اندفع نحو خارج الجزيرة يلتمس الحكمة والوصول الى رأي يقنعه في الحياة . ويظهر انه لم يكن في شبابه من اولئك الشباب الحاملين الذين كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم ، دون عمل ولا تفكير ، متوسدين الأرض يقتلون فراغهم في ترهات الكلام ، كما انه لم يكن من اولئك الطائشين التزقين الذين يقضون وقتهم في النزاع والحصومة وشرب الخمر والاعتداء على الناس ، والحصول على المسال للانفاق على اللهو بأية طريقة كانت ، بل كان شاباً متأملاً مفكراً منكشراً على نفسه ، مكنه علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين ، حتى جاء يوم ، دفعه اجتهاده الذي وصل اليه على الخروج على تقاليد قومه وانتقاد الأوضاع التي كانوا عليها ، مما حمله على ترك مكة طوعاً او قهراً ، والتجول للبحث او فراراً من غضب قومه عليه .

وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول . وقد أشير اليه في خبر « مجيء جبريل الى النبي في حراء » ، وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات .

- ١ اليعقوبي (٢٩٨/١) « ٢٢/٢ » « ليدن » ، البداية ، لابن كثير (٢٣٨/٢) .
- ٢ المحبر (١٧١) ، ابن هشام (٢٤٣/١ ، ٢٥٦) ، الاغانى (١١٣/٣ وما بعدها) ، شيخو ، النصرانية (١١٨/١) ، خزانة الادب (٣٩/٢ وما بعدها) ، مروج (٧٣/١) ، الذهبى ، تاريخ الاسلام (٦٨/١) .
- ٣ خزانة الادب (٣٩/٢ وما بعدها) .

يقال إنه قال للرسول وكان قد ذهب اليه مع زوجته خديجة ليسأله رأييه فيما رآه من الرؤيا : « ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ا » وان الرسول قال له : أخرجني هم ؟ قال : نعم ، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي ، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً<sup>١</sup> . وأشير اليه في خبر آخر ، حيث ورد أن (خديجة) ذهبت وحدها الى ابن عمها لتسأله عن الرؤيا التي رآها الرسول وعن هذا (الناموس الأكبر) الذي تجلى له . فلما قصت عليه القصة قال : «لئن كنت صادقاً ، إن زوجك لنبي ، وليلقين من أمته شدة ، ولئن أدركتسه لأومنن به<sup>٢</sup> .

وذكر في خبر آخر أن الرسول قد رأى (ورقة) في منامه ، وكان لابساً ثياباً بيضاً . وان الرسول ذكر ذلك لمن سأله عنه ، وبين لهم أنه لو كان من أهل النار لما ظهر له في منامه وهو بهذه الملابس . لأن أهل النار لا يلبسون ثياباً بيضاً<sup>٣</sup> . ويروى أن الرسول قال : « لا تسبوا ورقة بن نوفل ، فإنني رأيتسه في ثياب بيض<sup>٤</sup> . قيل إن شخصاً تساب مع أخ لورقة بن نوفل ، فسب ورقة ليحرق قلب أخيه ، فبلغ ذلك الرسول ، فنهى عن سبته<sup>٥</sup> .

وجاء في خبر ان (ورقة) كان يمر بمكة فيرى بلالاً وهو يعذب ، يعذبه المشركون برمضاء مكة ، يلصقون ظهره بالرمضاء ، ويضربونه يريدون منه ان يشرك بالله ، فلا يشرك به . ويأبى إلا ان يقول : أحد أحد، فبرثي ورقة لحاله ويقول : أحد أحد والله يا بلال . والله لئن قتلتموه فأنتم من الخاسرين<sup>٦</sup> . او « والله لئن قتلتموه ، لاتخذن قبره حناناً<sup>٧</sup> » .

- ١ الطبري (٢٩٩/٢) « دار المعارف » ، ابن هشام (١/٢٥٤ وما بعدها) ، المسعودي مروج (٥٩/٢) ، (٧٣/١) « محمد محيي الدين عبد الحميد » « ١٩٥٨ م » ، الكامل ، لابن الاثير (٣١/٢) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (١/٧٥) ، القسطلاني ، شرح صحيح (١/٦٦) ، الاصابة (٣/٦٣٣) .
- ٢ الطبري (٣٠٠/٢) « دار المعارف » ، ابن سعد ، الطبقات (١/١٩٤) « بيروت ١٩٥٧ م » ، شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني (١/٦٦ وما بعدها) .
- ٣ الاغانى (٣/١١٣ وما بعدها) « بيروت ١٩٥٥ م » .
- ٤ كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) ، الترمذي (٣/٢٥١) ، الاصابة (٦/٣١٨ وما بعدها) ، مجمع الزوائد (٩/٤١٦) .
- ٥ الاصابة (٣/٦٣٣) .
- ٦ الاغانى (٣/١١٣ وما بعدها) .
- ٧ النهاية ، لابن الاثير (١/٢٢٦) ، الاصابة (٦/٣١٨) ، كتاب نسب قريش (٢٠٨) .

ويظهر من الأخبار المتقدمة ان ( ورقة بن نوفل ) ، كان قد أدرك ايام الرسول وعاش الى يوم نزول الوحي عليه . بل يظهر من خبر رؤيته لبلال وهو في حالة تعذيبه ، انه عاش مدة بعد نزول الوحي . غير ان الأخبار المذكورة لا تنص على اسلامه ، ولم نجد أحداً قد نص على ذلك . أما خبر رؤيا الرسول له في منامه ، فانه يدل على عدم إسلامه ، وعلى انه كان قد توفي قبل نزول الوحي على الرسول . وهو الرأي الراجح . وهذا ما حمل أحد المؤرخين على القول : وقد اختلف فيه ، فمنهم من زعم انه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي . ومنهم من رأى انه مات مسلماً وانه مدح النبي<sup>١</sup> . وقد ورد في بعض الأخبار ان الرسول قال لما توفي ورقة : « لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير ، لأنه آمن بي وصدقني »<sup>٢</sup> . وورد مثل ذلك من أحاديث زعم ان الرسول قالها في حق ورقة ، وهي كلها تشير الى وفاة ورقة قبل المبعث ، وعلى دينه ، إذ لم يدرك الاسلام .

وورد في بعض الروايات أنه « كان يكتب الكتاب العربي ، فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء أن يكتب »<sup>٣</sup> . وورد في رواية أخرى أنه « كان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب »<sup>٤</sup> . والخبران هما خبر واحد ، كما يظهر من وحدة النص ، غير ان اسم اللغة التي زعم أنه كان يكتب بها قد حُرّف ، فقرأه بعضهم العربي ، وقرأه بعض آخر العبراني . ولما كان الانجيل باليونانية وبلغه بني لرم ، فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الانجيل هي العبرانية ، وهم يتوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية . والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني لرم التي كانت لغة العلم والأدب والدين في العراق وفي بلاد الشام ، بل وبين مثقفي اليهود ورجال دينهم في ذلك الوقت .

وذكر أهل الأخبار أنه لم يعقب<sup>٥</sup> . ولم يذكروا سبب ذلك ، هل كان قد

- 
- ١ المسعودي ، مروج ( ٥٩/٢ ) .
  - ٢ القسطلاني ، شرح صحيح ( ٦٥/١ ) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام ( ٦٨/١ ) ، الذهبي ، سير النبلاء ( ٨٠ ) ، خزائن الادب ( ٤١/٢ ) .
  - ٣ النصرانية ( ١١٩/١ ) .
  - ٤ الاغانبي ( ١١٣/٣ ) ، الاشتقاق ( ١٦٤ ) .
  - ٥ كتاب نسب قریش ( ص ٢٠٧ ) .

تزوج ، ولكنه كان عقياً ، فلم يعقب ؟ أو أنه عاش أعزب ولم يتزوج طول حياته ؟

وكان ( أبو قيس صرمة بن أبي أنس ) ( صرمة بن أنس ) وهو من بني النجار ، قد ترهب ولبس المسوح ، وهجر الأوثان ، ودخل بيتاً واتخذ مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب ابراهيم ، فلما قدم النبي المدينة أسلم وهو شيخ كبير ، وحسن إسلامه . وفيه نزلت الآية : « وكلموا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »<sup>١</sup>. ورووا له شعراً<sup>٢</sup>. وزعم أنه اغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها . وذكر أن ( ابن عباس ) كان يختلف إليه يأخذ عنه الشعر<sup>٣</sup>.

وأما ( وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي ) ، فهو من إياد ، زعم ( ابن الكلبي ) انه ولي البيت بعد جرهم ، فبنى صرحاً بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها ( حزورة ) ، وبها سميت ( حزورة مكة ) ، وجعل في الصرح سلماً ، فكان يرقاه ويزعم انه يناجي الله . وكان ينطق بكثير من الخبر ، ويزعم الناس انه صديق من الصديقين ، وقالوا كان كاهناً<sup>٤</sup> . وذكروا له كلمات مسجعة ، ليس فيها ما يشرح لنا معتقده الديني ويوضحه وضوحاً تاماً<sup>٥</sup>.

والصرح كما يقول علماء اللغة ، بيت يبنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء

- ١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، مروج ، ( ٥٢/١ وما بعدها ) ، تفسير الطبري ( ٩٧/٢ ) « بولاق » .
- ٢ بلوغ الأرب ( ٢٦٦/٢ ) .
- ٣ بلوغ الأرب ( ٢٦٦/٢ ) ، أسد الغابة ( ١٨/٣ ) ، الإصابة ( ١٧٦/٢ ) ، ( رقم ٤٠٦١ ) ، الاستيعاب ( ١٩٤/٢ ) ، ( حاشية على الإصابة ) .
- ٤ المحبر ( ١٣٦ ) ، بلوغ الأرب ( ٢٦٠/٢ ) .
- ٥ ( وقال الإيادي صاحب الصرح ، الذي اتخذ سلماً لمناجاة الرب ، وهو القائل : مرصعة وفاطمة ، القطيعة والفجيرة ، وصلة الرحم وحسن-الكلم ، زعم ربكم ليجزبن بالخير ثواباً ، وبالشر عقاباً . وان من في الارض عبيد لمن في السماء\* هلكت جرهم وربلت إياد ، وكذلك الصلاح والفساد\* من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه\* كل شاة معلقة برجلها\* ويايه عنى الشاعر بقوله : ونحن إياد عبيد الله ورهط مناجيه في السلم ونحن ولاه حجاب العتين زمان الرعاف على جرهم البيان والنبيين ( ١٠٩/٢ ) ، الامال ، للميداني ( ٨١/٢ ) .

وكل بناء عالٍ مرتفع<sup>١</sup> . والحزورة الرايية الصغيرة والتل الصغير<sup>٢</sup> . ويظهر انه كان بنى صرحه فوق تل في محل منفرد ، ليختلي هناك على طريقة الرهبان والنسك .

وكل ما عرفه أهل الأخبار عن ( عمير بن جندب ) الجهني ، انه كان من جهينة ، وانه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً ، وانه مات قبيل الاسلام<sup>٣</sup> .

وكان عامر بن الظرب العدواني من الحكماء ، نسبت اليه أقوال في الحكم والدين . منها: «إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء ، لأحياهم الدواء » . ثم قال: «إني أرى أموراً شتى وحتى . قيل له : وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حياً ، ويعود اللاشيء شيئاً ، ولذلك خلقت السماوات والأرض ، فتولوا عنه ذاهبين<sup>٤</sup> .

وقد نسبوا اليه جملة أحكام ، منها حكمه في ( الخنثى ) ، وقد ذكروا أن حكمه هذا قد أقرّه الاسلام . وقالوا إن العرب كانت إذا أشكل عليها أمر في قضاء ، أو حارت في أمر معضل ترى وجوب الحكم فيه برأي صائب وعقل وتدبير ، ذهبت اليه ، فإذا حكم كان حكمه الحكم الفصل ، فلا راداً له<sup>٥</sup> .

ونسبت الى كل من عبد الطابحة بن ثعلب بن وبرة بن قضاة وعلاف بن شهاب التميمي أبيات ، فيها اقرار بوجود إله واحد خالق لهذا الكون ، وبوجود الحساب والثواب والعقاب<sup>٦</sup> .

وأما ( المتلمس بن أمية ) الكناني ، فذكروا انه كان قد اتخذ من فناء الكعبة موضعاً يخطب فيه ، ويعظ قومه عظات دينية ، فكان في جملة ما قاله لهم :

- ١ تاج العروس ( ١٧٨/٢ وما بعدها ) ، ( صرح ) .
- ٢ تاج العروس ( ١٣٨/٣ ) ، ( حزر ) .
- ٣ بلوغ الارب ( ٢٦١/٢ وما بعدها ) .
- ٤ المحبر ( ١٣٥ ، ١٨١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ) ، بلوغ الارب ( ٢٧٥/٢ وما بعدها ) .
- ٥ الروض الانف ( ٨٦/١ ) ، ابن هشام ( ١٣٤/١ ) ، ( محمد مجيب الدين عبد الحميد ) ، المعمرن ( ٤٤ وما بعدها ) ، عيون الاخبار ( ٢٦٦/١ ) ، البيان والتبيين ( ٢٦٤/١ ، ٣٦٥ ، ٤٠١ ) ، ( ٧٢/٢ ، ١٩٩ ) ، ( ٣٨/٣ ، ٣٩ ، ٢٩٩ ، ٣٦٩ ) .
- ٦ الاغانى ( ١١٣/٣ ) ، ( طبعة بيروت ) ، مروج ( ٦٠/٢ ) .

« انكم قد تفردتم بالهة شتى ، واني لأعلم ما الله راضٍ به . وإن الله تعالى رب هذه الآلهة ، وانه ليحب ان يعبد وحده » . فنفرت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنبته ، وقالوا عنه انه على دين بني تميم<sup>١</sup> .

وفي أبيات منسوبة الى زهير بن أبي سلمى الشاعر المعروف إقرار بوجود إله عالم بكل ما في النفوس ، هو (الله) ، لا تخفى عليه خافية ، فلا يجوز كتمان شيء عنه ، وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا مخلص له<sup>٢</sup> .

ونسب الايمان بالله واليوم الآخر الى أشخاص آخرين ، منهم : عبدالله القضاعي والشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب ، والأول منهم هو ابن تغلب بن وبرة بن قضاة ، كان من الحكماء الخطباء ، يتبع الحنيفية ، وينهج على نهجها مثل الحنفاء<sup>٣</sup> .

وأما الثاني ، وهو عبيد بن الأبرص ، فشاعر جاهلي شهير، له في قتله قصة، هي من ذبول قصة ( الغريين ) للمندر بن ماء السماء . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم ( الله ) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنين بالمانيا وبالمحتم المكتوب ، ونراه في القصيدة البائية يتوكل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه فيقول :

من يسأل الناس يجرموه      وسائل الله لا يخيب  
بالله يدرك كل خير      والقول في بعضه تلغيب  
والله ليس له شريك      علامٌ ما أخفت القلوب<sup>٤</sup>

١ بلوغ الارب ( ٢٧٧/٢ ) .

٢ فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتنم الله يعلم  
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم  
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، للامام تغلب ( ص ١٢ ) ، ( طبعة دار الكتب  
المصرية ) ، شعراء النصرانية ، ( القسم الرابع ص ٥١٨ ) ، بلوغ الارب ( ٢٧٧/٢ )  
وما بعدها ) .

٣ بلوغ الارب ( ٢٨٠/٢ ) .

٤ البيان والتبيين ( ٢٢٦/١ ) ، شعراء النصرانية ( القسم الرابع ص ٦٠٧ وما  
بعدها ) ، أسماء المغتالين ( ٢١١ ) ، ( نوادير المخطوطات ) .

ونراه يقول في المنايا :

فأبلسخ بنيّ وأعمامهم بأن المنايا هي الوارده  
لها مدة فنفس العباد إليها وإن كرهت قاصده  
فلا تجزعوا الحمام دنا فللموت ما تلد الوالده<sup>١</sup>

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويتذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاته الشدائد والأهوال ، وينصح الناس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميالة الى التقشف والتصوّف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة ؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ أو هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟

وأما ( كعب بن لؤي بن غالب ) . فهو من أجداد النبي . وقد كان على الحنيفية ، واليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة ، فكان يعظهم ويوجههم ويرشدهم يأمرهم بالطاعة والتفكر في خالق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخريين ، ويحثهم على صلة الأرحام وإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القرية والتصدق على الفقراء والأيتام<sup>٢</sup> .

هذه خلاصة موجزة لسير من حشرهم أهل الأخبار في زمرة الخنفاء ، تريك آراء الجماعة تكاد تكون واحدة : كفر بالأصنام وبالشرك كله ، وإعراض عن عادات قومهم ، وثورة على عقائدهم ، وترقب لحدوث تطور واصلاح يقضي على الجهالة ، وقد مهدوا له بدعوتهم تلك التي أشاعوها بين بني قومهم فجلبت عليهم السخط والغضب الشديد ، مما حمل أكثرهم ، وهم في الغالب من مكسة وأطرافها ، على الفرار من بلدتهم الى أطرافها المنعزلة الآمنة وغيرها من الأماكن الخالية ، ليكونوا في أمان من ايذاء قومهم لهم ، وفي وسط يفكرون فيه في خلق السماوات والأرض تفكيراً هادئاً ، فلا يزعجهم مزعج ، ولا ينغصن حياتهم هناك منغص .

١ شعراء النصرانية ( القسم الرابع ص ٦٠٤ وما بعدها ) .  
٢ ابن سعد ، الطبقات ( الجزء الاول ، القسم الاول ص ٣٩ ) ، بلسوغ الارب ( ٢ / ٢٨٢ ) .

لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم إن لم تقل كلهم من القارئ الكاتين ، ونسبوا الى بعضهم قراءة الكتب والصحف والزبور ومجلة لقمان . يريدون بذلك الكتب المقدسة . ويفهم من كلامهم في بعض الأحيان ان منهم من كان يحسن فهم العبرانية أو لغة بني لرم . ولكن الأخباريين عفا الله عنهم لم يتبسطوا لنا في الحديث عن ماهية تلك الصحف وعن محتويات مجلة لقمان وعن الكتب المنزلة ، ولم يأتوا بنماذج مفصلة طويلة أو قطع ترشد إلى المظان التي نقلت منها . فأضاعوا علينا ، باهمالهم الإشارة الى هذه الأمور ، أشياء كثيرة مهمة ، بنا حاجة ماسة إلى معرفتها ، للوقوف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبيل الاسلام وابان ظهوره .

ويؤكد أهل الأخبار ان بعض أولئك الحنفاء كانوا يسرون على سنة ابراهيم وشريعته ، وان بعضاً آخر منهم كان يلتمس كلماته ويسأل عنها ، وانهم في سبيل ذلك تحملوا المشاق والأسفار والصعاب . وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشام وأعالي العراق . أي المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية يومئذ ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان . وقد أضافوا اليهم الأخبار أحياناً ، وذكروا ان الرهبان والأخبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمل ، فليس عندهم ما يأملونه ويرجونه من دين ابراهيم واسماعيل ، ولذلك لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ، بل ظلوا ينتظرون الوعد الحق ، ومنهم من مات وهو على هذه العقيدة . مات معتقداً بدين ابراهيم حنيفاً ، غير مشركٍ بربه أحداً .

أما كيف كانت شريعة ابراهيم ، وعلى أي نهج سار الحنفاء ، وهل كان لهم كتاب أو كتب أو نحو ذلك ؟ فأسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار إجابة صريحة واضحة . لذلك صرنا في جهل بأمر تلك الشريعة : شريعة ابراهيم ، شريعة التوحيد الحق .

ويذكر أهل الأخبار أنه كان لأتباع ابراهيم من العرب علامات وعادات ميزوا أنفسهم بها عن غيرهم ، منها : الختان ، وحلق العانة ، وقص الشارب . وهي علامات جعلها بعض المفسرين مسن ( كلمات ابراهيم ) التي ذكرت في القرآن الكريم ، في الآية : « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن »<sup>١</sup> . ذهب القائلون

١ البقرة ، الآية ١٢٤ .

بهذا الرأي الى أن تلك الكلمات هي عشر : « خمس في الرأس ، وخمس في الجسد .  
فأما التي في الرأس ، فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب وفرق الرأس والسواك .  
وأما التي في الجسد ، فالاستنجاء وتقليم الأظافر وشفّ الإبط وحلق العانة والختان »<sup>١</sup> .

ومن سنن شريعة ابراهيم الاختتان . وهو من العادات القديمة الشائعة بين العرب  
الجاهليين الوثنيين . أما العرب النصارى ، فلم يكونوا يختنون . فالحنفاء في هذه  
العادة والوثنيون سواء . وفي أخبار معركة ( حنين ) أن الأنصار حينما أجهزوا  
على قتلى ثقيف ممن سقط في هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبداً ، عندما كشف  
ليستلب ما عليه وجد أغرل . فلما تبين ذلك للأنصار ، نادى أحدهم بأعلى صوته :  
يعلم الله أن ثقيفاً غُرل ما تختن . فقام اليه المغيرة بن شعبة ، وهو من ثقيف ،  
فأخذ بيده ، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه في العرب ، فقال له : لا تقل  
ذلك فذاك أبي وأمي ، إنما هو غلام لنا نصراني ، ثم جعل يكشف له قتلى  
قومه ويقول له : ألا تراهم مختنين<sup>٢</sup> ؟

ويتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعدون الغرل شيئاً معيماً ، ومنقصة تكون  
حديث الناس . وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختنون ، وأن  
الاختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم ، وأنهم في ذلك كاليهود<sup>٣</sup> .  
وقد ورد في الموارد اليهودية ما يفيد اختتان العرب . ولعل التوراة التي ذكرت  
قصة اختتان اسماعيل ، أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التي كانت  
شائعة بينهم في ذلك العهد<sup>٤</sup> .

### الاعتكاف :

وقد نسب الاعتكاف في الكهوف وفي البراري وفي الجبال الى عدد من هؤلاء  
الحنفاء . فقد ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا قد اعتكفوا في المواضع الخالية البعيدة

- ١ تفسير الطبري ( ٤١٤/١ وما بعدها ) ، روح المعاني ( ٣٧٤/١ ) ، بلسوغ الارب
- ( ٢٨٧/٢ ) ، المحبر ( ٣٢٩ ) .
- ٢ الطبري ( ١٣٠/٣ ) ، « ذكر الخبر عن غزوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،  
هوازن بحنين » .
- ٣ الاغانى ( ٩١/٦ ) ، « ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه » .
- ٤ Reste, S. 175.

عن الناس ، وحبسوا أنفسهم فيها ، فلا يخرجون منها إلا لحاجة شديدة وضرورة ماسة<sup>١</sup> . يتحنثون فيها ويتأملون في الكون ، يلتمسون الصدق والحق . والتحنث التعبد . فكانوا يتعبدون في تلك المواضع الهادئة الساكنة ، مثل غار ( حراء ) . وقد ذكر أن الرسول كان يتحنث فيه الليالي ، يقضيها في ذلك الغار<sup>٢</sup> .

ويعبر عن التعبد ليلاً بـ ( التهجّد ) أيضاً . وذكر ان التهجد الصلاة ليلاً . وقد كان الرسول يتهجّد<sup>٣</sup> . والتهجد التيقظ والسهر بعد نومة من الليل . والهجود النوم عند العرب . ويظهر ان تفسير التهجد بالتعبد ليلاً ، انما ورد من تفسيرهم لما ورد في القرآن الكريم : « ومن الليل فتهجد به نافلة ، عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً »<sup>٤</sup> . فخص العلماء التهجد بالتعبد ليلاً .

ويعبر عن التعبد بالنسك ، والنسك : العبادة والطاعة وكل ما يتقرب به الى الآلهة . والنسك : المتعبدون . وقد كان الحنفاء من النسك أي المتعبدين . وعدوا الذبائح من النسك . وجعلوا النسك : الذبيحة<sup>٥</sup> . والذبائح ، أي النسائك ، هي من أهم مظاهر التعبد والزهد عند الجاهليين .

ومن نسب الى النسك والرهبنة من الجاهليين ( أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ابن مالك بن النعمان ) ، أحد ( بني ضبيعة بن زيد ) . وكان في الجاهلية يسمى ( الراهب ) ، لأنه كان مترهباً ، وقد كان من المقدمين بيثرب ، إذ كان رأس الأوس فيها ، فلما جاء رسول الله الى المدينة ، خاصمه ، ثم خرج الى مكة مباعداً له ، ومعه خمسون غلاماً من الأوس ، واشترك مع قريش يوم أحد<sup>٦</sup> .

- 
- ١ تاج العروس ( ٢٠٣/٦ ) ، ( عكف ) .
  - ٢ تاج العروس ( ٦١٦/١ ) ، ( حنث ) .
  - ٣ تاج العروس ( ٥٤٣/٢ ) ، ( هجد ) .
  - ٤ الاسراء ، الآية ٧٩ ، تفسير الطبري ( ٩٥/١٥ ) ، روح المعاني ( ١٢٧/١٥ ) .
  - ٥ اللسان ( ٤٩٨/١٠ ) وما بعدها ، ( نسك ) .
  - ٦ نهاية الارب ( ٨٩/١٧ ) ، ( ذكر غزوة أحد ) ، امتاع الاسماع ( ١١٥/١ ) ، « غزوة أحد » .